

الدكتور
محمد أبو زيد الفقى



الذاتية

دار البيان للطباعة والنشر
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـــد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرســـلين سيدنا محمد بن عبد الله. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الذين شرفوا الحياة بسلوكهم، وعمروها بسعيهم فـــيها وضـــربوا لنا المثل الأعلى فيما ينبغى على المسلم أن يصل غليه فى طاعة الله تعالى عبادة وخلافة.

وبعد ،،،

فالإنســـان بحكـــم خلافته لله تعالى فى الأرض يقضى عمره بحـــثاً عن أسرار الحياة، فى الأرض، والفضاء، ثم أحيانا يتفلسف فيبحـــث فى عالم الغيب، وأحياناً يستبد به الغرور والشطط فيبحث فـــى ذات الله تعـــالى، ويتصور أنه قادر على رؤية الله تعالى فى الدنيا، ويسمى هذا التصور مكاشفة وقرباً.

ومـــع ذلـــك كله فالإنسان ينسى أن يبحث فى نفسه، ويسبر غورهـــا، ويقـــف على أسس مكرها وخداعها: ودراسة النفس هى البداية الصحيحة لحياة سوية هادفة.

ولقد عهد الله تعالى إلى آدم، وحذره من نفسه ومن الشيطان، ولكن آدم عليه السلام انشغل بزخارف الجنة ونعيمها، ونسى غرور

النفس وشططها، فجاء الشيطان وزين الخلود لآدم إذا عصى ربه وأكل من الشجرة وسقط آدم فى هذا الاختبار، وعلة سقوطه أنه نظر إلى الأشياء وانفعل بها، ولم ينظر إلى ذاته، مع أنها كانت قريبة العهد بالخلق، ولم تحمل معها أدران القرون كما تحمل ذواتنا الآن.

وحينما نظر آدم إلى ذاته أدرك ما وقع فيه من خطأ، لجأ إلى ربه مرة أخرى بنفس صافية وذات طاهرة مدركة لمهتها فى الحياة إدراكاً دقيقاً، فتاب الله تعالى عليه وهداه إلى الصراط المستقيم.

والقرآن الكريم هو كتاب النفس الأول، لأنه كلام الله تعالى، وهو الذى خلق الإنسان، ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو يرشدنا دائماً إلى أسرار الذات البشرية، إلا أن البعض منا يركزون على ما فى القرآن الكريم من علوم أخرى، ويُعرضون عن علم النفس فى القرآن الكريم، مع أن هذا الكتاب قد نزل أساساً لهداية النفس البشرية وإعادتها إلى فطرتها الصادقة.

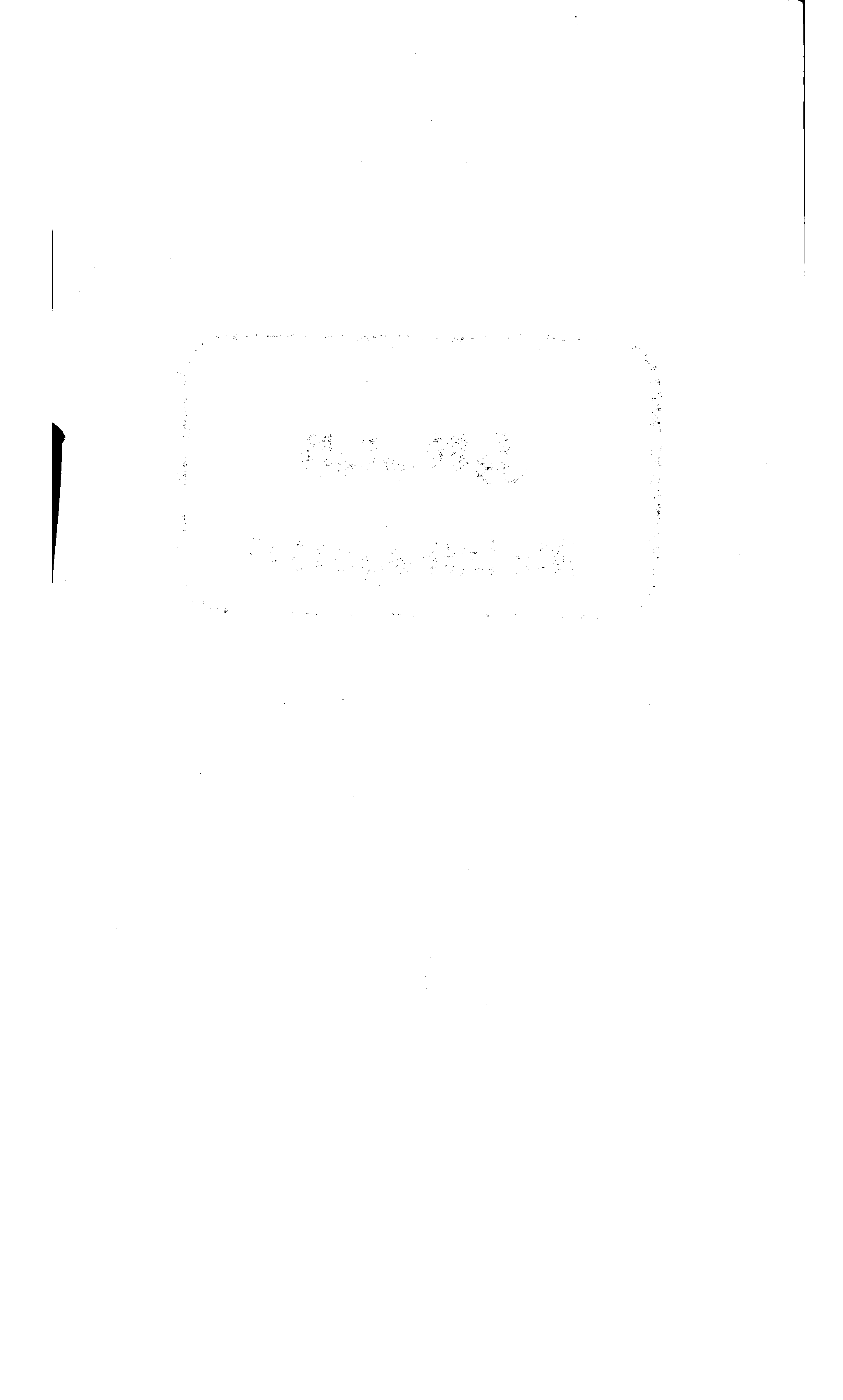
وعلى الصفحات التالية محاولة لدراسة الذات الإنسانية من جوانبها العملية.

وهـــي دراســـة لمجموعـــة من الذوات مثل الذاتية الفاعلة
والذاتية المنفعلة، والذاتية الغافلة، والذاتية المتضخمة، وهي محاولة
لتفسير سلوك الإنسان لمعرفة أسراره وأغواره، وهي دراسة هامة
لكـــل مـــن يتصدى للدعوة إلى الله تعالى، حتى تكون دعوته على
بصـــيرة، وعلم بذوات المدعوين، ولكنها تبقى محاولة وإن كنت لم
أصل بها وفيها إلى نهاية الطريق فحسبي أنني مضيت فيه ...

أ. د/ محمد محمد أبو زيد

الباب الأول

الذاتية الفاعلة



تمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وآله الكرام الطيبين الطاهرين، وعلى من اهتدى بهديه وسار على نهجه إلى يوم البعث العظيم.

وبعد ،،،

فقد كثرت مشكلات الدعوة الإسلامية والعقبات التى توضع فى طريقها فى العصر الحديث، وقد حاول كثير من المفكرين الإسلاميين، والباحثين المخلصين أن يعثروا على حل لهذه المعضلة، فصلاحية الدعوة الإسلامية للانتشار لا ريب فيها، وصلاحيتها للقيادة الفكرية والسياسية أمر أثبته التاريخ وأقره الواقع، فلماذا تتعطل الدعوة الإسلامية في سيرها، أو تنحرف في مسارها فى وقتنا الحاضر؟!

والإجابة على هذا السؤال الكبير هى المعالجة العلمية لقضايا الدعوة الإسلامية المعاصرة، ولأنها قضايا، لا قضية واحدة، فإن المعالجة الرأسية لكل قضية على حدة، أكثر فائدة من المعالجة الأفقية لكل القضايا دفعة واحدة، لأن هذه المعالجة الأفقية وإن كانت تجمع القضايا، إلا أنها تفتت الحلول، وتعمم المدلول، وتجعل النتيجة يائسة مع وجود الأمل، أو متفائلة مع تراكم العقبات.

وفى هذه المحاولة السريعة لدراسة قضايا الدعوة الإسلامية المعاصرة، أبدأ بقضية واحدة هى أولى القضايا والدعوة الإسلامية

المعاصرة، أبدأ بقضية واحدة هى أولى القضايا ويتأسس عليها ما بعدها، وهى قضية ذاتية الداعية، وأثرها على دعوته.

إن كثيراً من الدعاة الآن يعتبرون أنفسهم مبلغين فقط، بمعنى أنهم يبلغون دعوة الإسلام إلى الناس، ويقيسون دورهم بالكم الذي بلغوه من المعلومات، ولا يلتفتون إلى الكيف الذي أصلحه هذا البلاغ في مشاعرهم الخفية، وفي ذواتهم الظاهرة للناس، لأن الداعية الحقيقي يجب أن يكون وعاء لدعوته ولذلك لما سئلت السيدة عائشة عن أخلاق النبي ﷺ قالت "كان خلقه القرآن"[1]، معنى هذا أنه كان وعاء للقرآن الذي هو وعاء الدعوة وسياجها، وهذا يقودنا إلى نتيجة مؤداها. أن الذاتية الطاهرة للداعية أساس في دعوته، وعليها يتوقف نجاحه في هذه الدعوى، ولكي يتم بحث هذا الموضوع بحثاً علمياً. لابد من التركيز على ذاتية الداعية.

وأثرها فى إيمان المدعوين، بمعزل عن العوامل الأخرى التي تساعد على الإيمان مثل العبادات والأخلاق والمعاملات في الإسلام، وأفضل النماذج للدراسة هو ذاتية الداعية الأول المصطفى ﷺ ، وأفضل الشخصيات التى تحقق لها الإيمان القوى قبل أن تفرض العبادات هم أصحابه الذين آمنوا في فجر الدعوة الإسلامية، وعلى هذا فالدراسة فى هذا الموضوع تنقسم إلى فصلين:

---

(١) الحديث رواه ابن كثير في تفسيره جـ٣ ص٢٣٧ نقلاً عن النسائي في تفسيره. لقوله تعالى (قد أفلح المؤمنون).

الفصل الأول
الذاتية الطاهرة وتأثيرها

القسم الأول: ذاتية الداعية وشمائليه:

الداعية المقصود بالدراسة هو النبى ﷺ لقد أخبر أناس من مكة – سراً – أنه رسول الله تعالى، وأنه مكلف برسالة يبلغها للناس كافة، ولم يكن القرآن الكريم قد نزل منه ساعتها إلا آيات قليلة معظمها خطاب من الله تعالى للنبي ﷺ ، ولكنهم مع قلة الآيات وعدم فرض العبادات، آمنوا به إيماناً جعلهم يضحون بأرواحهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، ونصرة دينه الذي لم يكتمل بعد، فما الذي دفعهم لهذا الإيمان القوي الذي يفتت الجبال بقوته، ويقهر الطغاة بعزته؟ وعزته ليست في قوة أصحابه المادية، فقد كانت معدومة، ولكنها كانت في ضعفهم وشدة تمسكهم به.

وذاتية النبى ﷺ الطاهرة تتضح في كثير من آي الذكر الحكيم نختار منها ما يلى:

١ – قوله تعالى: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ٠ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ٠ وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [١].

٢ – قوله تعالى: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٠ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ" [٢].

٣ – قوله تعالى: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" [٣].

فى الآيات السابقة ملامــح للشخصــية الكبيــرة، والذاتيــة الطاهرة للمصطفى ﷺ ، فالآيات الأولى تنفى عنه الجنون، وتثبت أن له أجراً كريماً غير ممنون[٤] – أى عن اســتحقاق، ثــم تــأتى شهادة الحق سبحانه وتعالى في الآية الثالثة بأن رسول الله ﷺ على خلق عظيم، وهذه الشهادة هى أعظم وأشرف دليل علــى طهــارة ذاتية ﷺ.

---

(١) سورة القلم ١ : ٤.

(٢) سورة التوبة ١٢٨ : ١٢٩.

(٣) سورة آل عمران ١٥٩.

(٤) غير ممنون: غير منقطع وبه جزالة العطاء "فياض غير متوقف".

والآيات الثانية تبين الجانب العملى لهذه الذاتيـــة الطـــاهرة، فهى شخصية فاعلة في إبلاغ الخير للناس، منفعلة بإعراضهم عن الخير، أى أنها شخصية تفرح لهداية الناس، وتحزن على ضلالهم، وهي بالنسبة للطائفة التي سلكت طريق الهدايـــة تظللهـــا بالرأفـــة والرحمة، وهي ملامح عظيمة لهذه الذاتية الطاهرة، ولـــو اقتـــدى الدعاة الآن بالنبي ﷺ فى هذه الجوانب النفيسة لوضعوا الأســـاس المتين لنجاح دعوتهم، وإن كانت ذاتية النبي ﷺ ستظل ســـامقة لا يصل إلى منزلتها أحد.

وفى الآية الأخيرة إيضاح لمعنى الرأفة والرحمة في الآيات السابقة، فالله سبحانه وتعالى يطلب منه فى هذه الآية أن يعفو عـــن المؤمنين وأن يستغفر لهم فى ذات الوقت، وهذه مقابلة نفسية فـــي غاية الغرابة، ولكنها ليست بعيدة على الشخصية الســـوية الكاملـــة شخصية المصطفى ﷺ، فالإنسان يغفر لأخيه الإنسان خطأه وهـــذا ممكن من وجوه، أما أن يغفر له ويستغفر له فذلك هو الذي يكشف للباحث عن سر من أسرار ذاتية النبي ﷺ الطاهرة. وهـــو قيـــاس ثابت للبعد، أو القرب من التأسي بالمصطفى ﷺ ، ويمكـــن لكـــل داعية أن يجربه داخل نفسه تجاه إنسان أخطأ في حقه، هل يغفـــر

له؟ وهل يستغفر له؟ الإجابة الصادقة هي التي تحدد ذاتية الداعية، ومدى نجاحه في دعوته.

شمائل أخرى للذاتية الطاهرة:

انفرد النبي ﷺ من بين سكان مكة بأن له شمائل ثابتة، قبل البعثة وبعدها وقد عد القضاعي من خصائصه ﷺ أنه لا يشهد على جور[١]، ويقول الأستاذ/ محمد أحمد جاد المولى: عن النبي ﷺ أنه كان (ذا شجاعة ونجدة وبسالة وشدة، وبأس وشهامة، وحماسة وصرامة، وصولة وإقدام، يشتت شمل الكماة ويبطل خيل الأبطال، أذهب الشك بحق اليقين، وأرهب العذاب سيفه المتين، وسفه أحلامهم ونكث أعلامهم، وزيف أقوالهم وأفعالهم، حضر الوقائع وشهد الملامح. وتولى الكماة عنه وهو مستقر، وفر المسلمون يوم حنين من حوله وهو ثابت لا يبرح، يقبل لا يدبر ولا يتزحزح، ما لقي كتيبة إلا كان أول ضارب، ولا توانى القوم لحدوث صوت إلا كان أسرع واثب، لم ير أثبت منه جأشاً في الجهاد، ولا أقرب لجهة المشركين وقت الجلاد، طالما، ثبت في الشدائد وهو مطلوب، وصبر على البأساء والضراء وهو مكروب، ونفسه في اختلاف

---

(١) الإمام جلال الدين السيوطي. الخصائص الكبرى ص٤١٦ ط دار الكتب.

الأحوال ساكنة، لا يتحير في شدة، ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة، وقد لقي ﷺ بمكة من قريش ما تشيب له النواصي، وهو مع الضعيف يصابر صبر المستعلى، ويثبت ثبات المستولى، تصدى لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته، وأحدقوا بجنباته، وهو في قطر مهجور، وعدد محقور، وبذلك جمع بين التصدي لشرع الدين حتى أظهره ومكافحة العدو حتى قهره)[١].

هذه الشمائل التي سجلها الكاتب منتزعة من السيرة النبوية الطاهرة، وليست نشيداً منسقاً من تابع لمتبوعه كما يتوهم القارئ لأول مرة ينظر فيها إلى الكلمات، وهذه الشمائل التي تدل على الذاتية القوية للداعية الأول، هي نفسها التي جعلت الرواد الأوائل من أمثال ياسر بن عامر وزوجته سمية وبلال بن رباح وغيرهم يعذبون العدو وهم يعذبون، وكانوا مع الضعف يصابرون صبر المستعلى، ويثبتون ثبات المستولى، وهذا هو السر في بسالتهم الشديدة في مواجهة الباطل، ولم ينزل قرآن يأمرهم بهذا الفداء وقتها، غير أن اهتمام القرآن الكريم كان وقتها ينصب على التوحيد

---

(١) الأستاذ/ محمد أحمد جاد المولى. محمد ﷺ المثل الكامل ص١٨، ١٩ ط، المكتبة التارية سنة ١٩٣٧.

ونبذ عقيدة الشرك. ولكن الذي حدث هو انفعال ذاتيـــة المـــدعوين بذاتية الداعية.

وليس من أمل لأمة الإسلام في يومها المخبـــول، وغـــدها المجهول، إلا أن تترك كل المثل العليا الزائفة وتعود لمثلها الأعلى الكامل الشامل صاحب الذاتية الطاهرة المصطفى ﷺ ، (إنه الهدف السامي الذى إذا ولينا وجوهنا شطره، بدل الضعف قـــوة، والـــذل عزة، والفقر غنى، والتفرق وحدة وألفة، والجبن شجاعة، والخمول ذكاء، ونباهة، والكذب صدقاً والاستكانة إباءً، والانحطاط رفعـــة، والبغض محبة، ونكث العهد وفاء والأثرة تضحية لصالح المجموع. هذا هو المثل الأعلى الذي يجب أن نوغل في الإسراع إليه ســـيراً على تلك السنة، وتخلقاً بأخلاق تلك الشخصية الكاملـــة، المملـــوءة حياتها بمكارم الفعال، وجلائل الأعمال. والمترعة بالمثل العمليـــة العليا)[١]. وكما أن النبى ﷺ مثل أعلى لكل الأمة، فإنه مثل للدعاة، إن تطهير ذاتية الدعاة فى العصر الحديث غدات مطلباً مهماً لنجاح الدعوة الإسلامية.

---

(١) المرجع السابق المقدمة للأستاذ عرفات الدويك.

وفى كتابة رجال حول الرسول، ربط الأستاذ خالـد محمـد خالد، بين ذاتية النبي ﷺ الطاهرة القوية، وبين تلـك التضـحيات الهائلة التي قام بها أصحابه رضوان الله عليهم فقال تحت عنـوان (النور الذى اتبعوه) قال: (أى معلم كان وأى إنسان هـذا المتـرع عظمة وأمانة وسمواً؟: ألا إن الذين بهرتهم عظمته لمعذورون. وإن الذين افتدوه بأرواحهم لهم الرابحون ... رسول الله إلى الناس فـي قيظ الحياة، أى سر توفر له فجعل منه إنساناً يشرف بنى الإنسان؟ أى إيمان وأي عزم وأي مضاء؟! أي تقديس للحق ؟! أي احتـرام للحياة والأحياء ؟!).

ثم يقول عن كلماته هذه (إنها تومئ على استحياء إلى بعض سمات تفوقه وعظمته، التي جعلت أفئدة الناس تهوى إليه، والتـي جذبت نحوه في ولاء لا نظير له هؤلاء الذين .. لم تكد الحياة تنشق عبيرها، حتى جعلت من كل رياحها وأنسامها بشـراً بـين يديـه، ورسلاً إلى كل بقاع الإنسان ومواطنه حاملة مبادئ الدعوة وعبيـر الراعية، وأجل تلك هى الغاية لا أكثر ... أن نبصر فـي ضـوء شعاع من ضيائه الغامر بعض سمات عظمته النادرة التي نادت إليه ولاء المؤمنين، وجعلتهم يرون فيه الهدف والطريـق. والمعلـم ..

والصديق)[١]، لقد وصل الأستاذ خالد محمد خالد – موفقاً – إلى الربط بين الذاتية الطاهرة للنبي ﷺ والذاتية المنفعلة الطاهرة عند أصحابه، وأعطى بذلك أساساً متيناً لدراسة سلوكهم المعجز المحير لكل باحث، اسمع إلى قوله: (لكي نبصر في ضوء شعاع من ضيائه الغامر بعض سمات عظمته النادرة التي دنت إليه ولاء المؤمنين).

وفى القسم الثانى من هذا المبحث سأقدم – بإذن الله تعالى – تصويراً لصدى سمات عظمة النبى ﷺ ، عند الذين اتبعوه قبل أن تفرض الفروض. وقبل أن يكتمل الوحي النازل من الله تعالى.

القسم الثاني: أثر الذاتية الفاعلة على المنفعلة:

الذاتية الفاعلة هى ذاتية المصطفى ﷺ، والذاتية المنفعلة هى ذاتية الأوائل من المؤمنين، الذبن آمنوا في فجر الإيمان، وأسلموا قبل أن يكتمل بناء[٢] الإسلام، ومع ذلك فالدراسة النفسية لا تتجه إلى إثبات هذا الإيمان المبكر، واعتناق دين لم تكتمل أركانه بعد، بل تتجه الدراسة النفسية، إلى قوة التمسك بهذا الدين مع ما تعرض

---

(١) الأستاذ/ خالد محمد خالد. رجال حول الرسول ﷺ ص١٤، ١٥ ط، دار ثابت القاهرة سنة ١٩٨٤.

(٢) راجع حديث بني الإسلام على خمس لتدرك صدق هذه المقولة.

له المعتنقون من تعذيب ندهش لقسوته الآن، رغم اتساع المساحة الزمنية بيننا وبينهم بما يزيد على ألف وأربعمائة عام، وقوة التمسك بهذا الدين، مع قسوة التعذيب من قبل الخصوم، تثير في النفس أكثر من سؤال: لماذا تمسك هؤلاء بدين لم تكتمل رسالته بعد، وبإسلام لم تقدم كل أركانه؟ وكيف ضحوا بأرواحهم وهم ما يزالون في بداية الطريق ولما يتبينوا معالمه ومحدداته؟! والإجابة على كل هذه الأسئلة ستأتي بعد أن أقدم للقارئ صورة عن ذاتية هؤلاء الأوائل.

إن الذين ضحوا من أجل الإسلام كثيرون، وهم على طريق الدعوة الإسلامية أعلام هادية، ونجوم تضئ دروب الدعوة، وتلهم الرشد للدعاة، وهم عنوان على الدعوة الإسلامية أبقى من الزمان، وأقوى من الحياة، لأنها رسالة من صانع الحياة ومؤقت الزمان.

ومع كثرة هؤلاء الذين ضحوا من أجل الإسلام ومع علو قدرهم سأقتصر في هذا البحث بالحديث عن أولئك الذين أسلموا وماتوا في سبيل الإسلام، وهم بمعزل عن مهدفات التضحية ومحفزات الإيمان، فقد آمنوا بالإسلام وواقعة لا يبرهن على قيام دولة يضحى من أجلها ولا يقابل الإيمان بالله الواحد إلا التعذيب والهوان.

وعند بداية البداية، وقبل أن تشرق شمس الإسلام وقف نفر من الضعفاء الذين ليست لهم منعة من آمال ومال، وقفوا في السحر ينتظرون اليوم الجديد، وما زال التاريخ يؤكد ويعضده في ذلك علم النفس الحديث أن إيمان هؤلاء المتسحرين ظل أقوى من إيمان كثير من الذين ساروا في ضوء شمس الإسلام الساطعة استضاءوا بنورها، وانتفعوا بنارها، وعن هؤلاء يقول ابن الأثير: **(وهم الذين سبقوا إلى الإسلام ولا عشائر لهم تمنعهم، ولا قوة لهم يُمنعون بها، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، ورمضاء مكة والنار، ليفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من يتصلب فى دينه ويعصمه الله تعالى منهم).**

مثلٌ عليا يجبُ التَمثُل بها

ومنهم عمار بن ياسر أسلم هو وأبوه وأمـــه، أســلم قــديماً ورسول الله ﷺ فى دار الأرقم، بعد بضعة وثلاثين رجلاً، أسلم هو وصهيب فى يوم واحد، فكانوا يخرجون عمارا وأباه وأمـــه إلـــى الأبطح، إذا حميت الرمضاء يعذبون بحر الرمضاء، فمر بهم النبى ﷺ فقال: "صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة" فمات ياســر مـــن العذاب. وأغلظت سمية القول لأبي جهل فطعنها في قلبها بحربة في يده فماتت وهى أول شهيد في الإسلام. ومنهم خباب بـــن الأرت، وكان إسلامه قديماً، قبل سادس ستة. قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم فأخذه الكفار وعذبوه عذاباً شديداً، فكانوا يعرونه ويصـــلقون ظهره بالرمضاء، ثم بالرضف، وهي الحجارة المحماة بالنار، ولووا رأسه، فلم يجبهم إلى شئ مما أرادوا منه، هاجر وشـــهد المشـــاهد كلها، مع رسول الله ﷺ ، ونزل الكوفة ومات سنة ست وثلاثـــين. ومنهم صهيب بن سنان الرومي، ومنهم أبو فكيهـــة ومـــنهم لبيبـــة جارية بني مؤمل، ومنهم زنيرة وكانت لبني عدى، ومنهم النهديـــة مولاة لبني نهد، ومنهم أم عبيس وقيل: عنيس وهـــي أمـــة لبنـــي زهرة[1] الكلمات السابقة للعلامة ابن الأثير توضح بعض الجوانـــب الباهرة في سيرة الأوائل الطاهرة، مع ذلك تحتـــاج إلـــى التأمـــل الدقيق.

( ) ابن الأثير. الكامل في التاريخ جـ٢ ص٦٦: ٧٠ ط، دار صـــادر ببيـــروت ١٩٧٩، وانظر في ذلك تاريخ الطبري جـ ص٣٢٥ وما بعدها ط دار المعارف.

نظرة فاحصة

جاء في الفقرات السابقة بعض العبارات التي يحسن بنا الوقوف عندها وهي تتلخص فيما يلي:

١- إشاعة العذاب ضد المسلمين من كبار الكفار، فقد رأينا أبا جهل مثلاً يشترك في تعذيب سمية زوجة ياسر بن عمار، يعذب أيضاً بلال بن رباح، ويتدخل في تعذيب باقي المسلمين.

معنى هذا أنهم كانوا يعتبرون الإسلام جريمة اجتماعية وليس عملاً فردياً يستوجب العقاب من ولي الأمر. وهي قضية خطيرة حرية بالتأمل لأنها تظهر مدى المعاناة التي كان يكابدها كل قادم جديد إلى ساحة الإسلام.

٢- إن عبارة ابن الأثير عن تاريخ إسلام عمار بن ياسر (بعد بضعة وثلاثين رجلاً) توهم أن عماراً أسلم في وقت واحد مع أبيه وأمه، والحقيقة في الدخول إلى الإسلام، وترتيب إسلامهم هكذا: (أسلم ياسر وسمية وعمار وأخوه عبد الله بن ياسر) (١). وهذا الفصل في تاريخ الإسلام بالنسبة لياسر

---

(١) عز الدين بن الأثير. أسد الغابة في معرفة الصحابة، جـ ص٣٤٢، ط دار الشعب سنة ١٩٧٠.

ابن عامر وزوجته، وابنه عمار، أمـــر ضـــروري عنـد التعرض لبحث حالة كل منهم، لأن ما أظهـــراه – ياســـر وسمية – من جلد وصبر يجعلهما في مرتبة إبنهما عمـــار، ويضعهما في درجة، هيهات أن يصل إليها عمار أو غيره من المسلمين.

وإذا كان التاريخ قد أشاد بعمار لأنه عـــاش بعـــد انتصـــار الإسلام، وأهمل أبويه فتلك محنة التاريخ التي سأتعرض لهـــا فـــي نهاية البحث، ولكن يظل مكان ياسر وسمية سامقاً شامخاً لأنهما من أوائل الأوائل في الإسلام، وإنهما لو فرطا لأثر ذلك تأثيراً خطيـــراً في مستقبل الإسلام بعد ذلك، إنهما جادا بنفسيهما من أجل أن يـــنعم الآخرون بصحيح العقيدة والعزة في الحياة: لقد عذبت سمية بنـــت خياط (من قبل المشركين عذاباً أليماً، وهي عجوز كبيرة، فصبرت ولم تصبأ عن الإسلام) [١]، هذه السيدة العجوز كيف تحملت العذاب وكيف تقاس بالذي أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، أو بالذي لم يكـــره على الكفر أصلاً ؟!.

٣- إن بعض المعذبين الأوائل لم يكونـــوا يتحملـــون العـــذاب كموقف سلبي لا يقدرون على غيره، بل كانوا يمارســـون

---

(١) عمر رضا كحالة. أعلام النساء، جـ٢ ص٢٦١ ، ط مؤسسة الرسالة ١٩٨٤م.

الدعوة إلى الله تعالى بالقول والفعل، ويبرهنون على صدق دعوتهم بما يلاقون من عذاب وهوان، ولولا هذه البطولة والبسالة من قبل هؤلاء لظل الدين في بدايته فرضاً نظرياً يسهل الالتفاف حوله بفصيح الشعر وبليغ النثر، وكان الأوائل المعذبون يدعون لدينهم بطرقهم الخاصة.

فها هي سمية بنت خياط زوجة ياسر بن عامر، وهي أمة عجوز، لا حول لها ولا قوة، وتقف بعد موت زوجها ياسر، تقف – وهى تعلم نهايتها – فى مواجهة رأس الكفر أبى جهل، ولا تكتفي برفض ما يعرضه عليها من شرك، أو من ترك للإيمان، بل تغلظ له القول، وتضعه في منزلته الطبيعية كسائمة من بهائم الأنعام، وتبين له أن لا عز من الشرك، وأن الشرك دنس وذلة، وينذرها بأنه سيضعها بين بعيرين يربطها بهما، في كل بعير يد ورجل، ثم يفصل جسمها عن بعضه، بعد أن يضع حربته في قلبها، ويخرجها من فمها، استمعت سمية إلى هذا الحكم الذي تعلم أنه سينفذ حتماً، استمعت إليه بلا اكتراث، بل علت على المشركين من سادتها، ورمتهم بالذلة والصغار. (إن سمية "الشهيد" وقفت يوم ذاك موقفاً يمنح البشرية كلها من أولها وآخرها شرفاً لا ينفذ، وكرامة لا ينصل بهاؤها ..! موقفاً جعل منها "أماً" عظيمة للمؤمنين في كل

العصور، وللشرفاء في كل الأزمان !!) [(١)] لقد تفنن المشركون في العذاب، ولكن ذلك لم يمنع هؤلاء الأوائل من التمسك بدينهم، بل الدعوة إليه أيضاً.

هذه المثل العليا العظيمة كان يجب على الأمة أن تتمثل بهم، ولقد رأى ورقة بن نوفل حين شاهد بلالاً يعذب، أنه لو مات على هذا الوضع من التمسك بدينه حتى الموت، رأى أنه يجب أن يتخذ مزاراً طاهراً لمثل طاهر، وربما كان ذلك من الأسباب التي دفعت المشركين إلى التخلي عن بلال وبيعه لأبي بكر ﷺ ، لأنهم كانوا يقدرون ما للمثل الأعلى الطاهر من تأثير، فها هو رسول الله ﷺ بذاتيته الطاهرة يؤثر في أصحابه الأوائل، وهاهو بلال يقبل على الموت وهو يدوي بصوته في جنبات الكون يهزه هزاً عنيفاً ليخلصه من شركه وبعده عن خالقه سبحانه وتعالى، فيدلهم على محور الوجود "أحد أحد" وينقل ابن كثير في البداية والنهاية عن ابن إسحاق قوله "فكان بلال بن رباح صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهرة ثم ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول لا والله لا تزال هكذا، حتى تموت، أو تكفر بمحمد ﷺ وتعبد اللاة والعزى، فيقول وهو في ذلك: – (أحد أحد) – وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب فيقول أحد أحد والله يا بلال، ثم يقبل على أمية بن خلف، ومن يصنع ذلك

---

(١) خالد محمد خالد رجال. حول الرسول ﷺ ص٢٢٣.

به من بني جمح، فيقول أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لاتخذنته حناناً).

لقد فطن أمية بن خلف إلى تلك الصلة القوية بين ذاتية النبي ﷺ الفاعلة وبين ذاتية أصحابه المنفعلة. ولذلك طلب من بلال رضي الله عنه أن يكفر بمحمد ﷺ، لكي يفصل ما اتصل بينهما. ولقد فطن أيضاً ورقة بن نوفل بعلمه وخبرته أن بلالاً لو قتل على هذه الحالة لأصبح مثالاً للبشرية كلها مثال خير وطهر ونقاء، وإذا لم يقتل فقد ضرب المثل فعلاً وتركه ملكاً لنا جميعاً نستخلص منه العبر والعظات وهيهات أن نوفيه حقه هيهات.

ومع تجاهل التاريخ لهؤلاء الأعلام إلا أن مكانتهم ظلت محفوظة عند كبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وها هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستقبل خباب بن الأرت ويوفيه حقه وحين جاء خباب بن الأرت إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال أدن مني فما أرى أحداً أحق بهذا منك، فجعل خباب يريه آثاراً في ظهره مما عذبه المشركون [١] ، وهذه شهادة من عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن يستحق أن يدنو من أمير المؤمنين دنو رفعة وتكريم، لا أحد يستحق أكثر من خباب بن الأرت أحد الذين لبتوا فكرة الإسلام في الأرض بما لا قوة في سبيل الله تعالى من عنت وتعذيب.

---

(١) أبو نعيم الأصفهاني. حلية الأولياء/ جـ١ ص٣٥٩، ٣٦٠ ط، دار الكتب العلمية ببيروت.

غفلة التاريخ

توفر على كتابة التاريخ الإسلامي مجموعة من العلماء الذين بذلوا الجهد وأفنوا العمر في جميع الأحداث والترجمة للأشخاص، وهو جهد مشكور أتاح لنا فيما بعد التعرف على شخصيات المسلمين وأيامهم.

إلا أنه يؤخذ على كتاب التاريخ الإسلامي عموماً احتفاؤهم بالأشخاص بحسب الوعاء الزمني الذي يشغله الشخص، والعمل الذي يقوم به، وموقعه في البناء الهرمي للنظام الإسلامي الإداري، ولا يهتم كتاب التاريخ بالموقف، بلحظة الصدق، وبالتضحية، ولم يدرك هؤلاء المؤرخون أن التاريخ – أي تاريخ – يصنع بالمواقف. والرواد الأوائل هم الذين يوجهون التاريخ، يصنعون التاريخ، وأما الذين يأتون من بعدهم فإنهم يعيشون التاريخ، هذا الخطأ المبدئي من كتاب التاريخ الإسلامي أدى – فيما بعد – إلى طمس الدور الفذ للأوائل في الإسلام، والتعتيم عليهم كمثل عليا كان من الممكن أن تقتدي بها الأجيال التالية، نعم لقد وفوا رسول الله ﷺ بعض حقه في التاريخ الإسلامي، ولكنه النبي والرسول والشخصية الفذة التي لم تتكرر في التاريخ.

والإنسان العادي ينظر لهذه الشخصية العظيمة بكل الإجلال والانبهار لكنه يستبعد أن يصل إلى درجتها في التضحية والثبات فتظل تضحيات وإنجازات النبي ﷺ فروضاً نظرية عند الذين جاءوا من بعده ولم يعاشروه.

ولكن الإنسان يجد ما يطلق عليه إمكان الفعل "والانتقال من الفرض النظري عندما يجد إمكان الفعل" عند إنسان عادي مثله، وهي مسألة هامة جداً ومتشعبة، غير أننا نجملها هنا عند زاوية إهمال المؤرخين الأوائل الأعلام من الصحابة لأنهم ماتوا مبكراً، ولم يعيشوا طويلاً بعد ذلك.

وأكبر دليل على ذلك ما سجله التاريخ الإسلامي لعمار ابن ياسر، وهو الذي أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولم يهتم التاريخ الإسلامي بأبيه وأمه الذين ثبتا ثباتاً أضاف للإسلام جذوراً ما زال يعتمد عليها حتى الآن، ويستقي منها ما يجعله مخضراً يانعاً، لا بأس، ماذا كان يحدث لو رجع كل الأوائل عن دينهم – بفعل العذاب – بعد أن تلقوه من النبي ﷺ ؟! ولو حدث هذا لانقلب الدين – الذي هز الدنيا وغيرها إلى مجموعة من الفروض النظرية البليغة، وانفصل عن الحياة، واستبعد من التطبيق نهائياً، وأصبح يشبه شعر الملاحم التاريخية.

ولا تظن بهذا أعطى هؤلاء أكثر من حقهم، لقد كان بقاء الإسلام فعلاً وكياناً يتعلق بثباتهم عليه، وموتهم - إذا اقتضى الأمر - من أجله، وقد علق رسول الله ﷺ بقاء عبادة الله تعالى واستمرارها في الأرض، على بقاء تلك العصابة التي كانت تحارب في بدر من المسلمين، وقال وهو يدعو ربه: "إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعد ذلك"[١]، وهذا الحديث ذكر في كتب السنة والسيرة بروايات كثيرة إلا أنها لا تخرج عن هذا المعنى، فكما علق رسول الله ﷺ بقاء الإسلام، على بقاء هذه العصابة التي حاربت في بدر، وهو قول واضح لا لبث فيه، كان الإسلام ومستقبل الإسلام متعلق بثبات أولئك الأوائل على دينهم، من غير أن يتضح لهم مستقبل الإسلام نفسه كدين يموتون من أجله، لقد انفعلت ذواتهم بذات النبي ﷺ وفهموا منه معنى الحياة ومعنى الموت، ولكي نحدد موقفهم أكثر، سنرجع معاً إلى آراء العلماء في الذين أكرهوا وقلبهم مطمئن بالإيمان، والذين لم يكرهوا وأعلنوا مدوية "أحد أحد".

يقول الإمام الزمخشرى: (وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه، مكرهاً، فقيل يا رسول الله إن عماراً كفر؟ قال: (كلا إن عمارا ملأ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه)،

---

(١) سيرة ابن هشام. جـ١ غزوة بدر.

فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه وقال مالك؟: (إن عادوا لك فُعد لهم بما قلت، فإن قلت أي الأمرين أفضل؟ قلت بل فعل أبويه. لأن في ترك التقية والصبر على القتل إعزازاً للإسلام).

وقد روى أن مسيلمة أخذ رجلين، فقال لأحدهما ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال فما تقول في؟ قال: أنت أيضاً، فخلاه، وقال الآخر ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في؟ قال: أنا أصم، فأعاد ثلاثاً فأعاد جوابه فقتله، فبلغ رســول الله ﷺ فقال: أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الثاني فقد صدع بــالحق فهنيئاً له) [1] .

لا شك في أن الإمام الزمخشري - رحمه الله تعالى - قــد وضع يده على الفرق الهائل بين من أخذ برخصة الله تعالى، وبين من صدع بالحق، ووقف شامخاً ليثبت فرضية الدين، وصحة هــذه الفرضية، هذا الذى دفع حياته ثمن الصدق، وتصديقه.

ويقول الإمام أبو السعود فى تفسيره لقوله تعالى: "إلا مــن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان" يقول: وهو دليل على جــواز الــتكلم بكلمة الكفر، عند الإكراه الملجئ، وإن كان الأفضل أن يتجنب عنه،

---

(١) الإمام الزمخشري. تفسير الكشاف جـــ٢ ص٤٢٠ ط ، دار المعرفة بيروت.

إعزازاً للدين كما فعله أبواه[١]. أى ياسر[٢] وسمية، وهو يوافق الإمام الزمخشرى فيما ذهب إليه، وكثير من المفسرين يرى: (أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يحكم عليه بحكم الكفر، هذا قول مالك والكوفيين والشافعى)[٣].

هذه هى الرخصة التى أشار إليها الإمام الزمخشرى من خلال حديث رسول الله ﷺ، وهى تجعلنا لا نشك في إيمان أحد الصحابة الكرام، ولا ننزلهم من منازلهم التى وضعهم الإسلام فيها.

ولكن التفريق هنا تفريق فى التصرف والاختيار، فقد كان من الممكن لياسر بن عامر وزوجته سمية بنت خياط وبلال بن رباح، وخباب بن الأرت وأم عميس وغيرهم، أن يستعملوا الرخصة من غير تبعة على إيمانهم، ولكنهم فضلوا عليها الثبات على الحق ثباتاً يظهر الحق ويقويه، ويقطع أما العدو في النصر على هذا الدين.

---

(١) تفسير أبي السعود جـ٥ ص١٤٣ ط، إحياء التراث العربي.

(٢) أبوه هو ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة. الإصابة جـ٤ ص٥٧٥ ط، دار نهضة مصر.

(٣) ابن حجر العسقلاني الإمام القرطبي، الجامع لأحكام القرآن جـ١٠ ص١١٩، ١٢٠ط دار الفكر عمان.

لقد كانت صيحاتهم فى التمسك بالحق وهم يعــذبون، أشــد وقعاً على العدو، من وقع السياط على أجسامهم. (إلا أن التاريخ لم يشهد رجالاً عقدوا عزمهم ونواياهم على غاية تناهت فى العدالــة والسمو، ثم نزروا لها حياتهم على نســق تنــاهى فــى الجســارة والتضحية والبذل، كما شهد فى أولئك الرجــال حــول الرســول ﷺ) [١]، وهم بهذا امتازوا على الذين أكرهوا وقلــوبهم مطمئنــة بالإيمان، لأنهم أعطوا لعدوهم درساً قاسياً يوضح له قدسية العقيدة، ولذة التمسك بها.

(إن العقيدة أمر عظيم، لا هوادة فيها ولا تــرخص، وثمــن الاحتفاظ بها فادح، ولكنها ترجحه في نفــس المــؤمن، وعنــد الله تعالى، وهى أمانة لا يؤتمن عليها إلا من يفديها بحياتــه، وهانــت "عنده" الحياة وهان كل ما فيها من نعيم) [٢] .

ولقد تحمل صحابة رسول الله ﷺ الأمانة وأدوهــا كاملــة، وتفوقوا قبل أن يكتمل المنهج، وهم كطالب علم تحقق له التفوق في علوم لم تدرس له بعد.

---

(١) خالد محمد خالد. رجال حول الرسول ﷺ ص١٠.

(٢) الشيخ سيد قطب في ظل القرآن ص٢١٩٧ ط، دار الشروق ٩٨٧م.

الـهدف:

يتسم السلوك الإنسانى الطبيعى بأنه سلوك هادف، له غايـــة يمتطى الوسائل ليصل إليها.

فأي هدف كان لهؤلاء قبل أن يكتمل الدين الذي آمنوا بـــه، قبل أن تنتصر دولته، أو قبل أن يكون هناك بارقة أمل لذلك، وكلما سدت عليهم السبل، وذهبوا إلـــى رســـول الله ﷺ كـــان يـــأمرهم بالصبر، ولا يعدهم بشئ قريب من مباهج الحياة.

وخباب بن الأرت يتحدث عن ذلك فيقول: "أتيت النبـــي ﷺ وهو متوسد ببردة تحت ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شـــدة فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: "قد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب مـــا يصرفه عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق بـــاثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عز وجل. زاد بنـــان: والذئب على غنمه".[١] . النظرية التي يقوم عليها هذا البحث جاءت واضحة جلية فى هدى النبي الكريم فى هذا الحديث الشريف، وهذه

---

(١) رواه البخاري. جـــ٩ ص٢٦ ط، دار الشعب. والطبراني جـــ٤ ص٦٥ ط العراقـــي. وأبو داود جـــ٢ ص١٠٨ رقم ط، حمص سوريا.

النظرية هى نجاح التجربة الدينية فى نفوس أوائل معتنقيها بمعزل عن العوامل المرغبة مثل النصر والفوز وغيرها من العوامل، وفى وجود عوامل الرهبة، مثل التعذيب والتنكيل والاضطهاد، ونجاح التجربة عند الأوائل، هو الأساس الذي تقوم عليه الدعوة فيما بعد.

ولذلك نبه رسول الله ﷺ ، خباب بن الأرت إلى أنهم لابد أن ينجحوا في التجربة كما نجح الذين من قبلهم وبعد ذلك يأتي النصر ويمضي الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله تعالى، والذئب على غنمه، ومعنى ذلك أن التجربة قامت ونجحت في أفئدة هؤلاء الأوائل بمعزل عن العوامل الخارجية التي تحمل الرغبة، وتحت ضغط الذل والقتل والتنكيل وقامت التجربة على عواملها الأولى ذاتية فاعلة وذاتية منفعلة.

العوامل الخارجية الموجبة:

من العوامل الخارجية الموجبة التي تؤثر على دخيلة نفس المؤمن العبادات وهي تلك الفروض التي تكرر في حياة المؤمن أحياناً كل عام، مثل الحج والزكاة والصوم، ومنها ما يكرر كل يوم مثل الصلاة، هذه العبادات تدعم الإيمان في قلب المؤمن، وهي ضرورية لاستمرار هذا الإيمان، ومن يتركها جاحداً يحكم بكفره

ولا خلاف بين المسلمين على ذلك، ورسول الله ﷺ جعلها دعائم يقوم عليها بناء الإسلام، ومن غيرها لا بناء، ولا إسلام.

فعن ابن عمر – رضي الله تعالى عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: "بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان"[١]. هذه الأركان لا غنى عنها لثبوت الإسلام الصحيح، والإيمان القوي، ومع ذلك فقد وصل الأوائل لأعلى درجات الإيمان من غير أن تفرض عليهم هذه الأركان – وهذا معنى نجاح التجربة الإيمانية عندهم بمعزل عن العوامل الخارجية – وهذا ما يوضح قوة ذاتية الداعية الفاعلة التى أثرت في ذاتيتهم المنفعلة، **وإليك حديثاً موجزاً عن الفروض وتاريخ فرضيتها.**

الصلاة: فرضت قبل الهجرة بسنة على الأرجح[٢].

الصيام: فرض في شعبان في السنة الثانية من الهجرة[٣].

الزكاة: فرضت في السنة الثانية من الهجرة[٤].

---

(١) صحيح البخاري جـ١ ص٥، دار الجبل ببيروت.

(٢) نهاية المحتاج إلى شرح المناهج جـ١ ط، مصطفى الحلبي سنة ١٩٦٧.

(٣) المرجع السابق جـ٢ ص١٤٨.

(٤) عبيد الله الكوهجى زاد المحتاج بشرح المناهج جـ١ ص٤٢٥ ط، المكتبة العصرية بيروت.

الحج: اختلف في وقت فرضيته والمشهور أنه بعد الهجرة وجزم به الرافعي، وقيل في السنة السادسة[١] .

من النظرة الأولى على تاريخ هذه الفروض يتبين لنا أنها جميعاً لم تكن موجودة وقت ثبات ياسر وسمية وبلال وخباب ومصعب وغيرهم على إيمانهم، فكيف تم الإيمان من غير مكملاته ومتمماته؟ بل كيف وصلت التجربة الإيمانية إلى أقصاها، من غير عوامل التفاعل الخارجية؟ هذه أسئلة يحار العقل في الإجابة عليها، إذا لم يتنبه إلى دور الذاتية الفاعلة للداعية الأول: المصطفى ﷺ كان لا يستطيع أن يدفع عنهم أذى، ولا يجلب لهم نفعاً، ومع ذلك استمدت نفوسهم الصدق من صدقه.

وهذا الحديث يبين لك الظروف الاجتماعية والنفسية التي يعيشها هؤلاء الأعلام مع رسول الله ﷺ في مكة المكرمة، عن أم سلمة – رضى الله تعالى عنها – أنها قالت: (لما ضاقت مكة وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من الفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ ، لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه، ومن عمه لا يصل إليه شئ مما يكره، ومما ينال أصحابه.

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص٢٥٢.

فقال لهم رسول الله ﷺ ، (إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فيها فرجاً ومخرجاً) مما أنتم فيه "فخرجنا إليها إرسالاً، حتى اجتمعنا بها"[١] .

إذًا لا فروض تؤدى يثبت بها الإيمان، ولا حماية قوية يركن إليها الإنسان، فماذا بقى إلا الذاتية الفاعلة الطاهرة على الدوام. وملامح هذه الذاتية الطاهرة نقلها المهاجرون إلى ملك الحبشة، فقد سألهم عن دينهم الذى من أجله تركوا الديار، وعُذبوا، وعن الإنسان الذي اتبعوه، وعن صفاته فقالوا: (نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وعن ما جاء به النبي ﷺ أمرنا بالبر والصدقة والوفاء وأداء الأمانة، ونهانا أن نعبد الأوثان وأمرنا بعبادة الله وحده لا شريك له ...) [٢] . تلاحظ في هذا النص عدم ذكر الصلاة والزكاة والصيام، وأنا ما ذكر هنا يتعلق بالصفات الذاتية، فماذا كان تطبيق الأوائل لهذه الصفات.

خذ مثلاً أداء الأمانة: كلفت امرأة من بني عبد الدار الصحابية الجلية النهدية وابنتها بطحن قدر من الحبوب، بعد إسلام

---

(١) فتح الباري جـ٧ ص١٨٨ ط، دار المعرفة ببيروت.

(٢) الإمام ابن كثير البداية والنهاية جـ٢، بشئ من التفصيل في فقه السيرة للدكتور/ محمد سعيد البوطي ص٩٩.

النهدية وابنتها، وكانت تقول لهما والله لا أعتقكما أبداً وتدخل سيدنا أبو بكر واشترى المرأة وابنتها، وأمرهما بالخروج من الدار، ولم يكن الطحين قد اكتمل، فاستاذنتاه أن تنهيا عملهما أولاً ثم تنصرفا، فوافقهما على ذلك.

إذن التجربة الإيمانية نجحت وانتقلت الذاتية العظيمة، من الذات الفاعلة إلى الذات القابلة، أو المنفعلة، وقد تم ذلك بمعزل عن معظم العوامل الخارجية الإيجابية وفي وجود العوامل الخارجية السلبية الضاغطة.

بهذا نخرج بنتيجة هامة، وهي تحضير وتطهير ذات الداعية أولاً، قبل الإمام بمواد الدعوة وإتقانها، وهو موضوع القسم الثالث من هذا البحث.

الفصل الثاني
إعداد الذاتية الفاعلة

القسم الأول: تكوين الذاتية الداعية:

تتكون ذاتية الداعية الصادق المؤثر من عناصر كثيرة تجتمع وتأتلف ليخرج من مجموعها ذات طاهرة صادقة، وقد رأينا في الصفحات السابقة كيف أثرت الذاتية الصادقة الفاعلة، في ذوات المدعوين، وذلك قبل أن يكتمل نزول القرآن، وتوضع للإسلام الأركان، ومن أبرز صفات الداعية الصادق ما يلى:

أ- تحضير ذات الداعية:

صفة التحضير: وهى تلك الصفة التى تجعل الداعية لا يفاجأ بالرسالة، ولا بواجب الدعوة إلى الله تعالى، ولكنه يكون في حالة يترقب فيها فجراً لا يعرف شمسه، ولكنه ينتظر ضوءاً أتيا لا ريب فيه.

ومرحلة التحضير هذه تصقل نفس الداعية، لأنها تشعره أن له دوراً، وأنه لابد أن يؤديه، ثم إنها بعد ذلك تضيف للنفس البشرية أبعاد كثيرة، منها البعد عن زيف الحياة، والوقوف على حقيقتها،

ومنها الاتساع الأفقى لمدارك النفس البشرية. فالنفس فـى مرحلـة التحضير تتخلص من جاذبية المكان، ومؤثرات البيئـة المحليـة، وتستشرف آفاق الكون الواسع حتى تقف عنـد الحقيقـة المبدئيـة الأولى، وهي كون واحد خلقه إله واحد، ويجب أن يخضـع لإلـه واحد، ومن هنا يبدأ الإحساس الصادق بواجـب الـدعوة إلـى الله تعالى. ويبدأ النجاح في هذه الدعوة ويصبح حقيقة لا ريب فيها.

أما أولئك الذاهلين عن هدفهم، والمغروسين فـي واقعهـم، ومنهم أولئك الدعاة الذين يدفع بهم إلى حقل الدعوة من غير رغبة منهم فيها فهؤلاء يتحولون مع الوقت إلى دعـوة علـى الإسـلام، دعوة له، ومن هنا جاءت أهمية مرحلة التحضير في تكون ذاتيـة داعية طاهرة، ومؤثرة، ويمكن أن يلق علـى هـذه المرحلـة - الهواية - وهي أن يهوى الداعية دعوته قبل أن يقوم بها، وبـذلك يعمل بإخلاص - غير معلل - يكون دافعاً ونافعاً لدعوته.

أما ما نجده من إقبال بعض الدعاة على العمل فـي حقـل الدعوة، مكدرين النفس وأفئدتهم هواء، فهؤلاء لا يرجى منهم خيراً، وإن هم أقبلوا عليه. وحاولوا فعله، وقصارى ما يصل إليه هـؤلاء يعتبر درباً من دروب التزكية الذاتية التي لا تنتقل إلى غيرهم، لأن الدعوة العامة إلى طاعة الله تعالى، لم تكن شاغلهم في يـوم مـن الأيام.

وإذا كانت شخصية النبى ﷺ هى الأسوة والقدوة بالنسبة لكل الدعاة على مر الأزمان، فإن دراسة هذه الصفات في تلك الشخصية ستكون دراسة حرية بالصدق، ومنطبقة على الواقع الفطري للنفس البشرية، وذلك يؤخذ من طريقين الأول أنه ﷺ هو الذاتية المؤثرة بمعزل عن العوامل التي استخدمت أساساً للدعوة بعد ذلك، والثاني أنه أكمل الشخصيات السوية فى كل العصور.

وعن مرحلة التحضير في حياة النبي ﷺ يقول ابن هشام: (قال إسحاق: عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثي: كان رسول الله ﷺ يجاور فى حراء من كل سنة شهراً وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية والتحنث: التبرر) [١].

هذا النص يؤكد على مرحلة التحضير عند المصطفى ﷺ كان يؤكد على أن الخلوة والتأمل هي من الأشياء التي يرغب فيها ويصبر عليها، وعن نهاية مرحلة التحضير – حين أكملت النفس الطاهرة استعدادها – تقول السيدة عائشة – رضى الله تعالى عنها: "أول ما بدئ رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص٢٤٢ ط المكتبة التوفيقية .. والتبرر تفعل من البر، وتفعل يقتضى الدخول فى الفعل مثل تعبد وتنسك. الروض الأنف جـ١ ص٢٦٧.

فكان يأتى غار حراء يتحنث فيه (وهو التعبد) الليالى ذوات العـدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فاجأه الحق وهو غائر"[١].

وهذا النص يفيد ما يلي:

١- أنه يثبت أن التحنث في غار حراء كان مرحلة من مراحل التحضير بعد الرؤيا الصادقة، ولم يكن تحنيثاً على طريقـة قريش كما تفيد رواية ابن هشام عن ابن إسحاق عن عبيـد بن عمير عن قتادة لأن رواية ابن هشام لا تطمئن الـنفس إليها.

٢- أن حديث السيدة عائشة رواه الإمام البخاري في صـحيحه مع اختلاف طفيف[٢] في بعض الألفاظ ولذلك فهي روايـة معتمدة.

٣- أنها تجعل من التحنث في الغار حالاً له ﷺ فتقـول حتـى فاجأه الحق وهو غائر. وهذا يدل على انصراف النبي ﷺ عن متع الحياة ولهوها لينتظر شيئاً تهفـو نفسـه إليـه، لا

---

(١) ابن الجوزى. الوفا بأحوال المصطفى جـ١ ص١٦٢ ط، دار الكتب الحديثة ١٩٦٦.

(٢) مثل: فكان يأتي غار حراء فيتحنث فيه: وكان يخلو بغار حراء فيتحنـث فيـه وهـو اختلاف لا يؤثر على صدق الرواية.

يعرف ما هو على وجه التحديد، ولكنه يعرف أن تلقي هذا الشئ يحتاج إلى تحضير وتطهير[1] لأنــه أمــل صــادق تحتاجه حياة – تعيسة في مكة – لا أمل لهــا، ولا صــدق فيها.

٤- أن السيدة عائشة – رضي الله تعالى عنها – تقــول: (ثــم حبب إليه الخلاء)، وهذه الجملة وحدها، تظهر الحالة التي كان عليها النبى ﷺ ، من ترك للتفاصيل الكثيرة، والأمور الصغيرة التى كانت تتفاعل بها الحياة الضيقة فى المجتمــع المكي القبلى الوثنى.

لقد سما رسول الله ﷺ – فى مرحلة التحضير – بأخلاقــه حتى أصبح حكماً يرجى رأيه فى أشد القضايا حساسية فى المجتمع المكي، وهذه الحالة ليست من السهولة فى مجتمع يقدس الرجولــة، ويعشق الحكمة، وتوزن فيه أحلام الرجال بدقة تعبيرهم، واعتــدال

---

(١) هذه الطهارة القبيلة تخرج موقف كثير من الدعاة، توضح سبب فشلهم فــي دعــوتهم فليس من المستساغ – علمياً – أن يظل الإنسان سادراً في هواه ردحاً من الزمن، ثــم ينقلب فجأة إلى داعية، لأنه حصل على شهادة تفيد ذلك إن موقف هذا الداعية يحتــاج إلى مراجعة لا غنى عنها، ولعله يبدأ من جديد بداية يحدوها الندم، وتظللها التقــوى، ومن غير هذه البداية الجديدة لا أمل في نجاح دعوة هذا الداعية وإن حصل كل العلوم وبرع في كل الفنون.

تصرفاتهم، ومع ذلك وصل النبي ﷺ إلى الـــذروة فـــي الفضـــل والكمال. وهو ما زال بعد في المرحلة التحضيرية، ولعل هذا كان إرهاصاً بتحمله بعد ذلك للرسالة الكبرى.

حَكَم وقضية

الحكم هو النبي ﷺ، والقضية هي وضع الحجر الأسود في جدار الكعبة الشريفة، ومَنْ مِنْ القبائل يكون له شرف هذا الوضع، فبماذا قضى النبي ﷺ: (قال ابن إسحاق: فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، وكانوا يهمون بذلك يسقفونها ويهابو هدمها، وإنما كانت رضما حجارة بعضها على بعض من غير ملاط فأرادوا رفعها، وتسقيفها .. قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتحالفوا، وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً. ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا: لعقة الدم، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد، وتشاورا وتناصفوا.

فزعم بعض أهل الرواية: أن أبا أمي بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، وكان عامئذ أسن قريش كلها، قال: يا معشر قــريش، اجعلوا بينكم – فيما تختلفون فيه – أول من يدخل من بــاب هــذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا. فكان أول داخل علــيهم رســول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه بالخبر قال رسول الله ﷺ: (هلمّ إليّ ثوباً، فأُتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده. ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحيــة مــن الثوب، ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه) كانت قريش تسمي رسول الله ﷺ الأمين [١]

هذا النص الذي نقله ابن هشام عن ابن إسحاق يفيــد فــي مجمله أن النبي ﷺ، قد بلغ مكانة شريفة في نفوس القرشيين قبــل البعثة، أنهم ارتضوه حكماً لإنهاء الصراع بينهم، والذي أوشك على القتال بينهم، وهذا ما يؤكد أن النبي ﷺ قد بلغ مكانة عظيمة فــي مرحلة التحضير، وأصبح نافذ الرأي بين أهله، إلا أن رواية النص بهذه الطريقة لا تخلو من ملاحظات.

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ١ ص٢٠٣، ٢٠٤.

الملاحظة الأولى:

يقول الرواة: إن أمية بن المغيرة أشار على القوم بتحكيم أول داخل عليهم من الباب "وهذا الكلام لا يسلم من النقد، فمن ذا الذي يصدق أن كبار الرجال في قريش – وبعد أن وصل الأمر بينهم إلى الاقتتال – يلغون عقولهم الحصيفة ويخضعون للصدفة العمياء ويحكمون أول داخل، وهذا النص ليس فيه إساءة فقط إلى الرجال من قريش، بل فيه إساءة بالغة إلى دور النبي ﷺ في إنهاء هذه الفتنة، لأنه يجعل دوره قائماً على المصادفة والمفاجأة، وليس قائماً على حكمة حصل عليها عبر جهود شاقة، إن رواية ابن إسحاق غير مقنعة وهو نفسه يظهر شكه في هذه الرواية بهذا الشكل حين يقول "زعم بعض أهل الرواية" وهذه الرواية تسوي بين النبي ﷺ، بحكمته البالغة النضج، وبين أي رجل من السابلة في مكة.

الملاحظة الثانية:

إن بعض كتاب السيرة – يصفون الجانب الظاهر فقط من كل قضية يتناولونها، من غير تمحيص، وإن كان لهم فضل في

التاريخ الإسلامي فهو فضل النقل فقط، ولعل القصة التى بين أيدينا هى من أكبر الأدلة على هذا الاتجاه – عند كتاب السيرة.

والذي ترتاح إليه النفس أن مشاورات كثيرة ولقاءات طويلة قد حدثت فى مكة فى فترة الأربع أو الخمس ليال التي استمر فيها النزاع، وهى فترة كافية للوصول إلى حل لهذا النزاع، فى مجتمع محدود مثل مكة المكرمة، ولعل النبي ﷺ شارك فى هذه المفاوضات بين أهل مكة والمقطوع به أنهم اتفقوا على تحكيمه فى هذا الصراع، وأن ينزلوا على حكمه، وقد سجل الرواة لحظة التنفيذ فقط ولما حاول الر ة فهم السر من وراء انتهاء هذه الأزمة الدموية بهذه البساطة والسهولة، ارتاحت نفوسهم إلى قصة "أول داخل" وهذه الطريقة في سرد السيرة النبوية هي من الغيوم التي تتعقد في سماء السيرة النبوية الشريفة، فتحجب الرؤيا، وتغيب الحقيقة.

الملاحظة الثالثة:

أنهم لما رأوه قالوا هذا الأمين. محمد رضينا، وهذا يثبت الخلفية الطاهرة للذات الطاهرة للنبي ﷺ، وهذا واضح من هذا النداء المفعم بالاحترام، "هذا الأمين ... رضينا".

ويبقى سؤال: ماذا لو دخل غير الأمين هل كان سيتفق القوم، أم كانوا سينتظرون الأمين حتى يأتي وما الذي لا يجعلهم يتفقون عليه قبل التنفيذ بيوم أو يومين؟ طالما أنه الأمين المعروف بالأمانة "آل أمين" هل كان في مكة أمين غيره يختصم إليه القوم؟ لم يكن غيره فهو الأمين، وهو الحكيم، وهو الطاهر، وكل ذلك في مرحلة التحضير للرسالة.

حلف الفضول

يقول النبى ﷺ عن حلف الفضول[١] : (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى إليه في الإسلام لأجبت) [٢].

ويقول الدكتور رءوف شلبى عن اشتراك النبي ﷺ في حلف الفضول (ولم يكن سيدنا محمد ﷺ، واحداً من الناس يوم أن استجاب إلى هذا الحلف الذى وظف نفسه لإقامة العدل من أجل العدل ذاته، ولكنه كان عملاً واستجابة من رجل له صفة خاصة في تقبل دعوات الكمال والخير والعدل، إنها استجابة وعمل متفق مع الحاسية والوجدان الاجتماعي الذى فل به الصدر المحمدي الكريم، فكان هذا الاشتراك في حلف الفضول تهيئة اجتماعية لدرء المظالم، ورد الحقوق وإقامة العدل الاجتماعي، دون مقابل أو أجر) [٣]، وعن تسميته بالأمين يقول: (لم يكن وصفاً عابراً، ولا كلمة مجاملة، ولكنه كان خلقاً عند القوم أخذوا به. وارتضونه حكماً، وقاضياً يوم

---

(١) اتفاق جماعة من قريش على الدفاع عن الحق ورد المظالم وشهده النبي ﷺ.

(٢) سيرة ابن هشام. جـ١ ص١٤٠، روى الحديث ابن إسحاق عن عبد الله بن عوف الزهري.

(٣) د/ رءوف شلبي المجتمع العربي قبل الإسلام ص٣٠٨ ط، دار الكتب الحديثة.

أن أعلنت ألسنة الحرب والدمار والخراب) [١]. هذه الكلمات الطيبة تعبر بصدق عن مرحلة التحضير التي سبقت مرحلة التطهير مرحلة التحمل والأداء، والاشتراك في حلف العدل والخير - حلف الفضول - والقضاء بين سكان مكة، ونزع فتيل الحرب من بينهم ليست كل مواقف الحبيب المصطفى ﷺ، في المرحلة التحضيرية، لكنهما نموذج لما كان عليه الحال بالنسبة لهذه الذاتية الفاعلة.

ب- تطهير ذات الداعية:

وصفة التطهير بالنسبة للنبى ﷺ تختلف عنها بالنسبة للدعاة جميعاً في كل زمان ومكان، لأن ذات النبي ﷺ ذات طاهرة، وما التطهير بالنسبة للنبي ﷺ إلا ترسيخ لصفة الكمال عنده، ورفع لدرجته على العالمين، أما التطهير بالنسبة لباقي الدعاة فهو محاولة مستمرة - بالعبادة والطاعة - لتنحية ما عسى أن يكون قد لحق بذاتية الداعية من صفات تناقض دعوته، أو تعطل سيره، أو تحجبه عن الرؤيا الصحيحة لأوامر الإسلام ونواهيه، وماضي الإسلام وحاضره ومستقبله.

ولكى تكون المعالجة لتطهير ذاتية الداعية معالجة علمية، يجب أن نبدأ بذات الداعية الأول: المصطفى ﷺ. ومع التنبيه دائماً

---

(١) المرجع السابق ص٣١١.

على أن التطهير فى حقه رفعة وفى حق غيره من الدعاة دفعة إلى الأمام، وهذه المرحلة التي نتحدث عنها بدأت مع بداية الوحى، وكان التركيز فيها واضحاً على تكليف النبى ﷺ ببعض العبادات التي ترفع شأنه كداعية وتجعله أهلاً للتلقي، وكفئاً للتحمل.

بعد أن استمع الرسول ﷺ إلى الوحى الأول من الأمين جبريل عليه السلام، تعرف على ربه سبحانه وتعالى من قوله تعالى: **(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ · خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ · اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ · الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ · عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)** [1]. بعد أن استمع النبي ﷺ إلى هذا النداء في غار حراء، الذي كان يخلو فيه في الأيام ذات العدد، خرج منزعجاً وعاد إلى بيته[2]، وإلى زوجه خديجة – رضي الله تعالى عنها – ونام متزملاً، ناداه الأمين جبريل ليوقظه ويبلغه رسالة الحق سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً · نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً · أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً . إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً . وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً · رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) [3].

---

(١) سورة العلق ١: ٥.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، جـ١ ص٢٤٢ وما بعد.

(٣) المزمل ١: ٩.

هذه الآيات ترسم الطريق الذي يجب على الداعية أن يسلكه لتزكية نفسه، قبل أن يبدأ في تزكية نفوس الآخرين، وسوف أنقل هنا رأي بعض المفسرين موجزاً للوقوف على معنى الآيات المباركة، **وأبدأ برأي العلامة ابن كثير:**

(يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً): يأمر الله تعالى رسول الله ﷺ، أن يترك التزمل، أي التغطي بالليل، وينهض إلى القيام إلى ربه سبحانه وتعالى.

(نصفه أو انقص منه قليلاً): أي أمرك ربك أن تقوم نصف الليل، بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليك.

(ورتل القرآن ترتيلاً): أى اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره.

(إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً): قال الحسن وقتادة أى العمل به، وقيل ثقيل وقت نزوله من عظمته.

(إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً): يقال نشأ إذا قام من الليل، وهى أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها.

(إن لك في النهار سبحاً طويلاً. واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً): أى، أكثر من ذكره، وانقطع إليه، وتفرغ لعبادته إذا فرغت

من أشغالك. ما تحتاج إليه من أمور دنياك[1] في هذه السطور للعلامة ابن كثير ملامح عامة: عن إعداد النبي ﷺ، من قبل ربه سبحانه وتعالى، ومن قبل نفسه لتحمل الرسالة، وتحمل القول الثقيل، وبرغم كثرة الآراء التي نقلها ابن كثير عن ثقل جسم النبي ﷺ وهو يتلقى الوحي، إلا أن النفس تميل إلى رأي الحسن وقتادة: أن ثقل القول يكون في العمل به، أي المسئولية التي سيتحملها، ومن هذه الآيات وتفسير ابن كثير لها، تبرز صورة الإعداد والتطهير لذاتية الداعية، لكي يتثنى لها التأثير في ذوات المدعوين فيما بعد.

ويقول الشيخ سيد قطب في تفسيره لهذه الآيات السابقة: (إنها دعوة السماء وصوت الكبير المتعال: قم. قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك. قم للجهد والنصب والجد والتعب، قم فقد مضى وقت النوم والراحة. قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد .. إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة/ قيام الليل: أكثره: أكثر من نصف الليل ودون ثلثية، وأقله: ثلث الليل ... وكان هذا الإعداد للقول الثقيل الذي سينزله الله تعالى عليه .. وهذا هو القرآن وما وراءه من التكاليف والقرآن في

---

(١) نقل بإيجاز عن تفسير ابن كثير، جـ٤ ص٤٣٥ : ٤٣٧.

مبناه ليس ثقيلاً فهو ميسر للذكر، ولكنه ثقيل فى ميزان الحق. ثقيل فى أثره فى القلب .. وإن تلقى هذا الفيض من النـــور والمعرفـــة واستيعابه، لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل .. وإن الاتصال بـــالملأ الأعلى وروح الوجود، وأرواح الخلائق الحية والجامدة، على النحو الذي تهيأ لرسول الله ﷺ، يحتاج إلـــى اســـتعداد طويـــل .. وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب، ولا تلفـــت هنـــا أو هناك، وراء الهواتف والجوانب والمعوقات ثقيـــل، يحتـــاج إلـــى استعداد طويل) [١].

نكتفي بهذا القدر من تفسير الشيخ سيد قطب لهذه الآيـــات، وهو يوضح دلالة الآيات الكريمة على وجوب اســـتعداد الداعيـــة بالعبادات والتطهير والتركيز، لكي يستطيع القيام بعبء الدعوة بعد ذلك ولذلك فهو يقول بعد هذه السطور: (إن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن عيش الحياة اليومية وسفاســـفها، والاتصـــال بـــالله تعالى، وتلقي فيضه ونوره .. إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القـــول الثقيل والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول وينتظـــر من يدعو بهذه الدعوة فى كل جيل) [٢]. يوضح المؤلف فـــى هـــذه

---

(١) الشيخ سيد قطب في ظل القرآن، جـــ٦ ص٣٧٤٤، ٣٧٤٥ ط، دار الشروق.

(٢) في ظلال القرآن جـــ٦ ص٣٧٤٥.

السطور أن واجب الاستعداد للدعوة يلزم كل الدعاة الذين يتصدرون لهذه الدعوة، وليس خاصاً بالنبي ﷺ.

آيات سورة المدثر:

قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ. وَلِرَبِّكَ فَاصْبِر**). هذه الآيات المباركة مثل آيات سورة المزمل تحض النبي ﷺ، على القيام بالدعوة لله تعالى، والقيام بواجب الدعوة، وهو تزكية الذات لكي تكون ذاتا فاعلة، يمكنها التأثير في غيرها من ذوات المدعوين، وقبل أن نخلص إلى نتائج هذه الآيات تستطيع رأي بعض علماء التفسير لكي تكتمل الصورة من عدة زوايا للرؤيا.

رأى الإمام ابن كثير:

فى بداية تفسيره لهذه السورة يحاول الإمام أن يجمع بين الرواية التى تقول: إن سورة المدثر هي أول ما نزل من القرآن، والرأي الآخر الذي يقول: إن سورة العلق هي أول ما نزل من القرآن فيقول (ووجه الجمع أن أول شئ نزل بعد فترة الوحي هذه السورة. كما قال الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (ثم فتر الوحي عنه فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى قبل السماء، فإذا الملك الذى

جاءني قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه فرقاً، حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلى فقلت لهم زملوني، فزملوني.

فأنزل الله تعالى: "**يا أيها المدثر قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر**". ثم حمى الوحي وتتابع – أخرجاه من حديث الزهري.

وقوله تعالى : **(قم فأنذر)** أي شمر عن ساق العزم وأنذر الناس. **(وربك فكبر)** أي عظم. **(وثيابك فطهر)** عن ابن عباس: لا تلبسها على المعصية، ولا على غدرة، وعن ابن عباس أيضاً فطهرها من الذنوب، وعنه أيضاً: طهر من الإثم، وقال مجتهد: نفسك ليس ثيابك، قال أيضاً أي عملك فأصلح، وقال قتادة: أي طهرها من المعاصي، وقال محمد بن سيرين أي اغسلها بالماء، وقال سعيد بن جبير: وقلبك ونيتك فطهر، وقال محمد بن كعب القرظي والحسن البصري: وخلقك فحسن.

(والرجز فاهجر) عن ابن عباس: الرجز وهو الأصنام فاهجر. وقال إبراهيم والضحاك أي ترك المعصية وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشئ من ذلك.

(ولا تمنن تستكثر) قال ابن عباس: ولا تعط العطية تلتمس أكثر منها. وقال الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره. وعن مجاهد لا تضعف أي تستكثر من الخير.

(ولربك فاصبر) أي اجعل صبرك على أذاهم لوجـه ربـك عز وجل، وقال إبراهيم الحنفي: اصبر عطيتك لله عز وجل[١].

يركز الإمام ابن كثير في الآراء التي جمعها عن العلمـاء، والآراء التي قالها هو، على أن تطهير ذاتية الداعية هو المقصـود بهذه الآيات، وقد نقل عن غير واحد من السلف الصالح، أن معنى وثيابك فطهر "تطهير الذات" وليس الثياب. وفي "**ولا تمنن تستكثر**" أميل إلى رأي الإمام الحسن البصري، وإن كان قد أتى به متأخراً.

رأي الشيخ / سيد قطب:

يرى الشيخ سيد قطب أن هذه تتعلق بذاتية الداعية ويتحدث عن وقت ومناسبة نزول هذه الآيات فيقول: (إن النظر فى الـنص القرآني ذاته يوحي بأن مطلع هذه السورة إلى قوله تعالى: **(ولربك فاصبر)** ربما يكون قد نزل مبكراً في أول أيام الدعوة، شـأنه فـي ذلك شأن مطلع سورة المزمل. إلى قوله تعالى: **(فاتخـذه وكـيلاً)** وهذا، وذلك لإعداد نفس الرسول ﷺ للنهوض بالتبعـة الكبـرى، ومواجهة كافة قريش بعد ذلك بالدعوة جهاراً، مما سيترتب عليـه مشاكل كثيرة ومتنوعة، تحتاج مواجهتها إلى إعداد نفسي سـابق .. وأيا ما كان السبب والمناسبة، فقد تضمنت هذه السورة فى مطلعها

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ص٤٤٠، ٤٤١.

ذلك النداء العلوى بانتداب النبي ﷺ لهذا الأمر الجلل. وانتزاعه من النوم والتدثر، والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة **(يا أيها المدثر قم فأنذر)** مع توجيهه ﷺ إلى التهيؤ لهذا الأمر العظيم، والاستعانة عليه بهذا الذي وجهه الله تعالى إليه.

"**يا أيها المدثر قم فأنذر**" والإنذار هو أظهر ما في الرسالة، فهو تنبيه للخطر القريب، الذي يترصد للغافلين السادرين في الظلام وهم لا يشعرون. وفيه تتجلى رحمة الله تعالى بالعباد، وهم لا ينقصون في ملكه شيئاً حين يضلون، ولا يزيدون في ملكه شيئاً حين يهتدون. غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية، ليخلصوا من العذاب الأليم في الآخرة، ومن الشر الموبق في الدنيا .. ثم يوجه رسوله فى خاصة نفسه بعد أن يكلفه نذارة غيره، يوجهه إلى تكبير ربه **(وربك فكبر)** ربك وحده فهو وحده الكبير يقرر جانباً من التصور الإيماني لمعنى الألوهية، ومعنى التوحيد .. إن كل أحد وكل شئ، وكل قيمة، صغير ... والله وحده هو الكبير وتتوارى الأجرام والأحجام والقوى والقيم والأحداث والأحوال، والمعاني والأشكال، وتتمحى فى ظلال الجلال والكمال، لله الواحد الكبير المتعال، وهو توجيه للرسول ﷺ ليواجه نذارة البشرية، ومتاعبها وأهوالها وأثقالها، بهذا القصور وبهذا الشعور، فسيتصغر

كل قوة، وكل عقبة، وهو يستشعر أن ربه الذي دعاه ليقوم بهذه النذارة، وهو وحده الكبير، ومشاق الدعوة وأهوالها فى حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور وهذا الشعور.

ويوجهه إلى التطهر، **(وثيابك فطهر)** وطهارة الثياب كناية في الاستعمال العربي عن طهارة القلب والخلق والعمل، طهارة الذات التي تحتويها الثياب، وكل ما يلم بها أو يمسها.

والطهارة هى الحالة المناسبة للتلقى من الملأ الأعلى، كما أنها ألصق شئ بطبيعة هذه الرسالة. وهى بعد هذا وذاك ضرورية لملابسة الإنذار والتبليغ ومواصلة الدعوة في وسط التيارات والأهواء، والمداخل والدروب، وما يصاحب هذا ويلابسه من أدران ومقاذر وأخلاط وشوائب، تحتاج من الداعية إلى الطهارة الكاملة كي يملك استنقاذ الملوثين دون أن يتلوث، وملابسة المدنسين من غير أن يتدنس، وهي لفتة دقيقة عميقة إلى ملابسات الرسالة والدعوة والقيام على هذا الأمر بين شتى الأوساط، وشتى البيئات، وشتى الظروف، وشتى القلوب .. ويوجهه إلى هجران الشرك وموجبات العذاب، **(والرجز فاهجر)** والرسول ﷺ كان هاجراً للشرك ولموجبات العذاب حتى قبل النبوة. فقد عفت فطرته السليمة ذلك الانحراف – ولكنه يعني تحرز بالتطهر من مس هذا الدنس.

ويوجهه إلى إنكار ذاته، وعدم المن بما يقدمه من الجهد، أو استكثاره واستعظامة **(ولا تمنن تستكثر)** وهو سيقدم الكثير، وسيبذل الكثير، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء، ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره، ويمن به، وهذه الدعوة لا تستقيم في نفس تحس بما تبذل فيها، فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه.

ويوجهه أخيراً إلى الصبر، والصبر لربه **(ولربك فاصبر)**، والصبر هو هذا الزاد الأصيل في هذه المعركة الشاقة، معركة الدعوة إلى الله تعالى، المعركة المزدوجة مع شهوات النفوس، وأهواء القلوب[1]. نقلت هذا النص بطوله للمرحوم العلامة الشيخ سيد قطب لأنه استوعب كثيراً من جوانب عملية التطهير الذاتية والتي تشير إليها هذه الآيات المباركات.

تعقيب أول

بعد أن قدمنا – في خلال هذا البحث – للذاتية الفاعلة، والذاتية المنفعلة، وجدنا أن ميدان الدعوة الإسلامية ما زال خصباً، وغنياً بالعبر والدروس التي تساعد الباحثين في هذا المجال، وتضئ لهم الطريق، إلا أنه يجب التنبيه إلى:

---

(١) في ظلال القرآن جـ٦ ص٣٧٥٢ : ٣٧٥٥.

أن التاريخ الإسلامى خاصة السيرة النبوية الشريفة لم يكتب طريقة تتيح للباحث الاستفادة من تلك الدروس العظيمة التي تكمن في أحشاء هذا التاريخ، وأكبر الأدلة على ذلك، ما كتب عن سيرة الرواد الأوائل الذين ضحوا بحياتهم ليحافظوا على عقيدة التوحيد خالصة لا ريب فيها، وضربوا أروع الأمثلة في التمسك بعقيدتهم، والتضحية فى سبيلها، ولكن التاريخ – أو كتاب التاريخ لم يقفوا عند تاريخ هؤلاء ليمحصوا، ويفسروا ويعطوا الحدث حقه من البحث والدرس، بل نقلوا إلينا أخبارهم سريعة موجزة، مع اشتهار هؤلاء الكتاب بالإطناب والسرد في أمور غير ذي قيمة، مثل نقل كثير من شعر الهجاء بين الفرق المتخاصمة.

ويؤخذ أيضاً على التاريخ الإسلامي إهماله لحقيقة الحدث، ومغزاه، واهتمام بعض كتابه بالتفاصيل الكثيرة، من أمثلة ذلك: قصة تحكيم النبي ﷺ بين أهل مكة في وضع الحجر الأسود في مكانه، وكيف أن معظم مصادر التاريخ الإسلامي، أو السيرة النبوية الشريفة تؤكد أن ذلك قد تم بالصدفة البحتة، من غير مقدمات تقوم على أسس متينة.

تعقيب ثان

أنه ثبت أن الذين دخلوا فى الإسلام فى بداية الدعوة كانت نصوص الإسلام التي نقلت إليهم قليلة فى عددها، صعبة فى الحصول عليها، بل التوفر على دراستها.

وثبت أيضاً أنهم أسلموا قبل أن تفرض أركان الإسلام المعروفة ما خلا ركن الشهادتين.

وإذا كان الإسلام الكامل لا يقبل الآن إلا بتنفيذ هذه الأركان، إلا أن إيمان الأوائل كان قوياً فتياً صلباً لا لين فيه، وهذا يفتح الباب لكثير من الدراسات عن طبيعة إيمان هؤلاء، وعن عناصر إيمانهم، وهذا يفيد في التركيز على الناحية الروحية عند الداعية والمدعوين على السواء، مع عدم إهمال أركان الإسلام الظاهرة، التي جعل رسول الله ﷺ بناءه يقوم عليها. وإذا كان هذا البحث قد ركز على ذاتية الداعية للبحث عن سر إيمان وإخلاص الأوائل إلا أن البحث لا يصل إلى غايته الكاملة إلا ببحث ذاتية المدعوين في هذه الفترة أيضاً لاستخلاص النتائج منها ليكون ذلك منهجاً متكاملاً مبسوطاً أمام الدعاة. وستبقى الدعوة قائمة لكل من يريد أن يدلي بدلوه.

الفصل الثالث
نتائج هامة

(يجب أن نبدأ من هناك)

نتائج البحث:

لهذا البحث عدة نتائج منهـا: **تصـحيح** بعـض الأخطـاء التاريخية، **وإثبات** أن الرواد الأوائل قد كمل إيمانهم، قبل أن تكمل أركان الإسلام، **وكيف** أننا لم نصل إلى منـزلتهم فـي الإخـلاص والتضحية وبين أيدينا القرآن الكريم كاملاً، ومئات التفاسير حـول مضمونه، والسنة الشريفة ومئات المؤلفات حولها، وآلاف مؤلفة من الكتب الإسلامية في موضوعات شتى، أي أن كم المعلومات الـذي يحصل عليه المسلم العادي الذي لا يتمسك بدينه كما يجب، يساوي آلاف المرات تلك المعلومات القليلة التي كانت تضئ رأس بلال بن رباح، وهو يهتف في رمضاء مكة "أحد أحد" والتي كانت تشـرق فى أعماق ياسر بن عامر، وزوجته سمية بنت خياط، وهما يسلمان الروح لبارئهما سبحانه وتعالى، وعصابة الشرك تمثل بهما أسـوأ تمثيل، وتنكل بهما أشد تنكيل، وهما يتحملان ذلك، وقد جعلا رضا الله تعالى غاية، والثبات على دينه بداية ونهاية.

هذه بعض النتائج التي كشف البحث عنها.

ولكن هناك نتيجة أساسية انتهى إليها البحث:

وهي: طهارة الذاتية الفاعلة، وتأثيرها على المدعوين، وقد وصل البحث إلى هذه النتيجة حين قمنا بدراسة ثبات المدعوين على الإسلام حتى الموت في الوقت الذي لم يكن قد نزل من القرآن الكريم إلا الآيات القليلة، ولم تكن أركان الإسلام قد فرضت بعد، ولم تكن دولة الإسلام الفتية قد ظهر ضوءها في الأفق.

فلم يبق إلا أن الذي قد أثر في هؤلاء الأوائل العظام، هو ذاتية الداعية الأول المصطفى ﷺ، أي أنهم اقتنعوا به داعية، قبل أن تكتمل دعوته، ولما علموا منها القليل، ضحوا بحياتهم في سبيل حماية هذا القليل، وتوريثه إلى الأجيال التالية من أبناء الإسلام.

وتفيد هذه النتيجة – قوة الذاتية الفاعلة – في حقل الدعوة الآن، أنها تجعل الداعية المعاصر يبدأ البداية الصحيحة، على الطريق الصحيح، وتكون بدايته تطهير ذاته، وثقلها بالإيمان، حتى يتاح له أن ينقل حرارة الإيمان بعد ذلك إلى قلوب المدعوين، وهذه هي البداية الصحيحة لكل داعية ناجح في دعوته، وهي مأخوذة من سيرة إمام الدعاة المصطفى ﷺ.

ولابد للداعية الذى يريد لدعوته النجاح أن يمــر بمرحلتــى التحضير والتطهير، حتى تتكون لديه ذات فاعلة طاهرة، وقد سبقت آيات سورة المزمل حيث جاء إعداد الداعية، قبــل تحديــد معــالم الدعوة التي سيقوم بها، والإعداد هنا هو الإعداد النفسى الــداخلى للفرد، وهذا هو أساس الذاتية الفاعلة.

في عصرنا الحاضر ينقســم بحســب مــواردهم الثقافيــة وتوجيهاتهم النفسية إلى أقسام عديدة، فيوجه الداعية الــذي يعتمــد على الجدل الكلامي ويعتبره ذروة الأساليب المقنعة، ويوجد الداعية الذي يعتمد على ما يحفظه من أحاديث الرسول ﷺ ومــنهم مــن يعتمد على الشعر والبالغة اللفظية، ومنهم من يعتمد على الأساليب الوعظية الإنشائية.

وبالنسبة للتوجيهات النفسية فهناك الداعية صاحب الاتجــاه السلفي الذي يتمسك بظاهر النصوص دون النظر إلى مــا تشــتمل عليه من معان روحية، وهناك الداعية صاحب الاتجــاه الصــوفي الذي ينظر للدعوة على أنها دعوة للعبادة فقــط، وليســت إطــاراً يحتوي الدين والدنيا معاً. المهم أن كل صاحب اتجاه في الدعوة إلى الله تعالى يظن أن اتجاهه هو الأمثل للتأثير على المدعوين، ويجادل أصحاب الاتجاهات الأخرى، وفي هذا الصراع بــين الاتجاهــات والتوجيهات، تنزوى القضية الكبرى، واللبنة الأولــى فــي بنيــان

الدعوة الإسلامية، ألا وهي قضية تطهير الذات لتصبح ذاتا فاعلة. وكما ينبغي للداعية أن يلم بكثير من العلوم التي يستخدمها في دعوته، فإن عليه قبل ذلك أن يحصل شيئاً من التقوى يؤسس عليه هذه الدعوة، وينتقل عن طريق التطهير بذاته من الذات الخاملة إلى الذات الفاعلة.

أي يجب على الداعية أن يبدأ بالنظر إلى دخيلة نفسه ينقيها ويطهرها، فإذا أدرك أنه قطع شوطاً لا بأس به، بدأ ينظر إلى خارج نفسه، وبدأ يستعمل زاده الروحي في نقل روحانيات الشريعة إلى قلوب المدعوين.

ومن الملاحظ أن بعض الدعاة ينظرون إلى جهدهم المبذول في الدعوة إلى الله تعالى نظرة "كمية" أي يقيسون نجاحهم بكم المحاضرات والدروس التي ألقوها، وشرحوها، ولا ينظرون إلى "الكيف" وهو تأثير هذه المحاضرات على المدعوين، ولو اقتصدوا في جهدهم المبذول بعض الشئ، واتجهوا لذواتهم، فقوموا إعوجاجها، وغسلوا أدرانها، وأزالوا شكها، وزكوها، وسألوا الله تعالى أن يزكيها لهم لنجح مسعاهم.

ومن الدعاة من يرجو بدعوته الدنيا، فهي تعني عنده الجاه والمال، أو أحدهما، ولديه كثير من الأدلة التي تسوغ له ذلك، ومع ذلك يشكو من انصراف المدعوين عنه، وهو لا يعلم أن نجاحه في

دعوته يبدأ من ذاته، فالذات الطاهرة ذات فاعلة، وصدق الداعيـــة هو حجر الزاوية فى نجاح دعوته، وسيرها متدفقـــة فـــى قلـــوب المدعوين، ولابد أن نفرق دائماً بين الدعوة التي تؤثر فـــى نفـــوس المدعوين، وبين الدعوة التي تضيع وقتهم، ولا يتم هذا التفريق إلا بالتأمل العميق في بداية الدعوة، وفي سلوك المســـلمين الأوائـــل، وكيف أثرت فيهم ذات المصطفى ﷺ قبل أن يكتمل القرآن نزولاً، وتتم أركان الإسلام فروضاً.

... ويجب أن نبدأ من هناك.

الباب الثانى

الذاتية المنفعلة

الفصل الأول

الجانب النظري من انفعال الذات

يتشابه الأفراد والجماعات فى كثير من أوجه النشاط الإنساني، ويظل لكل فرد أو جماعة ميزة خاصة تعبر عن الذاتية أو الشخصية المستقلة لهذا الفرد أو لهذه الجماعة، وهذا البحث يهدف إلى بيان الصورة الذاتية للأوائل الذين اعتنقوا الإسلام بذاتية منفعلة، استقبلت الإيمان وخالط شغاف قلوبهم، ثم تبلور سلوكاً حياً متجاوباً.

وهذه الدراسة لا تركز على الناحية التاريخية، أو القصصية فى حياة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ولكنها تركز على الناحية النفسية، وعلى أبرز جوانبها وهو التجاوب الصادق مع الدعوة الإسلامية تجاوباً لم يترك مسافة واضحة بين القول والفعل، أو بين الفكرة والعمل، وهذا التجاوب يسمى عند علماء النفس بالانفعال، أو الوجدان ويروي فرويد (أن الوجدان أو الانفعال حالة شعورية، ولكن الأفكار لا يمكن أن تكون لا شعورية لأن الفكرة بحكم أنها فكرة شعورية، وإذا كانت لا شعورية فإنها ليست فكرة،

وقدموا نفس الاعتراض على الانفعال، فالانفعال لا يمكن أن يكون لا شعورياً، وهو انفعال فقط لأنه شعوري) [١].

فالانفعال حالة شعورية تعتري الفرد، وتجعله ينفعل ويكون ردود الانفعال العكسية الشرطية تجاهها، ولكن يعترض الاسترسال في الحديث عن الانفعال سؤال هو:

ما هي الحالة النفسية التي تميز فرد عن فرد في قبول فكرة معينة واعتناقها ومحاولة إخراجها سلوكاً ملموساً بالنسبة للآخرين؟

الإجابة عند علماء النفس – **أنها الدفعة الفطرية، ويعرفونها هكذا "الدفعة الفطرية" استعداد فطـري نفسـي، يسـمح لصـاحبه باكتساب الاستجابة لأنواع معينة من الموضـوعات أيسـر ممـا يستجيب لأنواع أخرى، كما يتيح له معاناة انفعال معين، تجاه هـذه** الموضوعات المعينة وأن يشرع في سلسه من الانفعالات تتوقـف عند هدف معين، وتفرز سلوكه المفضل إلى الهدف المفضل) [٢].

في هذا النص يتضح أن الاستعداد الفطري يكسب صـاحبه مميزات معينة مثل:

---

(١) د/ عبد المنعم الحفى. موسوعة علم النفس جـ١ ص٢٧ ط، مكتبة مدبولي ١٩٧٨م.

(٢) المصدر السابق جـ١ ص٢٧٧.

مميزات الذاتية المنفعلة

١- يتميز بأن لديه استعداداً فطرياً نفسياً.

٢- اكتساب الاستجابة لأنواع معينة من الموضوعات.

٣- معاناة انفعال معين تجاه موضوع معين.

٤- إحداث سلسة من الأفعال تتوقف عند هدف معين.

٥- سلوك مختار إلى هدف معين.

ومن خلال هذه العناصر تبرز فكرة الذات المنفعلة بروزاً يكشف عن ماهيتها ويحدد هويتها ويفرق بينها وبين الذات الخاملة، وتحدد معالمها كما يلي:

أولاً: الاستعداد الفطري:

وهو الخاصية المركوزة في النفس البشرية والتي تجعلها تتواءم وتتفاعل مع أهداف معينة، ومن هذا يتضح أن النفس البشرية لديها الاستعداد للانفعال وهذا الاستعداد يسمي الدفعة الفطرية ولكن يعترض هذه القاعدة سؤال مهم.

إذا كان الاستعداد للانفعال دافعة فطرية فهل يتساوى الناس في الاستجابة لكل الانفعالات؟ والجواب أن الناس ينفعلون – كدافعة فطرية – ولكنهم يختلفون في انفعالاتهم ويبقى لكل منهم اختياره

الخاص ولكن الله تعالى خلق فيه – أي الإنسان فهم المعنى والانفعال له، أو الانفعال عليه، أو الانفعال منه، ويحدد كل ذلك مدى استجابته لكل موضوع من الموضوعات المعروضة عليه ويبرز هذه الخاصية عند الإنسان قوله تعالى" **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** [(١)].

فالناس متساوون في الاستعداد للانفعال مختلفون في الاستجابة لهذا الانفعال أو لغيره تبعاً لاختلافهم في اختيار الهدف من ناحية القبول أو الرفض، فالآية الكريمة توضح أن الدافعة الفطرية موجودة لدى كل الناس وهي الاستجابة للخير أو الشر، ولكن يختلفون في الاختيار بين الفجور والتقوى، وعلى هذا يكون حسابهم، إن خيراً فخير، وإن الشر فشر.

ثانياً: معاناة الانفعال:

ومعاناة الانفعال من أبرز سمات الذاتية المنفعلة، وهو جوهر حياتها وهو ما يقابل الاستكانة في الذات الخاملة، ومعاناة الانفعال في الذاتية المنفعلة، هو ما يدفع الإنسان إلى الانتقال إلى خارج نفسه، والتلاشي في نطاق الهدف العام، وهذا يفسر لنا سلوك صحابة الرسول ﷺ حين كانوا يتركون ديارهم وأموالهم وحياتهم

---

(١) من سورة الشمس الآيتان ٧ – ٨.

الرغيدة، ويقبلون على الموت فى سبيل الله تعالى لتكون كلمـــة الله هى العليا، فهذا هدف سام لا تصل إليه النفوس الذليلـــة، والآمـــال الكليلة.

والانفعال إلى خارج النفس يمثل الرقي الإنســاني بأســمى معانيه والحياة داخل النفس دون معاناة الانفعالات العامـــة تعتبـــر موتاً مع استمرار الحياة بمعناه الحيواني ولذلك يقول الشاعر فـــي الذين لا يشعرون بآلام أوطانهم:

ومن يهن يسهل الهوان عليه　　　　ما لجرح بميت إيلام

وهذا المعنى الذي قصده الشاعر، هو السمة الغالبـــة للـــذين يعيشون في داخل أنفسهم ولا يستشعرون آلام ومعانـــاة الآخـــرين، ولذلك يريحون أنفسهم من معاناة الانفعال ولكنهم يقتلونها في نفـــس الوقت، لأن معاناة الانفعال وإن كانت تسبب عنتاً لرغبات الـــنفس الآنية إلا أنها تحييها وتجلب لها الخلود، وتحليها بأرق الصفات التي تجعل الإنسان إنساناً.

ثالثاً: انفعال معين تجاه موضوع معين:

هذا هو الاختيار بين الانفعالات وبين الموضوعات وبرغم اتفاق الناس جميعاً فى الانفعال، إلا أن اختيار الهدف يتوقف عليه اختيار الانفعال فالذين اختاروا الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ اختاروا الانفعال بالإيمان واختاروا التفكر لعقولهم، والتجافى عن راحتهم ورغدهم. واختاروا حرارة الإيمان المتفجرة فى أعماقهم والتي جعلتهم لا يرتاحون ولا يهنأون بشئ في الدنيا وصوبت أبصارهم إلى الآخرة دفعة واحدة، فضربوا المثل في الجهاد، وإعمار الأرض، وتحقق الخلافة، ورغبوا من كل ذلك متعة روحية وترويحة أخروية، وهذا الهدف لا ينسجم في نسق النفوس الضعيفة لأننا نجد في زماننا هذا بعض من ينتسبون إلى الدعوة الإسلامية ويجاهدون فيها، ولكنهم ما إن ينتهوا من إلقاء درس أو محاضرة إلا ويبحثون عن مقابلها المادي، والذي يترجم إلى مطعومات وملبوسات لهم ولأسرهم، وبعد ذلك يتصورون أنهم يسرون على درب الأوائل الكرام، وما أوسع بينهما[1].

غير أن هؤلاء المنتسبين إلى الدعوة لا يعرفون معنى انتقال الإنسان إلى خارج ذاته والتغلب على دونية النفس وسكونها.

---

(١) البين – الوصل – المعجم الوسيط ج١ والمعنى بعد المسافة بين الفريقين.

والذين اختاروا الانفعال بـــالكفر – معارضـــة الـــدعوة – اختاروا القلق لعقولهم، واللفح لقلوبهم، واليأس لأهدافهم، ومع ذلك كانوا يسعون إليها لتحقيقها، إذًا فمع وجـــود الانفعـــال واخـــتلاف الموضوع المنفعل به والمتجه إليه يبقى الهدف وراء كل انفعال.

رابعاً: تسلسل الأفعال واتجاهها إلى هدف معين:

التفوق في الحياة ليس وليد اللحظة، ولا هو ابنـــاً شـــرعياً للمفاجأة، هذا من ناحية علم النفس البشرية، وسلوك الإنسان العادي يتجه إلى ذلك، فالهدف يثير فى النفس انفعالاً، وهذا الانفعال يثيـــر في خارج النفس أفعلاً تتوالى فرادى. وهى موحدة المنبع والاتجـــاه حتى تصل إلى هدفها أو تركن إلى غايتها ومن هنا فالنفس الســـوية أو الذات المنفعلة ليست هي التي تنتظر المعجزات للقيام بما عليها من واجبات، لأنها تعلم أن المعجزات خاصة بالرســـل والأنبيـــاء عليهم السلام، ولكن الذات المنفعلة هى الذات المستجيبة التى تعمل فى إطار الخلافة، وبقوة التمكين.

خامساً: سلوك مختار إلى هدف مختار:

عند الذاتية المنفعلة الغاية لا تبرر الوسيلة، لأن من طبيعة النفس البشرية أن يكون لها سلوك مختار لأهداف مختارة، وطالما أن الهدف يحدد نوعية السلوك، فإننا لو أخذنا الأوائل في الإسلام مثلاً لهذه القاعدة، فإننا نخرج بنتيجة عظيمة وهي – أن سمو الهدف يؤدي إلى طهارة الفعل، وأن الهدف إن كان سامياً والفعل لا يناسبه، كان هذا الفرق مخصوماً من الإيمان ومحسوباً على مدعيه، ولذلك فطهارة الهدف وسيلة لتقويم سلوك من يتجه إليه، وما عرفت الأمة الإسلامية هذا البون الشاسع بين هدفها ووسيلتها في الوصول إليه، إلا في عصور الهزائم وضياع العزة، وسيطرة العدو، فإذا نظرت بعمق إلى الذات الإسلامية المعاصرة، وجدت أن جهادها أماني، وأن أفعالها متعسكرة في داخلها، وأهدافها لا شئ خارجاً عن ذاتها ولذاتها.

ومما سبق تتحدد خواص الذاتية المنفعلة، لكن أصدق النماذج لها عبر كل العصور صحابة رسول الله ﷺ! وأصدق ما حكى عنهم جاء في القرآن الكريم والسنة الصحيحة وسنعرض لهذه النماذج من الذاتية المنفعلة على الصفحات التالية.

أضواء على نماذج منفعلة

القرآن الكريم:

يقلى القرآن الكريم أضواء ساطعة على ذاتية الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فيظهر ما طوى في ثنايا النفس، ويترجم بعد ذلك سلوكاً طاهراً وأفعالاً عزيزة، وهم - رضوان الله تعالى عليهم - مصابيح الهدى في ليل البشرية البهيم.

والقرآن الكريم لا يقص على الأجيال المتتابعة من الأمة الإسلامية جوانب عظمة الأولين، لكي تكون مادة للتسلية وسبباً للفخر الجاهلي: بل يقص عليهم ذلك لتكون لهم العبرة والأسوة الحسنة.

وإن نظرنا إلى ذاتية الصحابة من خلال علم النفس الإسلامي: فإننا سنكتشف أنهم ضربوا أروع الأمثلة في تجسيد النفس السوية أو بمعنى أكثر وضوحاً (النفس القرآنية) أي أن مقاييس القرآن الكريم للنفس البشرية انطبقت عليهم. وفي كثير من الأحيان جاء ذكرهم في القرآن الكريم كمثل عليا للنفس السوية: النفس الراضية والمرضية على السواء.

وسوف نتناول هنا بعض النماذج التى تلقى أضواء على ذاتيتهم الفاعلة - رضوان الله تعالى عليهم - لكي نجسد المعانى

ونحولها إلى مبان وإلى أشياء ملموسة يصطدم بها من لـــه حديـد البصر ومطموس البصيرة، ويسير على هديها من كان له قلـــب أو ألقى السمع وهو شهيد.

النموذج الأول - الوجل

الوجل صورة من صور الانفعال، وهو من خواص الذاتيـــة المنفعلة ومن أبرز سماتها. وهو حركة اضطراب تعتري الوجـــدان مصحوبة بنوع من القلق الإيجابي - القلق الذي لا يـــدفع للعمـــل فحسب بل يدفع للتجديد فيه.

والوجل عند الصحابة كان خروجاً عن الذات وتلاشى فـــي مراد المحبوب المرهوب سبحانه وتعالى، ووجلهم منه مع حبهم له ومدحه لهم، يجعلنا نقف متفكرين في أحوالهم خائفين على أنفســـنا من سوء المصير، لأننا بأقل الأعمال التي تدل على الطاعة نبـــوأ أنفسنا منازل المقربين.

وتشرئب أعناقنا إلى عالم الشهود، وتطمـــح نفوســـنا إلـــى الخلود، مع أننا بمقاييس الأوائل، نخطئ بصدد أنفســـنا. وتـــرتكس أحياناً بهوانا وشغفنا: ولكن البحث فى ذاتيتهم رضوان الله تعـــالى عليهم الفاعلة. ربما ينقذنا مما نحن فيه من غرور.

ولننظر معاً قوله تعالى عن الأوائــل: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) (١).

تستطيع أن تجعل الآية الأولى حال للآية الثانيــة، وكــذلك الآية الثانية حالاً للآية الأولى. إذا استطعت فكاكاً من رســوم ابــن مالك وإحاطة ابن عقيل، والمعنى على الأول - أنهــم وهــم فــي مسارعتهم للخير قلوبهم وجلة من أي عمل طيب يعملونه خشية أن يكون خالف المراد بمقياس الحق سبحانه وتعالى، وإن وافق المراد بمقياسهم الخاص، والمعنى على الثاني - أن هؤلاء الذين يفعلــون الخير وقلوبهم وجلة، إنما يفعلون ذلك وهم يسارعون في الخيرات فهذه شهادة لهم بقبول أعمالهم وجودتها.

وسوف نتأنى هنا ونسترشد ببعض أراء الســادة المفســرين حول هاتين الآيتين:

---

(١) من سورة المؤمنون. الآيتان ٦٠، ٦١.

الإمام ابن كثير:

يقول: "أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلــون ألا يتقبــل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في شرط الإعطاء، وهــذا مــن باب الإشفاق والاحتياط، وقد روى الإمام أحمد عن سعيد بن وهب عن عائشة أنها قالت: "يا رسول الله الذين يؤتون ما أتوا وقلــوبهم وجلة". الذي يسرق ويزني ويشــرب الخمــر، وهــو يخــاف الله عز وجل، قال: رسول الله ﷺ "لا يا بنت الصديق، ولكنــه الــذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل"[١].

الأستاذ/ سيد قطب:

إن قلب المؤمن يستشعر يد الله تعالى عليه. ويحســن آلاءه في كل نفس وفي كل نبضة. ومن ثم يستصغر كل عباداته، ويستقل كل طاعاته إلى جانب آلاء الله تعالى، كذلك هو يستشعر بكــل ذرة فيه جلال الله تعالى وعظمته، ويرقب بكل مشاعره يد الله تعالى في كل شيء من حوله، ومن ثم يشعر بالهيبة، ويشعر بالوجل، ويشفق أن يلقى الله تعالى وهو مقصر في حقه، لــم يوفــه حــق عبــادة، وطاعة، ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكراً.

(١) الإمام ابن كثير. تفسير القرآن الكريم، جـــ٣ ص٢٤٨ ط ، دار المعرفــة – بيــروت ١٩٦٩م.

تلك اليقظة التي يفرضها الإسلام على قلب المسلم، والتي يستجيشها الإيمان بمجرد استقراره في القلوب، ليست أمراً فوق الطاقة، وليست تكيفاً فوق الاستطاعة، إنما هي الحاسية الناشئة من الشعور بالله تعالى والاتصال به، ومراقبته في السر والعلن، وهي في حدود الطاقة الإنسانية، حين يشرق فيها ذلك النور الوضيئ"(١).

لو نظرت إلى التفسيرين السابقين لألفيت في كل منهما نوراً يضيء لك جانباً من جوانب الذاتية المنفعلة بالوجل، فالإمام ابن كثير يعلل للوجل بقوله: "لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشرط الإعطاء" ودلل على ذلك بحديث السيدة عائشة رضوان الله تعالى عليها، ولكن الأستاذ/ سيد قطب يتخذ طريقاً مغايراً، فهو يشرح إمكانية هذا الشعور بالوجل وأن كل إنسان يمكنه إذا أراد أن يصل إليه، وأنه ليس هدفاً خالياً أو فرضياً عبثياً، يقول إن هذه الحالة. "ليست تكليفاً فوق الاستطاعة. إنما هي الحساسية من الشعور بالله تعالى والاتصال به".

وفى النهاية لابد من التركيز على أن الوجل انفعال لا غنى عنه للذاتية المنفعلة ولا يمكن لها أن تنفعل من غير وجل أو توجل

---

(١) الأستاذ/ سيد قطب. في ظلال القرآن جـ٤ ص٢٤٧٢، ٢٤٧٣ ط، دار الشروقي ١٩٨٧م.

من غير انفعال، تلك هي القضية الأولى التي يجب أن تهتم بها مدارسنا ومعاهدنا الإسلامية في تربية النشئ، وتوجيه الشبيبة، ويمكن أن يتحول ذلك إلى مقياس نفسي يستفيد به العلم والمتعلم على السواء فليس في الدنيا شئ يساوي عند المؤمن - الوصول لهذه الوجلة والرجفة الإيمانية، حين تعاين نفسه جلال الله تعالى المبسوط فوق كل شئ.

النموذج الثاني - التضحية

فى كثير من المجتمعات من المجتمعات الإسلامية الآن يصعب على بعض الأفراد التضحية بأى شئ فى سبيل إخوانه من المسلمين، لأنه يتقوقع في ذاتية خاملة، ويصعب على البعض الآخر التضحية بإخراج زكاة ماله، بجانب هؤلاء وأولئك هناك من يخرج زكاته ويتصدق بكثير من ماله من غير أن يكون عليه فرض زكاة، ولكن هؤلاء النفر قليل. غير أن فكرة التضحية بالذات وبكل ما تحمل في جنباتها من آمال وأحلام ليس واردة في أغلب الأحيان إن لم تكن مستحيلة الآن بين قوم رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها.

وسندرس هنا نموذجاً للتضحية (الخروج) حباً لله تعالى ولرسوله ﷺ . قال تعالى حكاية عن بعض صحابة رسول الله ﷺ:

(وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ) [١].

هذه الآية تتحدث عن مجموعة من الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم أجمعين – شخصت أبصارهم إلى المثل العليا في الإسلام وإلى هدف الأمة الكبير حتى نسوا حياتهم الدنيوية، وأقبلوا على الموت قتلاً – الشهادة – بفرح وغبطة، أصابهم الحزن العميق الصادق – بشهادة السماء – حين لم تقبل تضحياتهم وردوا عن الموت.

هؤلاء الناس أحدث الإيمان في قلوبهم تحولاً خطيراً في نسق المشاعر الإنسانية لأنهم – والحالة كذلك – كان من الضروري أن يعانوا من انفعال الخوف. ويتغلبون عليه بحرارة العاطفة الإنسانية. غير أن الذي حدث هو أنهم انفعلوا بالحب لله تعالى ولرسول ﷺ حتى غاب عنهم انفعال الخوف بكل مل يحمل من قلق واضطراب.

الإمام ابن كثير:

يرى الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية أن هؤلاء النفر من الصحابة لم يعانوا من ألم الخوف ولكنهم عانوا من عاطفة الحب

---

(١) من سورة التوبة الآية / ٩٢.

فيقول: "وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه فجاءته عصابة من أصحابه. فقالوا يا رسول الله إحملنا. فقال لهم "والله لا أجد ما أحملكم عليه". فتولوا وهم يبكون وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد. ولا يجدون نفقة ولا محملاً. فلما رأى الله تعالى حرصهم على محبته ومحبة رسوله. أنزل عذرهم في كتاب"(١).

أعرض الإمام ابن كثير عن هذه الفكرة أنهم حزنوا من أجل ترك الجهاد، ووصل إلى الانفعال الأساسي، وهو انفعال الحب لله تعالى ولرسول ﷺ فقال: "فلما رأى الله تعالى حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتاب".

وهو بكلماته هذه يركز على الحقيقة الكبرى أن هؤلاء النفر من الصحابة تركوا ذواتهم وتلاشوا في مراد الله تعالى ومراد رسوله ﷺ.

---

(١) الإمام ابن كثير. تفسير القرآن العظيم، جـ٢ ص٣٨١.

الذات الخاملة:

ولكن نميز الذات الفاعلة لابد من شرح موقف الذات الخاملة، وهم الذين سموا بالخوالف، وقال الله تعالى فيهم: (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) (١).

هؤلاء هم الذين دخلوا إلى ذواتهم ولم يخرجوا منها نظروا إلى حياتهم الخاصة وإلى حياة أسرهم كيف يأكلون وكيف يشربون وأي شئ يلبسون. ثم سألوا أنفسهم وهو في قوة في النفس مظلمة، من أجل أي شئ يضحون ؟!

هؤلاء كانوا من المسلمين الذين يصلون خلف رسول الله ﷺ ويعلمون تضحياته في سبيل الله تعالى، ويعلمون تضحيات الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، ومع ذلك فلم يضحوا. لماذا؟

لأن ذواتهم كانت خاملة باردة لم تذق حرارة الإيمان في يوم من الأيام، وهذه النتيجة تقودنا في البحث إلى نتيجة أخطر وهي:

أن الإسلام والإيمان من غير برهان من التضحية على صدقهما لا ينفعان، ولو كان لهم نفع مستقل عن البرهان، لكان

---

(١) من سورة التوبة – الآية / ٩٣.

الأولى بهذا النفع بعض الذين صاحبوا رسول الله ﷺ وصلوا خلفه.. ومع وضوح هذه الحقيقة انتشرت في الأمة الإسلامية مقولة من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، وهذه المقولة إن صحت عن رسول الله ﷺ لابد لها من تأويل ينسجم مع حقائق القرآن الكريم وواقعيات التاريخ الإسلامي، أما التعميم لهذه المقولة – من غير تأويل – من قبل العجزة والقاعدين أمر مجهد للغاية – لأن المسلم من المفترض أن يكون صادقاً مع الله تعالى في كل شئ، فإذا لم يستطع – لضعف في ذاته – أن يتفانى في مراد الله تعالى، فيجب عليه ألا يجعل هذا المراد منسجماً مع خياله الضعيف وعزمه الكليل – بمعنى أنه إذا لم يستطع الصعود إلى القمة، فمن سوء الأدب تمني نزول القمة إليه.

ويرى **الأستاذ سيد قطب** أن طبيعة الخوالف (الذات الخاملة) طبيعة سدت منافذ الشعور فيها فيقول: "فقد أغلق الله تعالى فيهم منافذ الشعور والعلم، وعطل فيهم أجهزة الاستقبال والإدراك، بما ارتضوه هم لأنفسهم من الخمول والبلادة والوخم والاحتجاب عن مزاولة النشاط الحركي الحي المتفتح المنطلق الوثاب ولا يؤثر الإنسان السلامة اللذيذة أو الراحة البليدة إلا وقد فرغت نفسه من دوافع التطلع والتذوق والتجربة والمعرفة، فوق ما فرغت من

دوافع الوجود والشهود والتأثر والتأثير في واقع الحياة، وإن بــلادة الراحة لتغلق المنافذ، والمشاعر، وتطبع على القلــوب والعقــول، والحركة دليل الحياة، ومحرك في الوقت ذاته للحيــاة، ومواجهــة الخطر تستثير كوامن النفس وطاقات العقل، وتكشف عــن الــنفس وطاقات العقل، وتكشف عن الاستعدادات المخبوءة التي تنتفض عند الحاجة، وتدرب الطاقات البشرية على العمل، وتشــحذها للتلبيــة والاستجابة ... وكل أولئك ألوان من العلــم والمعرفــة والتفــتح، يحرمها طلاب الراحة البليدة، والسلامة اللذيذة"[1].

في الفقرة السابقة يحدد المؤلف صــورة الذاتيــة الخاملــة ويعتبرها تلك الذات التي لا تستطيع أن تتخلص من الــدوران فــي تلك اللذة والمتعة الآنية، ولا تستطيع أن تستشرف ما وراء المــادة وأن تبذل ما ينفعها في الآجلة وينطبق عليها قــول الله تعــالى: (**إنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً**)[2].

ومن هنا فالمسألة لا تقف عند أصحاب هــذه الــذات عنــد الخمول والقعود بل تتعدى إلى حب العاجلة بدلاً من التضحية مــن أجل حب الله تعالى ورسوله.

---

(١) سيد قطب. في ظلال القرآن جـ٣ سنة ١٩٦٥.

(٢) من سورة الإنسان الآية / ٢٧.

النموذج الثالث - الإيثار

والإيثار هو الذى يحدد علاقة الإنسان الفرد بالآخرة، وهو الذي يدل من قريب على أن الذات التى تؤثر على نفسها هى تلك الذات المنفعلة بالإيمان والفاعلة للإيثار، ولقد ضرب صحابة رسول الله ﷺ أروع الأمثلة فى الإيثار وتقديم الغير على أنفسهم، حتى مدحهم الحق سبحانه وتعالى، وسجل لهم هذا الموقف في القرآن الكريم.

ولا تحسبن الإيثار ضربًا من ضروب الكرم، التي يتحلى به بعض الناس، إن الإيثار حالة نفسية تدل دلالة واضحة على أن النفس المؤثرة نفس تشبعت بالإيمان وتشعب الإيمان في أرجائها، حتى انفكت من قيد الداخل النفسي المظلم، إلى الخارج بكل ما يتطلب من عطاء، حتى غدت هذه النفس تؤثر على نفسها حتى في حالة الخصاصة وهي الحاجة الشديدة، أو الحاجة الملحة، وإن شحت قل: المهلكة.

قال الله تعالى: **(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** [١].

---

(١) من سورة الحشر - الآية / ٩.

هذه الآية تبرئ الأنصار من شبهة أن نفوسهم تغيرت من عطاء المهاجرين، وثبت لهم أنهم بعيدون عن هذه الشبهة، لأن نفوسهم مؤثرة وليست شحيحة، وأنهم لا ينظرون إلى عطاء المهاجرين بل يؤثرونهم على أنفسهم في حالة الشدة والحاجة وهذه هي طبيعة الذات المنفعلة التي آمنت بربها وصدقت بكلماته.

يقول صاحب الميزان: (والمعنى: ويقدمون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم فقر وحاجة، وهذه الخصيصية أعزر وأبلغ من مدحهم من الخصيصية السابقة، فالكلام في معنى الإضراب كأنه قيل: لا يطمحون النظر فيما بأيدي المهاجرين، بل يقدمونهم على أنفسهم فيما بأيديهم أنفسهم في عين الفقر والحاجة) (١).

أي أنه ليس مجتمع طمع وأثره، بل مجتمع عطاء وإيثاره.

وعن صورة أخرى من عطائهم يقول الله تعالى: (**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً**) (٢).

---

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي الميزان في تفسير القرآن ج١٩ ص٢٠٦ ط، مؤسسة الأعلمي – بيروت ١٩٧٤م.

(٢) من سورة الإنسان – الآيات من ٨ : ١٠.

فهذه الآيات تبدي صورة الذات المنفعلة واضحة من غير لبس، إنهم يطعمون الطعام – مع الحاجة إليه – للفقير والمسكين والأسير.

وتتميز معالم هذه الذاتية المنفعلة المؤثرة من وجوه:

١- إطعام الطعام مع الحاجة الشديدة إليه.

٢- إطعامه للفقير والمسكين والعادة أن تجهز الموائد للأغنياء وأصحاب المناصب، يحدث هذا الآن بين أعداد متزايدة من المسلمين.

٣- إطعام الأسير المشرك مع عدم وجود العاطفة الدينية، ولكن تلاشت في هدف الإسلام الأعلى.

٤- أنهم مع هذا العطاء الممنوح من الحق سبحانه وتعالى تجدهم أصحاب شفافية وخوف ووجل من الله تعالى، لأنهم لا يعلمون على وجه الدقة هل تصادف أفعالهم رضا، أم أنها تقع في منطقة بعيدة عن الرضا منحرفة عن المراد.

وهذه النقطة الأخيرة تفتح باباً كبيراً في طبيعة الإيمان المقبول فهؤلاء مع عطائهم المخلص والمستخلص من كل الرياء والمنفعة والذي يصادف رضا من الله تعالى ومدحة يخافون **"يوماً عبوساً قمطريراً"**.

وبين المسلمين الآن من لا يعطى حتى فرض الزكاة كاملاً، ومن يؤثر نفسه بكل خير وكأن الحياة لم تخلق إلا له وحده، ومع ذلك يزرف دموعها فى بعض المناسبات الدينية، ويحدث الناس عن رؤى وحالات تدل على كثرة الوجد وشدة القبول.

إذن لابد من بحث علمي ديني يعاود نقيم وتقويم إيمان المتأخرين على ضوء هذا الصرح الشامخ الطاهر من إيمان المتقدمين، أما أن يخاف سيدنا أبو بكر من مكر الله تعالى وله قدم في الجنة، وبعضنا لا يخاف من مكر الله تعالى وله أقدام في جهنم، فذلك هو أعجب الإيمان.

يرى الشيخ عبد الكريم الخطيب – أن (من صفات هؤلاء الأبرار أنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، فالطعام الذي عليه قوام الحياة وملاكها، لا يؤثرون أنفسهم به، بل يجعلون لمن يعوزهم هذا الطعام نصيباً منه، ولو كانوا هم أنفسهم في أشد الحاجة إليه.

وهذا القول من الأبرار ليس بلسان المقال، يواجهون به من أطعموهم فإنهم لو فعلوا لكان ذلك من باب المن والأذى، الذي يحبط الأعمال، ويمحق الإحسان، وإنما هو بلسان الحال، ومما انطوت عليه ضمائرهم، وانعقدت عليه نياتهم) [١].

---

(١) الشيخ عبد الكريم الخطيب. التفسير القرآني للقرآن جـ٢٩ ص١٣٦٣، ١٣٦٤ ط، دار الفكر العربي.

وهذه الفكرة – فكرة لسان الحال تعتبر استنتاجاً طيباً للمفسر، لأنها داخلة ضمن انفعالية هذه الذوات الكريمة، وسمة أساسية لها.

الأستاذ سيد قطب:

يتحدث صاحب الظلال عن انفعالية الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم – بقوله: "**ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً**" – وهى – أى الآيات تصور شعور البر والعطف والخير ممثلاً فى إطعام الطعام، مع حبه بسبب الحاجة إليه.

فمثل هذه القلوب لا يقال عنها: أنها تحب الطعام الذي تطعمه للضعاف المحاويج على اختلاف أنواعهم، إلا أن تكون فى حاجة هى إلى هذا الطعام، لكنها تؤثر به المحاويج.

وقد كان إطعام الطعام هكذا مباشرة هو وسيلة التعبير عن هذه العاطفة النبيلة الكريمة، ووسيلة الإشباع لحاجات المحاويج، ولكن صور الإحسان ووسائله قد تتغير بحسب البيئات والظروف، فلا تظل في هذه الصورة البدائية[1]. المباشرة، إلا الذي يجب الاحتفاظ به هو حساسية القلوب، وحيوية العاطفة، والرغبة فى

---

(١) لعله سبق قلم من المؤلف فهو لا يقصد بالبدائية (الغير متحضرة) إنما يقصد البدائية وهذا ما ينسجم مع نصه المذكور.

الخير ابتغاء وجه الله تعالى والتجرد عن البواعث الأرضية من جزاء أو شكر أو نفع من منافع الحياة.

إن الإسلام عقيدة قلوب، ومنهج تربية لهذه القلوب، والعاطفة الكريمة تهذب صاحبها وتنفع من يوجهها إليه من إخوانه فتفي بشطري التربية التي يقصد إليها هذا الدين ... ومن ثم كان هذا التصوير الكريم لذلك الشعور الكريم[١].

ومن النقاط المهمة التي أثارها المؤلف – رحمه الله تعالى – فيما يتعلق بانفعالية ذوات الصحابة – حساسية القلوب وحيوية العاطفة، والإيمان الصحيح لا يقوم في القلوب مثمراً إلا إذا تشبع بالحساسية القلبية، والحيوية العاطفية، وخرجت منه حرارة الإيمان تترجم أقوالاً وأفعالاً أما الإيمان بمعنى التصديق فقط، فهو وإن قبل عند البعض إلا أنه لا ينشئ مجداً لأمة، ولا يشيد صرحاً لدين.

النموذج الرابع – التفكير

والتفكير: هو الحالة الذهنية المتعاملة عند الذات المنفعلة بكل ذات لا تفكر في ذات الله تعالى وصفاته كما فعل أهل الكلام فيما بعد عصر الأوائل، ولكنها تفكر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، إنها لا تفكر في المحسوسات والملموسات

(١) الأستاذ/ سيد قطب. في ظل القرآن ج٦ ص٣٧٨١، ٣٧٨٦ ط، دار الشروق.

ولكنها تفكر في دقتها، وتسبيح بحمد خالقهـــا، إنـــه تفكـــر الـــذات المنفعلة. وهذا الفكر لا يجلب للذات الاستعلاء بمعرفـــة المقـــدمات والنتائج كما يفعل أصحاب الفكر العقيم، ولكنه فكر يزيـــد الـــنفس خشوعاً وخضوعاً، ويأخذ بيدها إلى أعماق الإيمان البعيدة، إنه فكر منتج، إنه فكر يتبعه ذكر ويقول الله تعالى فـــي أصـــحاب الـــذات المتفكـــرة: **(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ° الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَـــا خَلَقْتَ هَـذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَـذَابَ النَّارِ)** (١).

يقول الغمام محمد عبـــده: وهذه الآيات تظهر لكل أحد على قدر علمه وفهمه وجودة فكره. فأما علماء الهيئة فإنهم يعرفون من نظامها ما يدهش العقل. وأما سائر الناس فحسبهم هـــذه المنـــاظر البديعة والأجرام الرفيعة، وما فيها من الحسن والروعة. وكل عقل يتمكن من الاستفادة من النظر في هذه الآيات. والاستدلال بها على قدرة الله تعالى وحكمته.

ويقول الشيخ رشيد رضا: «قد يتفكر المرء فـــي عجائـــب السموات والأرض وأسرار ما فيهما من الإتقان والإبداع والمنـــافع

---

(١) من سورة آل عمران الآيتان ١٩٠: ١٩١.

الدالة على العلم المحيط والحكمة البالغة، والنعم السابغة والقدر التامة. وهو غافل عن العليم الحكيم القادر الرحيم الذي خلق ذلك فى أبدع نظام.

إن الفكر وحده وإن كان مفيداً، لا تكون فائدته نافعة في الآخرة إلا بالذكر، والذكر وإن أفاد في الدنيا والآخرة، لا تكمل فائدته إلا بالفكر. فطوبي لمن جمع بين الآمرين واستمتع بهاتين اللذتين) [١].

وفي التفسير الوسيط: إن في خلق السموات والأرض وما فيه من الإبداع والإحكام والحكم والمنافع، وفي اختلاف الليل والنهار، لعلامات واضحات لأصحاب العقول على وجود رب لهذا الكون. واحد عظيم. وأدلة شاهدات له بكل كمال، وتنزهه عن كل نقص. أولوا الألباب – هؤلاء – هم الذين يتذكرون الله تعالى في كل حال، بعد أن أثرت آياته في نفوسهم، وهدت إلى معرفته عقولهم، وجعلتهم يجدون التفكر في خلق السموات والأرض ليزدادوا معرفة بخالقها. وإيماناً واثقاً بمبدعها. وخشية من التقصير في واجبات مدبرها[٢].

---

(١) الشيخ محمد رشيد رضا تفسير المنار جـ٤ ص٢٤٥ ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

(٢) التفسير الوسيط. إعداد لجنة من علماء الأزهر الشريف ٤ ص٧٢٩ ط، الهيئة لشئون المطابع الأميرية طبعة ثانية ١٩٧٣م.

يلاحظ على التفاسير السابقة أنها تشرح الآيتين على أنهما جمل إنشائية لوصف حال من يفعل هكذا (وقد أجاد أصحاب التفاسير في ذلك، ورابطوا - مبدعين - الفكر بالذكر، وبينوا طريقة الانفعال بالفكر. غير أنى أرى أن الآيتين السابقتين تحملان معنى الخبر، وأن ذلك كان حال بعض صحابة رسول الله ﷺ، الذين كانوا ينظرون إلى الكون على أنه كتاب الهداية الثاني لهم).

وكانت حرارة الإيمان تدفعهم إلى رؤية قدرة الصانع في كل صنعة، ليست رؤية حسية، ولكنها رؤية شعورية تدفع صاحبها إلى الذكر الدائم، وفى القرآن الكريم والسنة الشريفة ما يؤكد هذه الحقيقة: أن ما جاء فى الآيتين خبراً وليس إنشاء.

ويرى الإمام ابن كثير: أن ذلك من باب الخبر فيقول: (وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وشرعه وقدره وآياته فقال **(وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ)** [(١)].

ومدح عباده المؤمنين "الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض". قائلين "**ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار**" - أي ما خلقت هذا الشئ عبثاً) [(٢)].

---

(١) من سورة يوسف. الآيتان / ١٠٥ ، ١٠٦.

(٢) الإمام ابن كثير. تفسير القرآن العظيم ج١ ص٤٣٩ دار المعرفة ببيروت.

فهو يرى أن هذا إخبار عن حالة المـؤمنين أثنـاء نـزول القرآن وهم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، ويؤخذ ذلـك مـن قوله: (ومدح عباده المؤمنين).

ويركز صاحب الظلال على انفعال الذوات المؤمنة بـالتفكر فيقول: (وأولوا الألبـاب - أو لـوا الإدراك الصـحيح، يفتحـون بصائرهم لاستقبال آيات الله تعالى الكونية، ولا يقيمـون الحـواجز ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله تعالى بقلوبهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم فتنفتح بصائرهم وتشف مداركهم وتتصل بحقيقة الكون التي أودعها الله تعالى إياه، وتـدرك غايـة وجوده وعلة نشأته، وقوام فطرته، بالإلهام الذي يصل بين القلـب البشري، نواميس هذا الوجود.

ومشهد السموات والأرض،/ ومشهد اختلاف الليل والنهار.. لو فتحنا له بصائرنا وإدراكاتنا، لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليـه العيون أول مرة، لو استنفذنا حسنا من همـود الإلـف[١] وخمـود التكرار لارتعشت له رؤانا، ولاهتزت له مشاعرنا، ولأحسسـنا أن وراء ما فيه من تناسق لابد من يد تنسق وراء ما فيه من نظام لابد من عقل يدبر.

---

(١) الإلف: التعود.

والسياق القرآني هنا يصور خطوات الحركة النفسية التـــي ينشئها استقبال مشهد السموات والأرض واختلاف الليل والنهار في مشاعر أولى الألباب تصويراً دقيقاً[١].

في الفقرات السابقة يحاول المؤلف – رحمـــه الله تعـــالى – رسم الخط النفسي لهذه الذوات المنفعلات. وبهذه الفقرات ننهي هذا التصوير لجانب من سلوك الذاتية المنفعلة في القرآن الكريم.

---

(١) الأستاذ/ سيد قطب. في ظلال القرآن. ج١ ص٥٤٤، ٥٥٥ ط، دار الشروق.

الفصل الثاني

الجانب العملي لانفعال الذات

قبل أن نقدم الجانب العملى – السلوك النفسي المترجم – عند الأوائل، نذكر بأننا قدمنا في مقالنا السابق[١] نبذة عن الذاتية المنفعلة، ولكن في جانب واحد من الانفعال، هو جانب التضحية بالنفس، انفعالاً بالذاتية الفاعلة قبل أن يظهر الإسلام وتكتمل أركان الإيمان، وقدمت الذاتية المنفعلة هناك كوعاء لتأثير الذاتية الفاعلة، ولكنها تقدم هنا كشخصية نفسية مستقلة شاخصة. لذلك لزم التنبيه.

للذاتية المنفعلة شخوصها في حركة الدعوة الإسلامية قديماً وحديثاً، ولها أبعادها ومعالمها، وسنحاول أن نترسم ذلك عند الأوائل فقد كان انفعالهم هادراً وشخوصهم بارزة وهم الذين آمنوا في فجر الإيمان، وأسلموا قبل أن يكتمل بناء الإسلام، إن الذين ضحوا من أجل الإسلام كثيرون وهم على طريق الدعوة الإسلامية أعلام هادية، ونجوم تضيء دروب الدعوة، تلهم الرشد للدعاة، وهم

---

(١) الذاتية الفاعلة: بحث نشر للمؤلف في حولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا عام ١٩٩٠م. وجاء فقرة الذاتية المنفعلة في ص٦٢٠.

عنوان على الدعوة الإسلامية أبقى من الزمان، وأقوى من الحياة، لأنها رسالة من صانع الحياة ومؤقت الزمان) [١].

وسوف نتناول بعض جوانب الذاتية المنفعلة التي توضح هويتها النفسية وتشير إلى ماهيتها الإيمانية وهذه بعض الجوانب نوردها كما يلي:

جوانب إيجابية للذاتية المنفعلة

الجانب الأول:

وتحمل الشدائد في الدعوة إلى الله تعالى هو لون من الاختبارات اللازمة لتمحيص الإيمان، ثم الدلالة عليه بعد ذلك، ثم الإشارة إلى صدقه في النهاية، ولعل القاسم المشترك بين صحابة رسول الله ﷺ، هو تحملهم جميعاً الشدائد والمعاناة في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، لقد بين لهم القرآن الكريم أن قول الإنسان إني مؤمن: دعوى، يدخل الإنسان بعدها في مرحلة الفتنة والاختبار، فقال تعالى: **(الم ۚ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)** [٢].

---

(١) د/ محمد محمد أبو زيد. حولية أصول الدين بطنطا، ص٦٢٠.

(٢) من سورة العنكبوت. الآيات ١ – ٣.

إذًا الفتنة في الدين، سنة ثابتة من سنن الحق سبحانه وتعالى، وهي تمحص الأوائل من معتنقي الأديان السماوية، ومحصت كذلك المؤمنين من أتباع سيدنا محمد ﷺ.

غير أن الجدير بالبحث هنا هو تلك الحالة النفسية التي تعقب فترة تحمل الشدة وهي الحالة التي تدفع صاحبها إلى الإيمان.

تلك هي حالة الانفعال بالإيمان، أو حرارة الإيمان التي تنصهر فيها المعاناة والشدائد، وتصهر صاحبها ليخرج من الشدة والمعاناة كياناً نفسياً آخرًا.

ومن الذين انفعلوا بالدعوة الإسلامية، وتحملوا الشدائد والمعاناة في سبيلها الصديق أبو بكر رضي الله عنه وسوف نورد هنا بعض النماذج من تحمله الشدائد رضي الله عنه.

١- الصديق أبو بكر رضي تعالى عنه

ألح على رسول الله ﷺ فى إظهار دعوته، وما زال به حتى قبل ذلك، وذهبا ومعهما جماعة من المسلمين إلى البيت الحرام وقام سيدنا أبو بكر خطيبا بين الناس – فكان أول خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسول ﷺ. وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوا فى نواحى المسجد ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين.

ويحرفهما لوجهه، ونزل على بطن أبي بكر حتى   ما يعرف وجهه من أنفه، وجاء بنو تميم يتعادون فأجلت المشركين، عن أبي بكـــر وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشـــكون في موته، فجعل أبو قحافة وبنمو تميم يكلمون أبا بكر حتى أجـــاب فتكلم أخر النهار. فقال: ما فعل رسول الله؟

فمسوا منه بألسنتهم وعزلوه (ثم قاموا وقالوا لأمه. أم الخير، انظري أن تطعميه شيئاً أو نسقيه إياه فلما خلت بـــه ألحـــت عليـــه وجعل يقول. ما فعل رسول الله ﷺ؟

فقالت: والله مالي علم بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أم جميـــل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالـــت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟

فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنـــت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك قالت: نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً (مريضاً لازمه المـــرض) فـــدنت أم جميـــل وأعلنت بالصياح وقالت: والله، إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فســـق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعـــل رســـول الله ﷺ؟ قالت هذه أمك تسمع، قال: فلا شئ عليك منها. قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم. قال: فإن لله علـــى

أن لا أذيق طعاماً ولا أشرب شــراباً. أو آتــى رســول الله ﷺ. فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، خرجتــا بــه يتكــئ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، قال: فأكب عليه رســول الله ﷺ فقبله، وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقــة شديدة، فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها - عسى الله أن يستنقذها بك من النار - قال - فــدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت[1].

في هذا النص تبدو عناصر الانفعــال الإيمــاني واضــحة، وسوف نتحدث عنها بشئ من الإيجاز، وهي مبسوطة في الــنص هكذا.

- ما فعل رسول الله؟
- ما فعل رسول الله ﷺ؟
- فما فعل رسول الله ﷺ؟
- لله على أن لا أذوق طعاماً ولا شراباً أو آتى رسول الله ﷺ.

( ) محمد يوسف الكاندهلوى. حياة الصــحابة. جـــ١ ص٢٥٩، ٢٦٠ ط، دار التــراث بيروت.

- فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله.
- وأكب عليه المسلمون.
- فادعها إلى الله وادع الله لها.

تحليل النص:

يقوم هذا التحليل على المرتكز النفسي أساساً، لذلك فهو يعالج النص من خلال الظروف النفسية المحيطة بالحادثة، ويبرز ما فيه من انفعالات[١] إيجابية، وسوف نبتعد عن السرد التاريخي، أو الحدثي للنص، ونلتزم بمناقشة إيجابياته الانفعالية فقط.

ما فعل رسول الله؟

هذا السؤال قصير كما ترى وقد خلا من الصلاة على رسول الله ﷺ لماذا؟ لأن هذا السؤال كان عنواناً على حياة أبي بكر رضي الله عنه بل كان هو الحياة حين عادت، بل كان هو مضمون الحياة والموت بالنسبة له رضي الله عنه لأنهم (حملوه في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته) هذه حقيقة لا مراء فيها أنه رجل بين الحياة والموت، وبنو تميم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار

( ) من الواجب تنبيه القارئ أن كلمة انفعال المتكررة في النص لا يقصد بها المعنى الدارج لهذه الكلمة ولكن يقصد بها إيجابية الإيمان والانفعال بمعطياته.

فقال ما فعل رسول الله؟ بنو تميم يكلمون أبا بكر ليقفوا على حقيقة حالته، وهو لا يستطيع أن يرد عليهم يوماً كاملاً، فإذا عادت إليه الروح سأل عما هو أعز من الروح سأل عن رسول الله ﷺ، هذه هي معجزة الإيمان، ومظهر حرارة الإيمان، إن الذي يحشى عليه من الموت، حين يعود للحياة، لابد أن يتوجع من الألم الذي غيبه عن الحياة ابتداء، لكن رسول الله ﷺ كان محور حياة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فكانت حياتهم مظهراً لحبة ﷺ، وترجمة واقعية لما جاء به، لذلك فمحاولة استكفاه حقيقة إيمانهم، هي في ذات الوقت محاولة لرسم الطريق لنا، إذا أردنا أن نعيش مثل إيمانهم أو ما يقرب من ذلك، أو إذا أردنا أن نضع مقياساً لإيماننا المتواضع أحياناً، والمتضع في كثير من الأحيان.

ما فعل رسول الله ﷺ؟

حين عادت الحياة إلى سيدنا أبي بكر محورها في سؤال ما فعل رسول الله؟ وحين عادت إليه الحياة بزيادة قليلة عن العودة الأولى، جعل هذه الزيادة تحية لرسول الله ﷺ، فصلى عليه. لم يسأل عن مال، أو ولد، أو عائلة، أو قبيلة، ولم يسأل حتى عن نفسه، هل سيموت أم لا، بل جعل امتداد حياته عنواناً لحبه لرسول الله ﷺ.

لله عليَّ أن لا أذوق طعاماً ولا شراب أو آتي رسول الله ﷺ.

أرأيت إلى رجل غاب عن الدنيا مغشياً عليه فلما أفاق وعاد للحياة أغلق منافذها المرئية على نفسه.

إنه سيدنا أبو بكر ﷺ، حين عاد للحياة رفض الطعام والشراب – وهما من ضرورات الحياة – حتى يأتي إلى رسول الله ﷺ، بأي تفسير يكون هذا الموقف، لا يفسر هذا الموقف في ضوء واقعية المسلمين اليوم، ولا يفسر بمعزل عن دائرة الذاتية المنفعلة، هذه الذاتية التي انفعلت بالإيمان حتى أصبح لها زاداً أولياً لا غنى عنه بغيره، ويستغنى به عن كثير.

هذه الذاتية المنفعلة التي امتزج فيها الإيمان بالله تعالى وبحبه وحب رسول الله ﷺ، إذا أردنا أن نوضح هذه الفكرة للذهنية الحاضرة، فإننا نقول:

إن كثيراً من الذين يمارسون الدعوة الإسلامية يفرقون بين معطيات الإيمان وواجباته، وبين الانفعال به والعيش فيه، فبعضهم يطلب من الناس ملائكية الفعل والتوجيه، ويصدر – هو نفسه – في أفعاله وعلاقاته بالآخرين عن قلب قاس ليس عيبه أنه لا يرحم، بل خطيئته أنه يسر بآلام الآخرين، هذه النوعية من الدعاة – المدعين

– تبلى سرائرها وينكشف ما فيها من ظلمة حين تـوزن بفاعلية الأولين، وهذا هو الدرس الذي يجب أن نخرج به مـن دراسـتنا للذاتية الفاعلة عن السابقين، لقد سبقونا بالإيمـان وسـابقونا إلـى سنامه.

"فأكب عليه رسول الله ﷺ".

لقد صهرتهم حرارة الإيمان جميعاً حتى أصبحوا ذاتاً إيمانية واحدة مع تعدد الشخوص على صفحة الحياة، فهـا هـو رسـول الله ﷺ يقبل على أبي بكر ﷺ مقبلاً، ويقبل بعده المسلمون.

إنها عودة الحبيب للحبيب، إنه لقاء الأرواح المؤتلفة، إنهـا أرواح صهرها الإيمان، ووحدها المصير.

"فادعها إلى الله وادع الله لها".

وكما ذابت أرواحهم في الإيمان تجسـدت عـواطفهم فـي الدعوة الإسلامية. فبعد هذا اللقاء البهيج، لهم يغفل سيدنا أبو بكـر حق الدعوة عليه، ومردود إيمان الآخرين إليه فطلب مـن رسـول الله ﷺ أن يدعو أمه إلى الإيمان. وأن يدعو الله تعالى لها. وهـو بذلك يؤكد انفعاله بالإيمان. حتى أصبح لا يرى في الحياة غيره.

وفي نهاية تحليل هذا الموقف الإيماني. وبيان انفعالية الذات بالإيمان. نرى أن هذا الإيمان هو الحرى بدفع الأمة، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، ولذلك فالأولون سادوا وقادوا، وإذا جاء في التاريخ عنهم غير ذلك، فهي نزعات غير حقيقية، سجلها عليهم من لم يعاصروها ولم يذوقوا مثل إيمانهم يوماً ما، وكثير مما كتب عن الأولين فيه ظلم لهم، وشبه إلى حد كبير وصف الأعمى لحديقة غناء بعد أن يلمس أشجارها وأغصانها. وربما أصابه الشوك من بعض الزهور، أو شعر بغلظة في بعض الأغصان فعاد يصف ما لمسه بيده، وصوره بعقله بعيد عن روعة الحقيقة وجمالها الأخاذ.

٣-آل ياسر رضي الله تعالى عنهم

ومن الذين تحملوا الشدائد في الدعوة آل ياسر، وقد قدمنا ترجمة لكفاحهم في البحث الأول – الذاتية الفاعلة – تحت مضمون: لماذا ضحوا؟

وكانت الإجابة أنهم ضحوا بتأثير ذاتية رسول الله ﷺ، ولكننا هنا سنذكر لمحة عن انفعالهم بالإيمان، ولأنه لا يمكن لباحث في الذاتية المنفعلة أن يمر على ذكراهم دون أن يستنشق عبيرهم ويستضئ بنورهم، ويأمل أن يكون له مثل إيمانهم. أخرج ابن مسعود عن عثمان رضي الله عنه: (بينما أنا أمشي مع رسول الله ﷺ

بالبطحاء إذا بعمار وأبيه وأمه يعذبون في الشمس ليرتدوا عن الإسلام، فقال أبو عمار):

يا رسول : آلدهر هكذا؟ فقال: صبراً آل ياسر، اللهم اغفر لآل ياسر. وقد فعلت[١].

وعن عبد الله بن جعفر – رضي الله عنهما – قال: (مر رسول الله ﷺ بياسر وعمار وأم عمار، وهم يؤذون في الله تعالى، فقال لهم: صبراً يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة وزاد بعض الرواة. عبد الله بن ياسر ممن كانوا يعذبون، وقال راو آخر، وطعن أبو جهل سمية في قلبها فماتت ومات ياسر في العذاب، ورمى عبد الله فسقط) [٢].

ويأتي رسول الله ﷺ:

هذه صورة من بعض المراجع عن انفعالية هؤلاء الأوائل بالإيمان. إن العذاب يشتد على آل ياسر. ويأتي رسول الله ﷺ، ويسأله ياسر: "آلدهر كله؟" أي هل سنعذب الدهر كله، فيرد عليه بأن يطلب منه مزيداً من الصبر على مزيد من العذاب، هذه

---

(١) ابن سعد. الطبقات الكبرى ج٣ ص١١٧ ط ، والنص منقول من مسند الإمام أحمد ج٢ ص٢ والإصابة ج٨ ص١٤٤.

(٢) الإصابة ج٣ ص٦٤٧.

الظروف القاسية العنيفة تضع إيمان ياسر وأسرته في كفة وعلى الكفة الأخرى من الميزان بقيع الموت متسربلا بالأحزان، أنه إيمان يوزن بالموت بعد مؤلمة من العذاب، فما الذي يدفع هؤلاء للأمام في طريق الإيمان؟ وما هو الشئ الذي يخفف عنهم آلامهم، ويقوي آمالهم؟ - وواقعياً لا أمل لهم في الحياة - ولكن طموحهم يتجه للآخرة. إن الذي يفعل بهم هذا من داخلهم هو انفعالية الإيمان، لأنهم ذوات منفعلة تنبعث حرارة الإيمان من داخلهم، فتسطع نوراً وقوة وتحملاً.

وتستطيع أن توحد هنا بين تحمل أبي بكر للعذاب وتحمل آل ياسر والجميع مشرق الوجه بنور الله تعالى والأمل فى عفوه وفى أريحية القبول.

٣- عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

وعلى نفس الطريق - طريق التجاوب والانفعال بالإيمان طريق الاشتعال بومضات الفرقان - سار سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، كان الأوائل لا يكتفون بالإيمان برسالة الإسلام، المتمثلة فى أركانه.

وفى محددات الإيمان بل كانوا يشعرون بما في رسالة الإسلام من "دعوية" محركة ومتحركة. كان هذا الشعور يتحول

لديهم إلى قوة دافعة، وهمة رافعة، كانوا يشعرون أن الدعوة إلى الإسلام هي فحوى رسالته، لأنها رسالة عالمية، لا تحقق هدفها بإيمان بعض القبائل، أو بعض البلاد، أو بعض القارات فى نهاية المطاف.

وتحول التبليغ عندهم إلى حلم، وأمل، وعمل، وتضحية، وفداء. وها هو عمر بن الخطاب يلقى بنفسه بين جحافل المشركين ويخبرهم أنه أسلم، وهو يعلم أنه بهذا يدمر أفئدتهم، ويسفه أحلامهم، ويبدد آمالهم. ويعلم أيضاً أنه سيضرب ويعذب من الكثرة المتربصة حول البيت الحرام. وينقل ابن إسحاق عن ابن عمر – رضي الله تعالى عنهما – لما أسلم عمر ﷺ. قال: وأي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له جميل بن معير الجمحي فغدا عليه، قال عبد الله وغدوت أتبع أثره وانظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت – حتى جاءه فقال له أعلمت يا جميل: إنى أسلمت ودخلت فى دين محمد ﷺ؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعته أنا، حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته. يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول الكعبة – ألا إن ابن الخطاب قد صبأ. قال يقول عمر من خلفه: كذب. ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله. وثاروا إليه فما برح يقاتلونه حتى قامت

الشمس على رؤوسهم. قال: وطلح – أي أعيا – فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدالكم، فأحلف بالله، أن لو قد كنا ثلثمائة رجل، لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا[1].

تحليل النص:

في النص السابق من الفاعليات الإيمانية، أو انفعالات الإيمان ما يلي:

١- قال: أي قريش أنقل للحديث؟

٢- يقول من خلفه: كذب.

٣- ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله.

٤- فما برح يقاتلون حتى قامت الشمس على رؤوسهم.

٥- وهو يقول افعلوا ما بدالكم.

٦- فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا.

---

(١) محمد يوسف الكاندهلوى. حياة الصحابة ج١ ص٢٦٥، ٢٦٦، ورواه ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق عن ابن عمر جـ ص٢٣٧ ط، المكتبة التوفيقية بمصر.

أي قريش أنقل للحديث:

إنه سؤال ينم عن كثير من الاستعداد للبذل والعطـــاء، لقــد كانت قريش هي رأس في جزيـــرة العـــرب، ومحاولـــة إعلامهـــا بالرسالة تمثل إيذائها بالحرب، ولكن حرارة الإيمان ما فتئت تـــدفع ابن الخطاب للبحث عن أقوى وسيلة لإعلامها، لقد كان جميل بـــن معمر الجمحي يمثل أقوى أجهزة الإعلام في قريش، ويســـتطيع أن يحيطها علماً بأي خبر في لحظات ومن يقرأ النص يدرك ذلك مـــن قول عبد الله بن عمر.

فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه – غير أن البحث هنا لا يعتمد في فعاليته على قوة نشر جميل للخبر، ولكنه يعتمد على قوة ما سيترتب على نشر هذا الخبر، بعد أن يقع على آذان قريش مثل الصاعقة فيجعلها مقسمة المشاعر بين ذهـــول المصـــعوق وجفـــو المطرود.

يقول من خلفه: كذب: استخدم سيدنا عمر بـــن الخطـــاب، جميل بن معمر لإعلام المشركين بإسلام عمر، ولكنه إعلامها أنـــه صبأ، فكان يقول من خلفه كذب، لأنه يريـــد أن تصـــل الرســـالة الإعلامية كما أرادها قوية صادقة واضحة.

ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله: هذه هى الرسالة الصادقة التى أرداها الله أن تصل إلى قريش وكان يعلم أنها ستفجر ثورة في النفوس الموحشة بالكفر، المتوحشة للقتل.

فما برح يقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم: هذه هى النتيجة التى توقعها وانتظرها ليجعل منها عنواناً على صدق إيمانه، وفاعلية إسلامه. أنه ذاهب إلى هذا العذاب برؤية واضحة وعـــزم صادق، وكأن عذابه دليل صدق الرسالة التي أرادها أن تصل. فهي رسالة مدموغة بدمه، ومصدق عليها بعنانه.

وللذين يعملون في حقل الدعوة فائدة من هـــذه الحادثـــة: أن الحديث عن روحانيات الإسلام وإشعاعات الإيمان من غير دليـــل من الصدق والزهد، حديث مردود على قائله، ومحمول على كاهل الدعوة تنوء به أزماناً لا يقدرها ذلك الدعى المدعى. ولكن عمر بن الخطاب أراد أن يبلغ الرسالة، ويبلغ فـــي ذات الوقـــت الخلفيـــات الإيمانية لهذه الرسالة، وكان له ما أراد، وتحقق له تمنى.

وهو يقول: افعلوا ما بدالكم.

لقد وصل معهم إلى نهاية التحدي وبين لهم أن الحياة نفسها لا تساوي شيئاً بجانب الإيمان وأبرز البرهنة عليه بدلائل اليقين.

فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلثمائة رجل لقد تركناهـــا لكـــم أو تركتموها لنا. إنه هنا يستكنه المستقبل ويستكشفه، ليعلمهم بمصـــير الصراع بين الكفر والإيمان بعد أن نقل إليهم الإعلام بالرسالة عن طريق جميل بن معمر. والنظر للمستقبل بهذا الاستكشاف اليقينـــي، واليقيني المستكشف يعد لازمة من لوازم الإيمان، وخصلة مبدئيـــة للأوائل. فالإيمان بطبيعته تسليم لغيب غير مقدور علـــى رؤيتـــه، ورؤيته غيب والاستعداد للتعامل معه، قبل أن يأتى بكثير. فـــالأول غيب الآخرة، والثانى غيب الدنيا الذي يعتبر مرئياً عند الأفذاذ من البشر، وكان من أجل صحابة رسول الله ﷺ من هؤلاء:

٤- عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه

عن محمد بن إبراهيم التميمي قال: (لما أسلم عثمـــان بـــن عفان ﷺ أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطـــاً، وقال:أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين. فقال عثمان: والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه. فلما رأى الحكم صلابته فى دينه تركه) [١].

هذا هو ذو النورين عثمان بن عفان ﷺ يربط، ويوثق ربطه عمه الحكم، ومع ذلك لا تلين له قناة. إنها فاعليـــة الإيمـــان التـــى استشعرها الحكم ففك وثاقه، ولعل وثاق الحكم هذا كـــان لمقاومـــة الجاهلية، ولكنه كان رمزاً لضعفها في مواجهة الإيمان.

---

(١) ابن سعد: الطبقات ج٣ ص٣٧.

الجانب الثاني: التضحية بالنفس والنفيس

١- صهيب بن سنان رضي الله تعالى عنه:

من بدايات التاريخ الإنساني، والمال يلعب دوراً كبيراً في حياة الإنسان حتى غدا شقيق الروح وسامقة الآمال. وتحدث عنه العزيز الحكيم في القرآن الكريم حديثاً يبين خطره ويظهر أمره، فقال تعالى: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً) (١).

وقال تعالى: (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢).

في هاتين الآيتين يبدو المال قسيم الولد في العاطفة الإنسانية.

ولقد تعرض صهيب بن سنان ﷺ لموقف غريب عند هجرته من غير ماله، أو يبقى فى مكة مع ماله.

وقسوة هذا الموقف أن المال لم يجعل في مواجهة الإيمان، وإلا لكان صهيب قد اختار الإيمان من غير تردد، ولكنه جعل فى مواجهة رسول الله ﷺ فى المدينة. وهذا أمر لم يدرك على الفور

---

(١) من سورة الكهف الآية / ٤٦.

(٢) من سورة التغابن الآية / ١٥.

فإنه يدرك بعد حين، ولكن صهيباً بانفعاله بالإيمان رأى أن تأخره عن رسول الله ﷺ لا يجوز مهما كان الثمن.

والعبرة في هذا الموقف أن إيمان صهيب لو لم يكن حياً حاراً متدفقاً متجاوباً منفعلاً وفاعلاً في ذات الوقت، لاختار صهيب البقاء مع المال حتى تحين فرصة مناسبة لخروج من مكة ومن جو الشرك فيها. قبل الفتح العظيم.

وتُردد كتب التاريخ صدى هجرة صهيب بأريج يملأ عبقه مساحة كبيرة عرضها المكان وطولها الزمان كله، فيقول صهيب عن نفسه: (فخرجت ولحقني منهم ناس بعدما سرت، يريدون ليردوني فقلت لهم إن أعطيتكم أواقي من ذهب أتخلون سبيلي وتوفون لي، ففعلوا فتبعتهم إلى مكة فقلت احفروا تحت أسكفة الباب[1] فإنه بها أواقي، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحليتين، وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ بقباء قبل أن يتحول منها. فلما رآني قال: يا أبا يحيى ربح البيع، فقلت يا رسول الله ما سبقني إليك أحد، وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام) [2].

---

(١) الخشبة التي تحت الباب. المعجم الوسيط ج١.

(٢) الإمام ابن كثير، البداية والنهاية ج٣ ص١٧٣، وأبو نعيم في الحلية ج١ ص٥٢، وابن سعد في الطبقات ج١ ص١٦٢.

هذه الرواية تظهر أن صهيبًا افتدى فاعليته بالمال من أول لحظة من غير مقاومة، غير أن ابن سعد فى طبقاته يورد نصاً آخر يوضح أن ذلك تم بعد مقاومة فيقول فى ج١ ص١٦٣:

(إن صهيباً ﷺ أقبل مهاجراً نحو النبي ﷺ فتبعه نفر من قريش مشركون فنزل فانتشل[1] كنانته، فقال: قد علمتم يا معشر قريش أني أرماكم رجلاً بسهم، وأيم الله لا تصلون إلى حتى أرميكم بكل سهم فى كنانتى، ثم أضربكم بسيفى ما بقى فى يدى منه، ثم شأنكم بعد ذلك. وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة وتخلوا سبيلي.

قالوا: نعم. فتعاهدوا على ذلك، فدلهم. فأنزل الله على رسوله القرآن.

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ [2]

حتى فرغ من الآية، فلما رأى النبي ﷺ صهيبا قال: ربح البيع يا أبا يحيى وقرأ عليه القرآن) [3].

وهذه الرواية تظهر روح التحدي والمقاومة عند الأوائل.

---

(١) فانتشل كنانته. أخرج ما فيها. المعجم الوسيط ج٢.

(٢) من سورة البقرة الآية ٢٠٧.

(٣) جاء هذا النص أيضاً في كنز العمال في ج١ ص٢٣٧.

لقد جعل صهيب هجرته منتهى أمله وأوقف حياته وبقاءه في الحياة عليها، وهدد القرشيين بأنه سيقتل منهم ما استطاع كيف استطاع، ليخبرهم أنه لا مناص من الهجرة، وأفهمهم أنه بعد استنفاذ جهده ضدهم ربما قتلوه بعد أن يقتل منهم ما تصل إليه يده، ثم بعد ذلك عرض عليهم المال.

وقد أراد بذلك أن يدعوهم إلى الله تعالى بفاعليته وانفعاله بالإيمان. إنهم لم يؤمنوا على الفور وأمام صهيب، ولكنهم حين يرجعون إلى بيوتهم وأهلهم وحين يخلون بأنفسهم سيسألون أنفسهم هذا السؤال؟ ما الذي جعل صهيب يضحي بنفسه لو قبلنا القتال ويضحي بماله حين قبلنا المال؟ لا شك أنهم سيصلون إلى الإجابة من خلال صمود صهيب وعلوه عليهم بل على الدنيا جميعاً، وربما كانت هذه الأسئلة التي تبحث عن إجابات شافية ثم لا تفتأ أن تحصل عليها من خلال فاعليات الأوائل وانفعالهم بالإيمان، وربما كان هذا هو الذي عجل بانضمام الكثير من أعداء الإسلام إلى ركابه والانضواء تحت لوائه، إنها مواقف نبعت من الإيمان والانفعال به عند فريق ولكنها فجرت الإيمان في قلوب فريق آخر.

والنفس التي عرفت الفاعلية عند الأوائل والانفعالية بالإيمان لا تكاد تركن إلى فكرة أن صهيبا عرض المال على القوم في البداية وهذه النفس تجد راحة في غير ذلك من الأخبار التي تنسجم مع الخط النوراني لهذه الذوات المنفعلة.

وقد تحدث صهيب ﷺ عن هجرته فقال: (لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ، قالت لى قريش: يا صهيب، قدمت إلينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك، والله لا يكون ذلك أبداً، فقلت لهم أرايتم إن دفعت إليكم مالى تخلون عنى؟ قالوا: نعم فدفعت إليه مالي، فخلوا عنى فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال: ربح صهيب مرتين) (١).

هذا الخبر هو الذي ينسجم مع فاعلية صهيب ﷺ، لقد كانت عين المشركين دائماً على ماله، وعلى ثروته التي كونها من التجارة بينهم، والآن وقد جمع ثروته وهم بالذهاب إلى عدوهم في يثرب، فد أصبح للثروة بعد آخر، إنها ستتحول إلى حركة في يدي المسلمين ولذلك فرغبة القرشيين في ثروة صهيب مفهومة وعللها معلومة.

وقف صهيب يفكر كيف يضحي بثروته دفعة واحدة وبقرار منه، وليس بتنازلية، ولكن فاعليته دفعته إلى الاختيار الأقرب للذات المنفعلة بالإيمان، والتى لا تجد ما يعدله في الحياة، غير أن الرواية الأخيرة للخبر والتى يعرض فيها القرشيون على صهيب ترك ماله والذهاب إلى يثرب بدونه، وهذا الخبر إذا أضفنا إليه تهديده لهم

---

(١) الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج١ ص٢٤٧ ط، دار المعرفة، بيروت وأخرجه ابن سعد في طبقاته أيضاً في ج٣ ص١٦٢ ط، دار المعرفة بيروت.

بالقتل، وتحولهم عنه إلى ماله، وهذه المعلومات مجمعة هي التـــي تحدد الذات المنفعلة عند صهيب، ذات تشبعت بالبطولة، وارتـــوت بالإيثار.

٣- طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه

وفى غزوة أحد، حيث انكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ وأحاط به الأعداء من كل جانب. ورأى ذلـــك طلحـــة بـــن عبيـــد الله ﷺ، فتقدم حتى حال بين رسول الله ﷺ وبين المشركين وظـــل يضربهم بسيفه وهم يضربونه بسيوفهم، ويصيبهم ويصيبونه. ومع كثرة إصابتهم له لم يشعر بألم، ولم يستشعر الموت وفقدان الحياة.

ويقول سيدنا أبو بكر ﷺ (ذلك يوم لطلحة. كنت أول مـــن فاء يوم أحد، فرأيت رجلاً يقاتل فى سبيل الله دونـــه وأراه قـــال: حمية. قال: فقلت: كن طلحة حيث فاتنى ما فاتنى، فقلـــت: يكـــون رجل من قومي أحب إلي، وبيني وبين المشركين رجل لا أعرفـــه، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه، وهو يخطف المشي خطفـــاً لا أخطفه، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ﷺ، فأنتهينا إلـــى رســـول الله ﷺ، وقد كسرت رباعيته وشج في وجهـــه، وقـــد دخـــل فـــي وجنته[١] حلقان من حلق المغفرة[٢].

---

(١) وجنته: ما ارتفع من الخدين.

(٢) المغفرة: حلقات تحمي من يرقد بها.

قال رسول الله ﷺ: عليكما صاحبكما يريد طلحة، وقد نزف فلم نلتفت إلى قوله، وذهبت لأنزع ذلك من وجهه. فقال: أقسم عليك بحقي لما تتركني فتركته فكرة تناولها بيده فيؤذى رسول الله ﷺ، فأرم عليها بفيه[١].

فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثنيته مع الحلقة، وذهبت لأصنع فقال: أقسمت عليك بحقي لما تركتني، قال: ففعل مثلما فعل في المرة الأولى فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة ﷺ من أحسن الناس هتماً، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ، ثم أتينا طلحة فى بعض تلك الجفار - حفرة في الأرض - فإذا به بضع وسبعون طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت أصبعه، فأصلحنا من شأنه) [٢].

بضع وسبعون ضربة، بعدد شعب الإيمان على أصح الروايات، يا لها من مقابلة عجيبة ومفارقة غريبة، كل شعبة من الإيمان كان لها زكاة من الفاعلية عندهم، إنه إيمان فاعل وأفعال مؤمنة.

---

(١) أزم: عض بالفم كله. المعجم الوسيط ج١.

(٢) ابن كثير: البداية ج٤ ص٢٩، وأبو نعيم في الحلبة فصل المعرفة وعند ابن سعد الطبقات ج٣ ص٢٩٨، وابن عساكر في كنز العمال ج٥ ص٢٧٤ ، وأخرج مثله البخاري ومسلم.

يقول صاحب رجال حول الرسول عن هذا الخبر: (وأبصر "طلحة" جانب المعركة الذي يقف به رسول الله ﷺ فألفاه قد صار هدفاً لقوى الوثنية والشرك، فسارع نحـو الرسـول ... وراح ﷺ يجتاز طريقا ما أطوله على قصره ... طريقاً تعترض كل شبر منه عشرات السيوف المسعورة ... وعشرات من الرماح المجنونة؟

ورأى رسول الله ﷺ من بعيد يسـيل مـن وجنتـه الـدم، ويتحامل على نفسه. فجن جنونه، وقطع طريق الهول في قفـزة أو قفزتين. وأمام الرسول وجد ما يخشاه ... سيوف المشركين نحوه، وتحيط به تريد أن تناله بسوء. ووقف طلحـة كـالجيش اللجـب يضرب بسيفه الهتار يميناً وشمالاً ... ورأى دم الرسـول الكـريم ينزف، وآلامه تئن، فسانده وحمله بعيداً عن الحفرة التي زلت فيها قدمه.

كان يساند الرسول بيسراه وبصدره. متأخراً إلى مكان آمن، بينما يمينه – بارك الله يمينه – تضرب بالسيف وتقاتل المشركين. الذين أحاطوا بالرسول ﷺ وملأوا دائرة القتال مثل الجراد.

وفى جميع المشاهد والغزوات، كان طلحة ﷺ فى مقدمـة الصفوف، ويبتغي وجه الله تعالى، ويفتدي راية رسول الله ﷺ [(١)].

---

(١) خالد محمد خالد. رجال حول الرسول ص٣٧٦، ٣٧٧ ط، دار ثابت ١٩٩٠م.

وفي النص السابق تتضح فعاليات الإيمان وانفعالات الذاتية المنفعلة بالنسبة للصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله ﷺ. ويمكن ترجمة هذه الانفعالات الإيجابية إلى ما يلي:

أ- إقباله بعد إدبار الآخرين.

ب- حمله رسول الله ﷺ والدفاع عنه.

ج- تجاهله لآلامه المبرحة، وتلاشى نفسه في الدفاع عن رسول الله ﷺ.

بالنسبة لإقباله بعد إدبار الآخرين: فإن هذا يعد مدخلاً لذاتيته المنفعلة، فالإنسان يقبل ويقتحم وينسى الموت في اللحظات التي يشعر فيها بقرب النصر، أما وقد بدت علامات الهزيمة تشخص للعيان، فإن الإقبال هنا يكون لهدف آخر، وهذا الهدف يتجه ناحية العاطفة النفسية، تلك العاطفة الدينية التي ملكت على الأوائل أنفسهم وأفئدتهم ومشاعرهم. إنه يقبل والسيوف في تزاحمها الحاقد لا تترك موضعاً جديداً لسيف، أو رمح، إنه يقبل والموت أوضح لديه من الحياة، إنه خرج من ذاته وابتعد عنها، وأصبح لا يرى إلا ذات رسول الله ﷺ. فهي الجديرة بالحياة ومن أجلها يضحي بالحياة، والإنسان حين يصل إلى هذه الدرجة من الانفعال العاطفي، والعاطفة المنفعلة فإنه يكون قد تكونت لديه ذات الإيمان.

وحمل رسول الله ﷺ: والدفاع عنه كان جزءاً من هذا السلوك الإيجابي السلوك الذي يوحد النفوس ويجمع الذوات، لقد جعلته الذات المنفعلة يقوم بعملين كبيرين في لحظة واحدة، فهو ينقذ البطل العظيم من حفرة زلت قدمه فيها وفي ذات الوقت يدافع عنه ليكشف لدارس علم النفس الحديث عن تشعب السلوك الناشئ عن إرادة واحدة، ولكنها إرادة منفعلة وفاعلة في ذات الوقت.

وتجاهله لآلامه: هو القمة السامقة لهذه الذات المنفعلة، إن الإنسان يضعف أمام مكوناته كإنسان، ومن هذه المكونات الإحساس بالألم، بل هو أبرزها على الإطلاق، لقد كان كثير من الصحابة لديهم الاستعداد للدفاع عن رسول الله ﷺ، وتناسى آلامهم، أو ذوبان آلامهم في آلامه، وهذا لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، إن الإنسان يتألم من لا شئ وهو متقوقع في ذاته، بينما لا يشعر نفس هذا الإنسان بأي ألم مهما بلغت قسوته إذا قفز خارجاً من الذات أو خارجاً عنها. بضع وسبعون طعنة وهن يؤدي مهمته في الدفاع عن رسول الله ﷺ، هذه البطولة النادرة هي التي جعلت سيدنا أبا بكر رضي الله عنه، يقول عن يوم أحد إنه كان يوم كله لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

قدم في هذا البحث يعتبر نماذج يمكن السير على منوالها، أو السير في اتجاهها، إنها بداية دراسة لذاتيتهم المنفعلة، وليست استيعاباً لهذه الذاتية التي تفاعلت مع الإيمان، حتى أصبح التمييز بينهمـــا أمــراً عسيراً، وكما كان الإيمان عنواناً على الأوائل أصبح الأوائل بعـــد تفاعلهم بالإيمان عنواناً عليه وداعياً له وهذه هـــي ميـــزة القيـــادة والريادة للتابعين في كل مكان وعبر الزمان.

الفصل الثالث

ما تحتاجه الأمة الإسلامية

تعقيب أول:

إن من يطالع هذا البحث يتبادر إلى ذهنه سؤال:

ما لفائدة التي ستعود على الدعوة الإسلامية من دراسة ذاتية الأوائل المنفعلة ؟!

وقبل الإجابة يجب إعادة التذكير بأن الانفعال النفسي في هذه الدراسة لا يقصد منه الانفعال بمعناه العادي ولكن يقصد منه تفاعل النفس الإيجابي مع فكرة ما.

وعلى ضوء ما تقدم تكون فائدة الدراسة هي الوقوف على إيجابيات الإيمان، ووضع أطر وأسس السلوك الإيماني، وتمييزه عن غيره من أنواع السلوك ويمكن طرح هذه القضية على هيئة سؤال هكذا – ما هو القاسم المشترك بين الأوائل وبيننا؟

والإجابة: إله واحد، ونبي خاتم، وكتاب محكم، وسنة ما صح منها يهدي إلى الحق والخير والرشاد، وهذا عن القاسم المشترك الأعظم. أما حين نمعن النظر إلى تعامل الأوائل مع

حقائق الإيمان السابقة، وتعامل الخلف الذين خلفوا من بعدهم فإننـــا ندهش للفرق الكبير، فسيدنا أبو بكر ﷺ على سبيل المثـــال آمـــن برسول الله ﷺ من البداية، وصدقه حين كذبه الناس، وكان ثـــاني اثنين إذ هما في الغار، وأنفق جل مالـــه فـــي ســـبيل الله ســـبحانه وتعالى، وكان من العشرة المبشرين بالجنة، ومات رســـول الله ﷺ وهو عنه راض. جاء ذكره في القرآن الكريم طيباً، عنـــد بعـــض التفاسير، وتولى الخلافة فسير جيش أسامة، وقاتـــل أهـــل الـــردة، وجعل للإسلام صولة وشوكة، ولكن شعاره كان دائماً. (إني لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدماي هاتين في الجنة). هـــذا المعيـــار الإيماني حين تضعه على كثير من الذوات اللاحقـــة لا تجـــد لـــه انطباقاً، وإن انطبق من ناحية، فإنه يتعرى من عديد من المنـــاحي، ولزيادة الأمر وضوحاً نقول: رب رجل أجهد نفسه فـــي خصـــلة واحدة من خصال سيدنا أبي بكر ﷺ، فإنه يتجاهل باقي الخصـــال التي لا يقدر عليها، ولكنه يحير الباحث حين يراه قانعـــاً بخصـــلة واحدة غير مكتملة، ومع ذلك له يقين بأنه: من أهل الجنة لا محالة ويستشعر ﷺ في كل عمل يقوم به – خلال مرآته المعتمة – ولـــو كان في كثير مما يقوم به ظلم بين الناس، عنـــد هـــذا الحـــد مـــن المقارنة يتحتم على الباحثين في علوم الدعوة الإسلامية النظر بحذر

إلى سلوك المعاصرين من المسلمين، ومحاولة ردهم إلى التفاعل الإيجابى مع الإيمان وصرفهم عن الإيمان السلبي الذي ينبع من داخل النفس وينعكس عليها مرة أخرى، فلا ترى هذه النفس إلا ما أرادت أن تراه، ولا تبصر إلا ما صورته لنفسها في عالم الخيال.

وكثير من يرون أنه مع عدم الالتزام الشديد بشريعة الله تعالى والتغاضي عن كثير من محدداتها. يرون أنهم من الذين يرثون الفردوس، وهذه الرؤية في أحسن الظنون خيال وليست إيمان، وهذا يقودنا إلى التأكيد على أن الدعوة يجب أن تبدأ من القرآن الكريم والسنة الشريفة الصحيحة مرة أخرى، أي يجب أن ندخل الإيمان إلى الذات من خارجها من مصدره الصحيح من المبدأ، ولا نترك كل مدعو يضع لنفسه إيماناً سقيما إذا قيس بإيمان الأوائل تحول إلى هواء وهراء.

تعقيب ثان:

يجب النظر إلى تحمل الأوائل الشدائد والآلام في سبيل الدعوة الإسلامية على أنه تحمل هادف، وليس حبا في التعذيب واستعذاباً للآلام كما تنادي بذلك بعض النحل مثل البوذية، أو كما يمجد الألم عند المسيحيين.

إن تحمل الألم عند الأوائل كان لهدف رئيسي يتفـــرع عنـــه كثير من الأهداف: أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، أي أن تسود شريعة الله تعالى في أرض الله ســبحانه وتعالى، وهذا أظهر التفاعل الإيماني في سلوكهم.

إنهم علموا أن الإيمان ثورة لتغيير الحياة، إنها ثورة لنشـــر الحق والخير والجمال. والجمال هنا معناه إزالة كل قبـــيح يشـــوه وجهة الحياة، حتى تشرف الأرض بنور ربهـــا، بنـــور الرســـالة الخاتمة، الرسالة الكبيرة التي جاءت لإصلاح عالم كبير.

من أجل هذه المعاني الحية في ذاتها، والشاخصة فـــى ذات الأوائل كانت النظرة للدين مختلفة عما هى عليه الآن. فالمظـــاهرة الإيمانية غير إيجابية على الإطلاق، وليست هادفة. فما هو الهدف من وراء التشدد في تصنيف ما يحل من الطعام واللباس؟، بـــرغم عدم الالتزام بالحد الشرعي عند من يدعون السلفية، وما هو الهدف من تعظيم شعيرة الاعتكاف بين قـــوم يتســـولون طعـــامهم مـــن أعدائهم؟، وما هو الهدف من جعل من يترك بعض السنن كـــافراً؟، والعدو ينتقص أطراف الأمة الإسلامية من كل جانب وعلى الجانب الآخر نجد من يجعلون العبادة هدفاً وينقطعون لها وهم مـــن أمـــة رهبانيتها الجهاد. أتراهم بسنون شريعة جدية، أو يجدون رهبانيـــة ابتدعها قوم لم يحافظوا عليها؟ والذين يرحلون من بلـــد إلـــى بلـــد

لنصب الخيام في ذكرى موت بعض المسلمين أو ذكرى مولدهم ما هو الهدف من سعيهم هذا ..،؟

إنهم يقولون: إنهم يتقربون إلى الله تعالى بالتقرب إلى أوليائه. نعم قد يكون هذا سعياً محموداً ولكنه غير هادف على الإطلاق، فما الذي سيعود على الإسلام، وعلى الأمة الإسلامية في وضعها الراهن من هذا الهدف السبيل؟

إن الأمة الإسلامية تحتاج إلى أناس يبيعون أنفسهم وأموالهم لله تعالى ولنصرة دينه. لكي ينقذوها من عثرتها، ويقيموها من كبوتها.

إن الحاجة العملية تدعو إلى المبادرة للتخلق بأخلاق الأوائل حتى تقوم للإسلام قوة تشرفنا، وترضى الله عنا، والسير على دربهم هو الأمل المنقذ وهو الأمل الهادئ، وهو الأمل الوحيد.

الباب الثالث

الذاتية الغافلة

تمهيد

هذا هو البحث الثالث عن الذاتية الإنسانية، وهو يذور حول الذاتية الغافلة، وقد قدمت ذلك بتوفيق الله تعالى على صفحات هـذه المجلة الغراء بحثين: الأول عن الذاتية الفاعلة، والثاني: عن الذاتية المنفعلة، وهذا هو البحث الثالث عن الذاتية الغافلة. لأن الغفلة مـن المشكلات الكبرى التي تواجه الدعاة، حـين يتعرضـون لـدعوة الجماهير، والغفلة التي تسيطر على الساحة الإسلامية الآن نوعان، غفلة في الدنيا – أي عن واجب المسلمين في الدنيا – غفلـة عـن الخلافة ، وغفلة بالدنيا، وفي التعلق بالدنيا ومتاعها حتـى ينسـى المسلم حياته الأخروية، وعلى المسلمين واجبي العبادة والخلافـة، والغفلة عن واجب منهما تؤدي إلى الغفلة عن الآخر. ولكن الغفلـة حين تشتد على الإنسان وتملك عليه حواسه، تصبح مرضاً خاصـاً من الأمراض التي يجب أن تقاومها الدعوة، لأن دعوة الغافل مـن مر دراسة ذاتية سراب وهراء وإدعاء وارتزاق.

أما الدعوة التي يراد بهـا وجـه الله تعـالى فهـي دعـوة مستبصرة، تدرس الذات وتحد نوعها، قبل أن تدعوها إلى ربهـا، وإمامنا ومعلمنا هو رسول الله ﷺ. ويظهر ذلك في اختلاف أسلوبه ووسيلته في الدعوة من إنسان لآخر، وعلى هذا جـاءت دراسـة الذاتية الغافلة.

الفصل الأول
رصد القرآن الكريم للغفلة

أ- الغفلة في القرآن الكريم: دراسة موضوعة:

جاءت مادة "غفل" أو "الغفلة" في القرآن الكريم ٣٥ خمس وثلاثون[١] مرة، منها إحدى عشرة مرة لنفي الغفلة عن الحق – سبحانه وتعالى، وهي كما يلي:

١ – قوله تعالى: **(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)**

(سورة البقرة ٧٤)

وهذه الآية تعالج الغفلة عند المدعو بتشخيصها لحالة القلب الإنساني حين يتمادى في العناد والمعصية. فالمدعو يطلب الآية من الرسول كي يذعن للإيمان ولكن قلبه يزداد تحجراً بعد مشاهدة

(١) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس للألفاظ القرآن الكريم، ص٥٠٣ ط، دار الحديث ١٩٨٧م.

الدليل وشهادة الواقع، ويتحجر قلب الإنسان حتى يصبح أشد قسوة من الحجارة، ومن هنا لا يفيد الذات الغافلة الإذعان الظاهر للشريعة من تحجر القلب، وجاءت نهاية الآية الكريمة معبرة عن ذلك "**وما الله بغافل عما تعملون**" ولسوف نعود بإذن الله تعالى إلى هذه الآية عند التعرض لطبيعة الذات الغافلة.

٢- قوله تعالى: **(ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)**.(سورة البقرة ٨٥)

جاءت لفظة غافل في نهاية الآية، إلا أن موضوع الآية يبين موضوع أعراض الغفلة عند المدعو ويتجلى ذلك في قوله تعالى: "**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض**" أي أن الذات الغافلة تبحث عما يريحها في تكاليف الدين، وتترك ما يسبب لها حرجاً، وتغفل عن أنها ملزمة بجملة التكاليف، وهذا الأمر مشاهد الآن بكثرة حتى بين بعض المتدينين.

٣- قوله تعالى: **(أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)**.(سورة البقرة ١٤٠)

٤- قوله تعالى: "**ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله**" هذا التعبير الكريم يلقي ضوءاً باهراً يكشف المخبوء في ظلمات الذات الغافلة، حيث وصلت إلى حالة تتصور معها كتم الشهادة عن عالم الغيب والشهادة.

٥- قوله تعالى: " ... (وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) (سورة البقرة ١٤٤)

٦- قوله تعالى: "... **(وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)** (سورة البقرة ١٤٩)

٧- قوله تعالى **(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)** (سورة آل عمران ٩٩)

الحق سبحانه وتعالى ينفي الغفلة عن نفسه ويثبت أعراضها للمدعوين، ففي هذه الآية ترى عرض الذات الغافلة في قوله تعالى: "**تبغونها عوجاً وأنتم شهداء**" تظهر الآية الكريمة أن الغفلة لا تكون

بسبب الجهل فقط ولكن أحياناً ترتكز على العلم ولكنه علم الغافـــل في الأحوال.

٨- قول الله تعـــالى: (**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ**)(سورة الأنعام ١٣٢)

٩- قوله تعالى: (**وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**) (ســـورة هـــود ١٢٣)

١٠- قول الله تعالى: (**وَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**) (سورة النمل: ٩٣)

١١- قوله تعالى: (**وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ**)

(سورة إبراهيم ٤٢)

١٢- قول الله تعالى: (**وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ**) (سورة المؤمنون ١٧)

في الآيات السابقة عدة نتائج مهمة لسير البحث عن الذاتيـــة الغافلة، وسوف نعود إليها بإذن الله تعالى في ثنايـــا البحـــث إلا أن النتيجة الهامة للبحث هي نهاية الآيات التي ينفى فيها الحق سبحانه

وتعالى عن نفسه الغفلة، في ذات الوقت ينبه على أعراض الغفلة عند المدعو، ومن هنا جاء عجز الآية الكريمة مفتاحاً لفهم معناها، وهذا المفتاح هو ما يحتاجه كل دارس لتفسير القرآن الكريم، وهو ما يجتهد إليه البحث هذا البحث الذي نحن بصدده الآن.

موقف الذاتية البشرية الغافلة من العبادة والأعداء

سوف نستعرض فيما يلي مواضع ذكر الغفلة في القرآن الكريم، وهي المواضع التي ستحدد لنا في النهاية ماهية الذاتية الغافلة وكيفية علاجها، وجعها ذاتية منفعلة في عمومها، فاعلة في بعض من أفرادها. وسوف نذكرها بترتيبها في القرآن الكريم.

١- العبادة والخلافة:

قول الله تعالى:(**وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً**) (سورة النساء ١٠٢)

وفى هذه الآية الكريمة يتجلى التكامل العضوي بين مهمتـــي العبادة والخلافة، وأن محاولة الاهتمام بإحـــداهما علـــى حســـاب الأخرى إنما تأتى بالعاقبة البائسة الوخيمة.

فهذا هو النبى ﷺ، وأصحابه الكرام رضوان الله علـــيهم – خير القرون – يحذرهم الحق سبحانه وتعالى من الغفلة التى تـــأتى من تقديم واجب العبادة – بصلاة جميع الموجودين جماعة – علـــى واجب الخلافة بترك مجموعة للحراسة، لأن كسب أرض جديـــدة للإسلام لا يقل أهمية عن أداء الصلاة الخاشعة الطاهرة القانتة، وإن كان لا يقبل من غيرها، بل يخرج من خيرها، وياليت إخواننا الذين ينظرون إلى مهمة الإنسان في الأرض، ويرونهـــا العبـــادة فقـــط يراجعون مثل هذه الآية – وهو كثيـــر فـــي كتـــاب الله تعـــالى – ويرجعون عن مواقفهم السلبية في الحياة.

وبحسب منطق هؤلاء كان على النبي ﷺ والصحابة الكرام أن يصلوا جميعاً بخشوع، وكان على الله تعالى أن يحرسهم، ولكن الله تعالى بين لهم أن حراستهم واجبة عليهم هم حتى أثناء الصـــلاة الخاشعة، وأنه يوفقهم حين يؤدون واجب العبـــادة، والخلافـــة ولا يكتفون بأحدهم دون الآخر، كما يفعل المسلمون الآن تحت ظـــلال الهزائم العسكرية والنفسية، أما أيام النصر (فصلى رســـول الله ﷺ

بطائفة من القوم، وطائفة أخرى تحرسهم. فصلى بالذين يلونه ركعتين، ثم تأخر الذين يلونه على أعقابهم، فقاموا في مصاف أصحابهم، ثم جاء الآخرون فصلى بهم ركعتين، فيومئذ أنزل الله في قصر الصلاة تشريعاً وأمر المؤمنين بأخذ السلاح(١).

٢- الغفلة والأمر المفرط:

قوله تعالى: **(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)**(سورة الكهف ٢٨)

يحدد الحق سبحانه وتعالى أسباب الغفلة في صدر هذه الآية الكريمة، أنها في عدم الانضمام إلى قافلة المؤمنين، وفي التعلق بزينة الحياة الدنيا وطاعة أهل الغفلة الذين لا يثبتون على مبدأ في الحياة بل لا يعرفون الحياة بمبدأ، بل يعرفونها فرطاً، ولا ينبغي أن يظن الإنسان عندما يقرأ هذه الآية أن رسول الله ﷺ كان في نيته أن يفعل ذلك، والله تعالى منعه عن طريق هذا التحذير، بل الأقرب إلى القبول أن هذه الآية قد أظهرت صفات الفريقين - المتيقظ والغافل - عن طريق هذا الأسلوب البديع في التحذير أنه يحذر من لا يصدر منه هذا الفعل أبداً، وهذا التحذير بهذا الشكل يوقظ

---

(١) الإمام ابن كثير. تفسير القرآن العظيم، جـ١ ص٥٤٨ ط، دار المعرفة ١٩٦٩م.

إلى محاولة البحث عن الصفات الفارقة بين الطائفتين، ولعل أبــرز هذه الصفات عندهما – اليقظة التي تجعل الفريق الأول لا يغفل عن دعاء ربه – بمعنى عبادته وطاعته في أمور الــدنيا والآخــرة لأن هؤلاء هم الذين أعطونا المثل الأعلى في طاعة الله تعالى. والمثــل الأعلى أيضاً في عمارة الدنيا والســعي فــي مناكبهــا – بالغــداة والعشى، أي الليل والنهار، والغفلة عند الفريق الآخر الذي جعلتــه يتبع هواه، ويصبح مفرط الأمر مختل الاتجاه.

تعقيب:

لم يسند فعل الغفلة إلى الله تعالى – بمعنى أنه أغفل النــاس في القرآن الكريم كله إلا في هذه الآية، والحقيقة أن الله تعالى منزه عن فعل الغفلة للناس، لأنها تبعدهم عن ذكره، ولكن اســتمد فعــل الغافلة بهذا الشكل لأن لله تعالى أنواره يرسلها للقلوب المســتجيبة فتزداد نوراً وتعلقاً به، ويحجبها عن القلوب الغافلة التي لا تنظرها فتزداد غفلة ومن هنا قال تعالى: **(أغفلنا)** ويصـــح أن يقــال فــي المعنى: غفل عن خوف المقام، فزاده ذلك إلى الغفلة عن الذكر، أو أغفلناه عنه لأنه لا يستحق أنواره.

وهى فى جميع الأحوال نتيجة لتخاذل العيد في البداية وهذا يوضح خطر الغفلة، وضياع أمل الغافلين. "**أغفلنا قلبه**" من جعلنــا

قلبه غافلاً عن الذكر بالخذلان، أو وجدناه غافلاً عنه، كقوله أجبته، وأفحمته، وأبخلته، إذا وجدته كذلك، ... أو من أغفل إبله إذا تركها بغير سمة(١). "**أغفلنا قلبه**" فلو ذكروا الله لتركوا كبرياءهم وخففوا من غلوائهم ... فهم وأقوالهم سفه ضائع لا يستحق إلا الإغفال. جزاء ما غفلوا عن ذكر الله تعالى.

أغفلنا قلبه جين اتجه إلى ذاته، وإلى ماله، وإلى أبنائه، وإلى متاعه ولذائذه، وشهواته، فلم يعد في قلبه متسع لله تعالى، والقلب الذي يشتغل بهذه الشواغل ويجعلها غاية حياته، جرم يغفل عن ذكر الله تعالى، فيزيده الله تعالى غفلة، ويملى له فيما هو فيه، حتى تفلت الأيام من بين يديه ويلقى ما أعده الله تعالى لأمثاله الذين يظلمون أنفسهم ويظلمون غيرهم(٢).

وقبل أن نترك هذا التعقيب حول لفظة "**أغفلنا**" أحبذ هنا رأي المرحوم الأستاذ سيد قطب لأنه ربط أسباب الغفلة بمسبباتها، وجعلها من الله تعالى لكنها نتيجة لظلم العبد لنفسه ببعده عن ذكر الله وهو – أي الذكر – من أهم العوامل التي تمحو الغفلة عن قلب العبد وتجعله يقظاً راشداً، وهو ما ذهبنا إليه في شرح هذه الآية.

---

(١) الإمام الزمخشري تفسير الكشاف ج٢ ص٤٨٢ ط الحلبي ١٩٧٢م.

(٢) الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن ج٤ ص٣٢٦٧، ط، دار الشروق ١٩٨٧م.

٣- الغفلة عن الرسالات:

قـول الله تعـالى: (يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ. ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)

(سورة الأنعام ١٣٠، ١٣١)

في الآية الأخيرة تأتي كلمة غافلون بمعنى جاهلون – أي لم تبلغهم الدعوة، ولمعنى أن الله تعالى يقول: إنني لا أهلك القرى من غير أن أرسل إليهم الرسل بالآيات البينات ثم بعد ذلك يتم الهـلاك بسبب الغفلة عن هذه الآيات بعد العلم بها. وعلاقة هذه الآية بالغفلة علاقة عكسية بمعنى أنهم لم يوخذوا غافلين، بل شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين (أي إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه الدعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم، وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم) [١]. وعلى هذا يكون معنى الغفلة متناسباً تناسباً طردياً في الآية الأولى – أرسلنا الرسل والآيات وغفلتم عنها – وتناسباً عكسياً في الثانية – بعد غفلتكم عن الرسالات أخذناكم وأنتم تحملون مسئولية الرسالة

---

(١) الإمام ابن كثير. تفسير القرآن العظيم ج٢ ص١٧٧.

التي جاءت إليكم ولستم على فترة من الرسل. تجعلون الكتاب ولا الإيمان.

٤- الغفلة والتحول الوظيفي للحواس:

قوله تعالى: **(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ)**

(سورة الأعراف ١٧٩)

في الجزء الثاني من هذه الوحدة سوف يأتي شرح هذه الآية بالتفصيل إلا أننا سنلقي ضوءاً على الغفلة والتحول الوظيفي للحواس، فحواس الإنسان تختلف عن حواس الحيوان اختلاف تفضيل وخلافة، فحواس الحيوان تعينه على الحياة فقط وفق هدف محدود وأن يكون مسخراً لغيره.

أما حواس الإنسان فهي حواس لها وظيفتان:

الأولى: للحياة العادية التي يشترك فيها مع الحيوان.

الثانية: معاينة آلاء الله تعالى في كتاب الهداية (الكتب المنزلة) وفي كتاب الكون المفتوح، إن الإنسان مكلف بتتبع جلال الله تعالى في كونه، وجماله في تكوين هذا الكون الفسيح، وحين

تقف مهمة الحواس – بسبب الغفلة – عند الأمور الحياتيــة فقــط، وتعرض عن الجانب الأخرى الذي يغذي الروح وينمي الإيمــان، يكون قد حدث تغير كبير في وظيفة الحــواس البشــرية، وتحــول الإنسان بحواسه المبصرة إلى مرتبة الحيوان المنغلق بحواسه على كيانه.

بل انحدر إلى مرتبة أضل لأنه سيعيش حياة حيوانيــة لــم يؤهل لها أصلاً، فإذا كان الحيوان في محاولة دائمــة لاستشــراف جوانب الجلال والجمال فى الكون وتقف بعض حواسه أحياناً دون هذه الغاية، فكيف يساوى بإنسان ترك النظر فى كون هواله، وكون هو للنظر فيه، ولا شك أنه سيصبح حينئذ أضل من هذا الحيــوان لأن الغفلة طمست حواسه وغيرت وظائفها.

٥- الغفلة والتكذيب بــالآخرة والاطمئنــان إلــى الــدنيا والرضا بها:

قوله تعــالى: **(إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)** (سورة يونس ٧)

في هذه الآية الكثير من أعراض الغفلة:

الأول: ضعف الإيمان بالغيب خاصة البعث والآخرة بصــفة عامة، لأن الغافل يبدأ غفلته بتجاهل تكاليف الدين الإيمانية والعملية

والفرضية، ثم بعد ذلك تنسحب غفلته على اعتقاده فيصبح شعاره وما أظن الساعة قائمة وهذا الشعار يلازمه حتى موته.

الثاني: الرضا بالدنيا كبديل ملموس لمتاع الآخرة الغيبي البعيد ولو كشف لهم الغيب لعاينوا الحقيقة.

الثالث: الاطمئنان إلى الدنيا وإلى عدم تغيرها وتبدلها إلا أن هذا التغير من أخص صفات الدنيا وأكثر مكوناتها.

الرابع: النتيجة هي الغفلة عن آيات الله تعالى في الأنفس وفي الآفاق، وهذه الآية الكريمة تفتح باباً كبيراً في فهم محددات سلوك الغافل، وتوضيح بنائه النفسي الداخلي وهي أمور لم تتناول بالدراسات إلى عهد قريب، وعلى علماء الدين تقع مهمة إبراز هذه الدراسات النفسية الإيمانية لأن جل نشاط علماء النفس ينصب على محاولة فهم النفس البشرية من خلال دراسة سلوك الحيوان وهذا بعيد حدا عن الغاية، ضال في الوسيلة "**أن الذين لا يرجون لقاءنا**" لا يتوقعونه أصلاً ولا يخطر ببالهم لغفلتهم المذهلة بالذات وحب العاجل عن التفطن للحقائق، أو لا يأملون حسن لقائنا كما يأمله السعداء، أو لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف، وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي ... وسكنوا فيها سكون من لا يزعج منها، فبنوا شديداً وأملوا بعيداً) [(١)].

---

(١) الإمام الزمخشري، الكشاف ، ج٢ ص٢٢٦.

في السطور السابقة وضع المؤلف – رحمه الله تعالى – يده على خواص سلوك الغافلين في هذه الآية الكريمة.

٦- الغفلة حتى الموت:

قوله تعالى: **(قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)** (سورة يونس ٩٢)

توضح الآيات السابقة على هذه الآية كيف استمر فرعون في غفلته لا يرجو لقاء الله تعالى. مطمئناً إلى الدنيا راضياً بها حتى أدركه الغرق، فحاول التوبة ولكنها لم تقبل، وكتب الخروج لجسده فقط من الماء، وفي هذه الآية يعرض لنا الحق تعالى، هذه النهاية البائسة إلا إنه ينبهنا أن هذه الآية مع وضوحها إلا أن الغفلة ستصرف عنها كثيراً من الناس، وكم من حكام مسلمين زاروا المتحف المصري وشاهدوا بدن فرعون محنطاً تمر عليه السنون لا حول ولا طول وعاد هؤلاء الحكام إلى بلادهم وتسربلوا بغفلتهم وانقلبوا على شعوبهم فراعين جبارين.

٧- الغفلة والمؤامرة:

قوله تعالى: "**قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون**".(سورة يوسف ١٣)

يذهب معظم المفسرين إلى أن يعقوب عليه السلام لقن أولاده المعذرة التي يقتدون بها، وهي قوله: "**وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون**".

يقول الإمام ابن كثير: "فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم"[١].

يقول الإمام الزمخشري: "قال ذلك فلقتهم العلة"[٢].

يقول الأستاذ/ سيد قطب: "ولابد أنهم وجدوا فيها عذراً كانوا يبحثون عنه، أو كان الحقد الهائج أعماهم .. حتى لقنهم أبوهم هـذا الجواب"[٣].

يقول الإمام القرطبي: "وأخذوا ذلك من فيه فتحرموا به لأنه كان أظهر المخاوف عليه"[٤] وعلى هذا تكون الغفلـة هنـا علـى معناها الحقيقي إلا أنني لا أميل إلى رأي علمائنا الأجـلاء فـي أن يعقوب عليه السلام قد لقن أولاده المعذرة، بل ذهب إلى أنه عليـه السلام كان يسد عليهم طريق الغدر، ويفوت عليهم حجتهم لأنه كان يستشعر عن طريق الوحي أو الإلهام أنه سيحاولون الغدر بـأخيهم

---

(١) ابن كثير. ج٢ ص٤٧٠.

(٢) الكشاف. ج٢ ص٣٠٦.

(٣) في ظلال القرآن. ج٦ ص١٩٧٥.

(٤) الإمام القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج٩ ص١٤٨ ط، دار إحياء التراث ١٩٨٥م.

مما سيصل بيوسف عليه السلام إلى مهمته الكبيرة فى مصر وهى الدعوة إلى الله تعالى وإنقاذ البشرية من الموت جوعاً وهى لم تنزل في بداية الطريق. وهذه إلى حد كبير تشبه خروج آدم عليه السلام من الجنة لأنه خرج للخلافة التي خلق من أجلها وكان الخطأ معلماً من معالم طريقه وأولاده الطويل.

وتأسيساً على ما سبق تكون غافلون بمعنى متغافلون لأنـــه كان يعلم أن نية الغدر موجودة ولما قال لهم: "وإنـــي ليحزننـــي أن تذهبوا به" لم يكن ذلك شوقاً ولهفة كما ذهب سادتنا المفسرون ولكن كان هذا القول على الحقيقة لأن هذا الذهاب سيجلب لـــه الحـــزن: ولكنه لم يكن حزناً لفقد الإبن – كما ذهب العلماء أيضاً – ولكنـــه للفراق المختتم بالعودة والجمع بإذن الله سبحانه وتعالى حين صاح "**يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل**".

لقد كان ليعقوب كثير من الأحداث عـــن طريـــق الـــوحي، وأوحى الله تعالى إلى يوسف عليه السلام بكثير منهـــا وهـــو فـــي الجب، وهذا هو دأب الأنبياء في استكناه الغيب.

ويرد قول المفسرين السابق بما يلي:

١- رؤيا يوسف التي يسجد لـــه فيهـــا الأب والأم والأخـــوة، والإلقاء في الجب، بداية الطريق وليس نهايته.

٢- قول الله تعالى على لسان يعقوب: "**ويتم نعمته عليك**" ومن يقول بهذا لا يعقل منه أن يصدق أن الذئب سيأكل يوسف في غفلة من إخوته.

٣- قول الله تعالى "**بل سولت لكم أنفسكم امرأ**" فهو من البداية يعرف المؤامرة ويعرف أن تغافلهم جزء منها، لأنه يقول لهم إنكم تأخذونه لأمر آخر، ولكن لو تصادف وهجم عليه ذئب فإنكم ستتغافلون عنه حتى يقضي نحبه، لأن الخلاص منه هو هدفكم في كل الأحوال.

٤- قوله: "**يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه**" إذن فهو لم يصدق موضوع الذئب بعد قسم أبنائه على حدوثه، فكيف يتصوره قبل أن يحدث، ويتصور أن الغفلة تؤدي إليه، وسوف أكتفى بهذا القدر مع بقاء كثير من الأدلة في الكتاب العزيز.

٨- الغفلة والطبع على الحواس:

قوله تعالى: **(أولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ)** (سورة النحل ١٠٨)

هذه ذوات إنسانية استمرأت الغفلة ورانت على قلوبهم آثار المعاصي، فطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وهذه الآية توضح ما للغفلة من خطر على الغافلين، وعندما تطالع صدر الآية فإنك تتساءل ما نوع الذنوب التي جعلت هؤلاء يستحقون الطبع على القلوب والأسماع والأبصار، ويخبرك الحق سبحانه وتعالى أنها الغفلة، التي جعلتهم لا يستجيبون لداع يدعو بينهم إلى الطريق القويم.

٩- العلم الدنيوي لا يفيد في رفع الغفلة:

قوله تعالى: **(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)** (سورة الروم ٧)

البعد الزمني من الأبعاد التي لا يمكن إغفالها عند التعرض لتفسير القرآن الكريم، وهذه الآية من الآيات التي يلعب التعاقب الزمني في تفسيرها دوراً بارزاً: لقد اغترت بعض الأمم فيما سبق بما وصلت إليه من العلم الدنيوي. وظنت أنها لا تحتاج إلى توجيه السماء، وكان ذلك بسبب الغفلة التي فصلت بينهم وبين السؤال الخالد: من أين؟ وإلى أين؟

إنهم اغتروا بما عملوا من ظاهر الدنيا، وقد اعترف الحق سبحانه وتعالى لهم بهذا العلم الظاهري ولكنهم غفلوا عن الغاية من كل الوجود، واليوم ترى الغافلين وقد حصل بعضهم على أعلى الدرجات في العلم الدنيوي ولكنه لا يعلم شيئاً عن الطريق إلى الله تعالى، إنهم حددوا ورسموا الطرق في أعماق المحيطات والبحار، وحددوا طرقاً فوق الكواكب البعيدة عنا بملايين السنين الضوئية، ولكنهم فشلوا في قطع خطوة واحدة على طريق الحق سبحانه وتعالى.

وليس هذا هجوماً على العلم الدنيوي – بل هو من أول واجبات الخلاقة وهو علم يرضي الله سبحانه وتعالى: ويسخطه تركه – ولكن العلم الدنيوي الظاهري علم بالوجود من غير على للبداية ولا هدف للنهاية، وهو بهذه الصفة علم مبتور معثور.

لكن العلم الظاهري – علم الحياة – يفيد إذا ارتبط بعلة الحياة والوجود وهو الحق سبحانه وتعالى – عندئذ يصبح على المزارع والطبيب والصانع وكل عمل لظاهر الحياة تراتيل وترانيم قدسية **(أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)** (الواقعة ٦٣، ٦٤) في الآية الأولى "**تحرثون**" جهد بشري لابد منه لتطوير الحياة (ظاهراً من الحياة الدنيا)، وفي الآية الثانية "**نحن الزارعون**"

فيض إلهي لابد منه، إننا يجب أن نعيش الوجود معللاً، ولا نمر به غافلين و(أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشئونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها، ووجوه مكاسبها، وهم غافلون في أمور الدنيا وما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم غفل لا ذهن له ولا فكرة) [1].

١٠- الغفلة بسبب غياب الرسالة:

قوله تعالى: (لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ)

(سورة يس ٦)

إن الإنسان من غير رسالات السماء يعيش الحياة غافلاً عن وجود الكريم الذي أوجده، ولكنه يعذر لأنه ارتبط بالحياة حتى ضعفت فطرته، وأصبح لا يستطيع استكناه سر وجوده على الأرض إلا برسالات السماء والغفلة في هذه الآية بمعنى غياب الرسالة، لكن الغفلة في هذه الحالة ليست بريئة من كل ما ارتكب فيها بل حجر زوايته وسنام أمره، ومن يريد أن يدرس آثار الغفلة عن الدين فعليه أن يدرس أقرب جاهلية عاشها البشر قبل بعث النبي الخاتم.

---

(١) ابن كثير. تفسير القرآن العظيم ج٣ ص٤٢٧.

١١- الغفلة ودعاء من لا يستجيب:

قوله تعالى: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّـهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَـهُ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)

(سورة الأحقاف ٥)

ومن المصاعب التي تسببها الغفلة ما يعرف بانعكاس القصد، وهو محاولة الإنسان أن يقنع نفسه بشئ يضره، إن الدعاء سواء بقصد العبادة أو الطلب، لا يكون إلا لحي قادر سميع قريب في كل الأمور ومختلف الأحوال، وهذه الصفات لا تتحقق إلا لله.

ولكن البشر بسبب الغفلة عبدوا الملائكة، وعبدوا الأحجار، وتوجهوا إليهم بالدعاء، وهم لا يستجيبون لهم يوم القيامة، بل إن الآية الثانية تخبر أن هذا الدعاء من طرف واحد، يجلب غضب المدعو لا استجابته.

ولذلك فخسارة الغافل خسارتان، عدم الاستجابة وعداء المدعو، وخبر القرآن الكريم قاطع في عدم استجابة أي أحد من دون الله تعالى إلى يوم القيامة، ومع ذلك فالغفلة تجعل كثيراً من المسلمين عندما تنزل بهم شدة ما يتجهون بالدعاء إلى الصالحين من أمة الإسلام، وبرغم ما في ذلك من عاطفة ملموسة، إلا أنه يجب ترك الدعاء والطلب من غير الله سبحانه وتعالى. وإننا لا

نمنع زيارة قبور الصالحين والدعاء لهم بالمنزلة الكريمة جزاء ما قدموا لدينهم، ولأمتهم، إلا أننا ننبه أن الطلب منهم قد يجعل الطالب يخسر طلبه، ولا يكسب إلا عداوة هؤلاء الأخيار.

(ويجوز أن يريد كل من دون الله سبحانه وتعالى من الجن والإنس والأوثان فغلب غير الأوثان عليها) [١]، وإذا كان الدعاء بمعنى العبادة على رأي الإمام الزمخشري فتبقى معنا مشكلة الطلب من غير الله تعالى بالدعاء فهل يستجيب الصالحون والملائكة والجن والجماد لطلب العبد، لا أحد يقول بالاستجابة، أما مشكلة العداء بين الطالب والمطلوب فإنها واقعة في حالة العبادة مظنونة في حالة الدعاء بمعنى الطلب ومع ذلك فتوقير الحق سبحانه وتعالى يستوجب ترك دعاه غيره والطلب منه، ومن يفعل ذلك – أى دعاء الغير – يكون قد ولج إلى ظلمات الغفلة، وهوت به الريح في مكان سحيق.

١٢- القرآن الكريم يرفع الغفلة عن الكتب السابقة:

قوله تعالى: (أن تقولوا إنَّمَا أنزلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ) (سورة الأنعام ١٥٦)

---

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص٥١٦.

هذه الآية ترفع التعلل بالغفلة عن الكتب السابقة وهي من باب أولى ترفع الغفلة عن هذا الكتاب الكريم فلا حجة لأحد في مكة بعد البعثة الشريفة بالغفلة عن الدين وتكاليف الدين، ولا حجة لأحد الآن وبعد الآن أن يتعلل بالغفلة وعدم الإلمام بشريعة الإسلام.

١٣- الاستغراق في الغفلة والغرق في اليم:

قول الله تعالى: **(فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)** (سورة الأعراف ١٣٦)

أرسل الله لفرعون وقومه كثيراً من الآيات الدالة على صدق نبي الله تعالى موسى عليه السلام، وعلى قوة وقهر الحق سبحانه وتعالى، منها إدخال الحياة في العصا، إخراج اليد بيضاء من غير سوء – آيات مخيفة ملجئة – الطوفان – الجراد – القمل – الضفادع – الدم – ومع ذلك استكبر القوم واستغرقوا في الغفلة، فكان لابد من إغراقهم.

وإلى يومنا هذا ترى أناساً يتنكبون من حطام ويستغرقون في غفلتهم هذه فيغرقهم الله سبحانه وتعالى في بحور من الهم والغم والأمراض، ويضيق عليهم صدورهم فيغرقهم في لجة الحياة التي شغلوا بها واطمأنوا لها، لقد عالج فرعون وقومه لحظة غرق، ولكن كثيراً من الناس لا يخرجون من غرقهم إلا بالموت، قد يكون

هذا الغرق في الشهوات أو اللذات المباحة أو غير المباحة ولكنه غرق على كل حال، ولابد للغريق من يد قوية تخرجه من الماء، وسفينة تتجه به إلى الشاطئ الآمن، ويد الله تعالى توحيده وسفينته المنقذة شريعته، فهل تتجه إليها.

١٤- الغفلة والصرف عن الخير والرشاد:

قوله تعالى: (**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** (سورة الأعراف ١٤٦)

في الآية السابقة عدة أعراض للغفلة منها:

١- الصرف عن آيات الله تعالى.

٢- التكبر في الأرض بغير الحق.

٣- عدم الاستفادة من رؤية الآيات.

٤- عدم السير في طريق الرشد بعد اكتشافه.

٥- الاتجاه إلى الطريق الخطأ بعد اكتشافه مباشرة.

هذه الأعراض السابقة ترصدها الآية الكريمة كأعراض للغفلة، وهي تحتاج إلى دراسة متعمقة – ليس مجالها الآن – وقد أشرنا إليها – هنا – من بعيد.

ويفسر الإمام ابن كثير الصرف بقوله: (أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين من الناس بغير حق أي كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل) [١].

يجعل الإمام ابن كثير سبب الصرف هو التكبر، والحقيقة أنه الغفلة بدليل قوله تعالى: "**ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**" أي بسبب أنهم تغافلوا، فالكبر عرض للغفلة وليس مرضاً مستقلاً كما يرى الإمام الجليل ابن كثير.

١٥ – الفطرة تسقط عذر الغفلة:

قول الله تعالى: (**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**) (سورة الأعراف ١٧٢)

(١) تفسير ابن كثير، ج٢ ص٢٤٧.

يخبر الحق سبحانه وتعالى: (أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم، أن الله تعالى ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه) [١]، هـذه الآية مع تفسير الإمام ابن كثير لها توضح أن التوحيد مركوز في فطرة العبد – وكل مولود يولد على الفطرة [٢] – من البداية، وتبين أيضاً خطورة الغفلة، وكيف أن الله تعالى أغلق على الإنسان باب التعلل بها، ووضع في فطرته ما يجذبه إلى الطريق القويم، وفوت عليه فرصة الاحتجاج بالغفلة، للغفلة تأثير كبير على الإنسان، لأنها الجانب المريح بالنسبة له، فهو يصنع منها كهفاً يحتمي به من توقير الحق وتكاليف الشرع ولذلك فالفطرة شاهدة على الإنسان وليست شاهدة له.

١٦- مقاومة الغفلة:

قول الله تعالى: **(وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ)**

(سورة الأعراف ٢٠٥)

---

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٦١.

(٢) حديث: "ما من مولود لا يولد على الفطرة" .. الحديث أخرجه أحمد في صحيحه ج٣ ص٤٣٥ ط، المكتب الإسلامي بيروت بدون، وأخرجه البخاري بشرح فتح الباري ج٨ ص٥١٣ ط المطبعة السلفية بدون.

ينبه الحق سبحانه وتعالى نبيه ﷺ والتنبيه لأمته أصلاً إلى أن الغفلة تحتاج من الإنسان جهداً لمقاومتها وإزاحتها عن قلبه، فذكر الله تعالى في النفس يشمل مطلق الذكر في كل وقت، وخاصة في أول النهار وآخره، عند العودة للحياة من النوم، والذهاب له، ومنه ذكر الله تعالى في النفس بمعنى ذكر فضل الله تعالى على الإنسان، وعرض الإنسان نفسه على شريعة الله تعالى، ومنه تذكره سبحانه وتعالى وهو من أجل أنواع الذكر الذي يذهب الغفلة، لأن أشد أنواع الغفلة ضرراً أن يغفل الإنسان عن بارئه سبحانه وتعالى.

١٧- غفلة الخلق عن عبادة بعضهم البعض:

قوله تعالى:(فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ) (سورة يونس ٢٩)

هذا نوع من الصراع ينشأ بين طائفتين في عرضات القيامة طائفة تدعى أنها كانت تعبد طائفة من دون الله تعالى والطائفة المعبودة تستغيث بشهادة الحق سبحانه وتعالى، وتعلن أنها كانت غافلة عن هذا النوع من العبادة وهذا الضرب من التقديس، والحقيقة أن الغفلة قاسم مشترك بين الطائفتين، فهذه غفلت حتى أشركت وهذه غفلت عن إشراكها مع الله تعالى.

١٨- الغفلة والعلم:

قول الله تعالى: **(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)** (سورة يوسف ٣)

كان النبي ﷺ أمياً ومصدر علمه الوحي الإلهي، ولم يكن له مصدر غير ذلك – السابقة على الوحي – فترة عدم العلم – بالغفلة ويقول سبحانه: "**إن كنت من قبله – أي القرآن – لمن الغـافلين**" ويؤخذ من فحوى هذه الآية أن العلم والغفلة لا يجتمعان أبداً، إلا إذا كان العلم في ظاهر الدنيا، والغفلة عن الآخرة، في هذه الحالة يجتمع العلم والغفلة، وهذا الاجتماع دليل غفلة أيضاً، لأن المعلومات العلمية الحياتية التي تصرف الإنسان عن وجدانه الموحد (ألست بربكم) هذه المعلومات هي عوامل غفلة، وليس زداة علم، ومن هنا فإن العلم والغفلة لا يجتمعان.

والنتيجة: أن أي علم لا يؤدي إلى خشية الله تعالى وتوقيره لا يعتبر علماً بالمعنى الأصيل لهذه الكلمة، فهاروت وما روت كانا يعلمان الناس السحر، وهذا علم له قواعده وأصوله، ومع ذلك كانا يطلقان على علمهما: الفتنة "**نحن فتنة فلا تكفر**" وبعض المنتسبين إلى الدعوة يشعرون بسعادة طاغية حين يطلق الناس عليهم ألقاب مثل العالم الجليل صاحب الفضيلة ... إلخ.

ويكتفى بهذه الألقاب عن النظر في ماهية علمه، هل هو علم زاده خشية لله تعالى، وتفانياً في خدمة أمته ودينه، هل حدد موقع الله تعالى من نفسه أم ازداد بعلمه غروراً، وطفق يتعالى على خلق الله تعالى وهرع يجمع المال باللمز وبضرب المثل للناس في الكنز، فها يسمى علم هذا علماً؟ أم نطلق على هذا العلم علم الغفلة؟ أو غفلة العلم؟ ويرى الإمام الزمخشري أن الغفلة ضد العلم في الآية السابقة فيقول: (كنت من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عنه أي من الجاهلين به، ما كان لك فيه علم قط، ولا طرق سمعك طرف منه) [1].

وفي هذا النص يؤكد الإمام الزمخشري قاعدة مناهضة الغفلة للعلم، ومرادفتها للجهل، إلا أنه يجب التنبيه إلى أن علم النبي ﷺ ليس كعلمنا وجهله بالشئ ليس كجهلنا، ولكننا نبحث عن القاعدة من خلال العطاء القرآني الزاخر، لأن جهل النبي ﷺ بالشئ يدفعه للبحث عن العلم به، أما جهلنا فإنه يكون أحياناً بعد علم وطريقاً للمعصية أعاذنا الله تعالى منها، ومن كل غفلة تؤدي إليها.

١٩- الغفلة المحمودة (الغفلة عن المعصية):

قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (سورة النور ٢٣)

---

(١) الإمام الزمخشري، تفسير الكشاف. ج٢ ص٦٢ ط، دار المصحف بدون.

الغفلة بمعناها الحقيقي تجاهل الإنسان لأمر معين تجاهلاً يجعله لا يعلم عنه شيئاً في النهاية، فإذا ما تجاهل الإنسان الكريم المعصية أصبح لفرط تجاهله لها، لا يشعر بوجودها في المجتمع وعلى هذا جاء الوصف بالغفلة في هذه الآية الكريمة، وهذا الوصف بالغفلة في مقام الإطراء، ويكشف شيئاً كثيراً عن ماهية الغفلة، وأنها لفرط التباسها بالإنسان تجعله محموداً إن غفل عن المعصية مذموماً إن غفل عن الطاعة.

ويعرف الإمام الزمخشري "**الغافلات**" بقوله: (السليمات الصدور والنقيات القلوب اللاتي ليسن فيها دهاء ولا مكر، لأنهن لم يجربن الأمور، ولم يرزن[١] الأحوال، فلا يفطن لما تفطن له المجربات العرافات[٢].

٢٠- الغفلة والمصير:

قوله تعالى: (**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**) (سورة مريم ٣٩)

---

(١) يرزن: رزن بالمكان رزونا الشئ رزنا رفعه ليعرف وزنه. المعجم الوسيط ج١ ص٣٤٢ ط مجمع اللغة العربية. بدون تاريخ.

(٢) تفسير الكشاف ج٣ ص١٢ ط، دار المصحف. الكشافة ج٤ ص٩.

للإمام الزمخشري رأيان في لفظة الغفلة مع قضاء الأمر في هذه الآية:

الأول: إن الغفلة كانت في الدنيا وقضى الأمر وتحدد مصيرهم وهم لا يشعرون.

الثاني: أن قضاء الأمر تم في الآخرة وساق في ذلك حديثاً للنبي ﷺ أنه سئل عن قضاء الأمر فقال: "حين يذبح الكبش والفريقان ينظران والإمام ابن كثير استدل أيضاً بهذا الحديث على هذا النحو السابق فقال: (١) (عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا دخل أهل الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أبلج فيوقف بين الجنة والنار: فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت. قال: فيقال يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال فيؤمر به فيذبح قال: ويقال يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت" "ثم قرأ رسول الله ﷺ: "وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون)

---

(١) حديث إذا دخل أهل الجنة .. الحديث. الإمام أحمد في مسنده والإمام البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري ج٨ ص٤٢٨، ط المطبعة السلفية بدون، وفي صحيح مسلم رقم ٢٨٤٩ في الجنة وصفة نعيمها ج٤ ص٢١٨٨ ط الحلبي ١٩٥٥م.

وأشار بيده ثم قال: "أهل الدنيا في غفلة الدنيا" هكـــذا رواه الإمـــام أحمد وقد أخرجه البخاري ومسلم ولفظهما قريب من ذلك[١].

لا أدرى لماذا اتجه كثير من المفسرين إلى اعتبار أن قضاء الأمر تم بذبح الكبش لأن ذبح الكبش خاص بقضاء أمـــر المـــوت والحياة، أما قضاء الأمر في الآية فهو وصول الإنسان إلى درجـــة من المعصية تجعله مستحقاً لعذاب الله تعالى، وهذا يحدث وهو مـــا زال غافلاً سادراً في غيه، ويوضح ذلك إشارة رسول الله ﷺ بيده بعد الحديث وقوله: "أهل الدنيا في غفلة الدنيا" أي ساء مصـــيرهم "وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً" وعلى هذا أرى أن الغفلة فـــي الدنيا، وأن قضاء الأمر خاص بالغافل يتم في الدنيا، ويقصد هـــذا عجز الآية "وهم لا يؤمنون، لأنه لو كان قضاء الأمر في الآخـــرة فإن الجميع يؤمنون لا محالة ولكن لا ينفع الغافل إيمانه.

٢١- الغفلة والحساب:

قول الله تعالى: (**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ**) (سورة الأنبياء ١)

هذه الآية تنبيه آخر للبشر جميعاً، بأن الحساب آت لا محالة ومع ذلك فأهل الغفلة معرضون عن كل نصح أو تنبيه.

---

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص١٢٢ ط الحلبي.

٢٢- الغفلة والندم:

قوله تعــالى: (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) (سورة الأنبياء ٩٧)

في هذه الآية فوائد سيكولوجية – نفسية – لمعرفــة عمــق نفسية الغافل، فالغافل لا يفيق من غفلتــه إلا بــالقوارع العظيمــة، والنوازل الأليمة، أو جذبه بعنف يقطع عليه لذة الغفلة، وغفلة الملل الرتيب.

٢٣- غفلة المتيقظ:

قوله تعالى: (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ...".

(سورة القصص ١٥)

هذه الآية نوع جديد من الغفلة لم يرد قبل ذلك، وهو غفلــة الناس وذهولهم عن كل جديد أو غريب أو متغير يمر أمامهم، لقــد كان سكان المدينة موجودين فيها متيقظين حين دخلها نبي الله تعالى موسى عليه السلام، ولكنهم – لغفلتهم – لم يلتفتوا إليه، والتعبيــر القرآني الجميل يصور هذه الحالة الذاهلة الغافلة، (على حين غفلــة من أهلها) وكثير من الأحداث تقع بسبب عدم شعور الناس بشــئ غريب، قبل وقوع الحادثة، إن الإنسان يأخذه شغله بالــدنيا، يأخــذ

نفسه من نفسه حتى تراه مفتوح العينين، متيقظاً سميعاً، ولكنه لا يميز صوتاً هادياً، أو شخصاً قائماً.

٢٤- الغفلة والغطاء:

قوله تعالى: (**لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**)(سورة ق ٢٢)

هذه الآية تعطي كثيراً من أسرار الغفلة، ومن توفيق الحق سبحانه وتعالى أنها في نهاية هذه السلسلة الموضوعية عن الغفلة في القرآن الكريم، فالآية تذكر أن هناك غطاء على حواس الغافل، لا يرتفع إلا بعد زلزلة الساعة الشئ العظيم، فما هو هذا الغطاء الذي يحتاج في كشفه إلى القيامة، ولماذا لا يرى الإنسان الحقائق إلا إذا أصبح بصره حديد؟ وهل يستطيع الإنسان أن يحد بصره بنفسه، وأن يجعله كليلاً خاسئاً حسيراً؟

حول هذه الأسئلة يدور هذا البحث عن الذاتية الغافلة، ولكن قبل أن نستخلص النتائج نبدأ برأي بعض المفسرين الأجلاء لتوضيح معنى كلمتي "**غطاءك**" "**حديد**" (لقد جعل الغفلة كأنها غطاء، غطى به جسده كله، أو غشاوة غطى بها عينيه، فهو لا يبصر شيئاً، فإذا كان يوم القيامة تيقظ، وزالت الغفلة عنه، وغطاؤها،

فيبصر ما لم يبصره من الحق ورجع بصره الكليل عن الأبصار لغفلته حديداً لتيقظه[١].

يؤخذ من تفسير الإمام الزمخشري - رحمه الله تعالى - أن الغفلة تصنع غطاء حول صاحبها كأنه خيمة تجعله لا يسمع ولا يبصر الحقائق، ويعيش في غفلى حتى تكشف بفعل القيامة فيعود بصره الكليل حديداً. ويقول الإمام ابن كثير: (لقد كنت في غفلة من هذا يعني من هذا اليوم "فكشفنا عنك فبصرك اليوم حديد" أي ترى، لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة لكن لا ينفعهم ذلك[٢].

ونخلص من هذا بنتائج أهمها:

أولاً: أن الغفلة تصنع غطاء حول الإنسان، ويقوي هذا الغطاء من الغفلة.

ثانياً: أن الحواس لها مهام دنيوية وأخرى أخروية إلا أن هذه المهام الأخروية تتعطل بسبب الغفلة، وتعطل الحواس يعد أكبر أعراض الغفلة، وأهم معضد لها. ولذلك تضعف الاستجابة عند الغافلين.

---

(١) تفسير الكشاف ج٦ ص٢٧ ط ، دار المصحف.

(٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٢٥ ط الحلبي.

(ب) الغفلة ومسئولية الاستجابة

الموقف الأول: إهمال الغافل ملكاته الموهوبة له:

يقول الحق سبحانه وتعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)(١).

في هذه الآية يثبت الحق سبحانه وتعالى الحواس للذين يستحقون العذاب في الآخرة ولكنه يثبت تعطل هذه الحواس عن الإدراك بسبب غفلتها. والآية الكريمة تجعل الغفلة سبباً لتعطل الحواس عن الإدراك، وتجعل عدم الإدراك سبباً للغفلة، والغفلة تعني انفصال الذات عن الموقف الذي تغفله أو تراه أو تسمعه.

ولذلك يقول الإمام الرازي في تفسير الآية السابقة: (إن الإنسان إذا تأكدت نفرته عن الشئ، صارت تلك النفرة المتأكدة الراسخة مانعة له من فهم الكلام الدال على صحة الشئ، ومانعة عن إبصار محاسنه وفضائله، وهذه حالة وجدانية ضرورة يجدها كل عاقل من نفسه، ولهذا قالوا في المثل المشهور: حبك الشئ يعكس ويصم) (٢).

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٩.

(٢) تفسير الفخر الرازي. ج٨ ص٦٧ ط، دار الفكر ط ث ١٩٨٥م.

وهذه الفقرة من تفسير الرازي تصف خمول الذات بـالنفرة وهو وصف تترتب عليه المسئولية في الثواب والعقـاب، وليسـت المسئولية جبرية كما يرى في عموم تفسيره لهذه الآية[١]، إلا أنـه أجاد وصف هذه الحالة بأنها حالة وجدانيـة تمنـع الإنسـان مـن الفاعلية، أو الانفعالية مع ما يعقل أو يرى أو يسمع.

تفسير الكتاب:

يقول الإمام الزمخشري عن الذين تحدثن عنهم الآية السابقة: (هم المطبوع على قلوبهم، الذين علم الله أن لا لطف لهم، وجعلهـم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق، ولا ينظرون بأعينهم ما خلق الله نظر اعتبار، ولا يسمعون ما يتلى عليهم مـن آيـات الله سماع تفسير، كأنهم عدموا فهم القلوب، وإبصار العيون واسـتماع الآذان، وجعلهم لإغراقهم في الفكر، وشدة انخراطهم فيه، وأنـه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار مخلوقين للنار، دلالة على توغلهم في الموجبات وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار ومنه كتاب عمـر ﷺ إلى خالد بن الوليد، (بلغني أن أهل الشام اتخذوا لك دلوكـاً عجـن بخمر، وإني لأظنكم آل المغيرة ذرءا للنار).

( ) انظر ص٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧ من المصدر السابق.

ويقال لمن كان عريقاً في بعض الأمور: ما خلق إلا لكـذا، (أولئك كالأنعام) في عدم الفقه، والاعتبار والتبـور "**أولئـك هـم الغافلون**" الكاملون في الغلفة. وقيـل: الأنعـام تبصـر منافعهـا ومضارها فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معانـد فيقدم على النار[١].

ويتجه الإمام الزمخشري في تفسيره لهذه الآية إلى أن الآية الكريمة تحدد صفات الذين خلقوا للنار، ولا تحدد أعيـانهم، وهـو عكس ما ذهب إليه الإمام الرازي من أن الـذين خلقـوا للنـار لا تنفعهم طاعة، ولا تزيد في عقابهم معصية لأنهم هكذا خلقوا للنار، والحقيقة أن هذا الاتجاه في التأويل له خطر، وكان مـن الممكـن حمل معنى الآية على معنى قوله تعالى: وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُون [٢]. فقد خلقهم جميعاً للعبادة، ولكن بعضهم قـد اختـار المعصـية وسار في دربها، فكان من هؤلاء الذين لهم قلوب لا يفقهون بهـا، لهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها.

فإذا ما تجاوزنا هذا الصراع الفلسفي الذي فرضـته ثقافـة عصر الإمامين الجليلين وظهر في تفسيرهما للقرآن الكريم، فسيبقى

---

(١) الإمام الزمخشري، الكشاف ج٢ ص١٣١: ١٣٢، ط الحلبي ١٩٧٢م.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

لنا بعد ذلك رؤيتهما العميقة لأغوار النفس البشرية، وكيف أنها إذا خملت ورضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها أعرضت تماماً عن الآخرة، وأصبحت لا تقبل دليلاً عقلياً عليها، ولا تصدق الأعين والآذان إذا رأت أو سمعت شيئاً يدل على الآخرة.

تفسير الظلال:

يقول صاحب الظلال في تفسيره لهذه الآية: (فهم لم يفتحوا القلوب التي أعطوها ليفقهوا – ودلائل الإيمان والهدى حاضرة في الوجود وفي الرسالات تدركه القلوب المفتوحة والبصائر المكشوف – وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة. لقد عطلوا هذه الأجهزة التي وهبوها، ولم يستخدموها، لقد عاشوا لا يتدبرون) [1].

تكلم المؤلف الجليل كسابقيه عن التخيير والتسيير إلا أن هذا البحث يركز على غفلة الذات وخمولها، ولذلك تم نقل الجانب الخاص بالخمول والغفلة فقط.

---

(١) الأستاذ/ سيد قطب. في ظلال القرآن ج٣ ص١٤٠ ط دار الشروق ١٩٨٧م.

الموقف الثاني: تبلد الغافل في مواجهة الحدث:

في الموقف السابق تجلت الغفلة في ترك الإنسان لملكاته الموهوبة من غير استعمال صحيح، وفي هذا الموقف تتضح الغفلة من عدم فهم الإنسان للمعقول والمسموع والمشاهد أو في عدم الاستجابة لمعقولاته، ومشاهداته ومسموعاته، أي الخمول والتبلد في مواجهة الحدث، وهو ما يميز الذاتية الفاعلة، والمنفعلة، لأن الفاعلة تنشئ الحدث، والمنفعلة تستجيب له، ولكن الغافلة لا تتأثر به إطلاقاً، بل تمضي في الحياة بفطرة أصابها الضمور، وبفؤاد هواء، وبفكر هراء.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن القصور في الاستجابة: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ . وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ . إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ . وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ)**[١] وسوف نعرض لبعض أقوال السادة المفسرين حول هذه الآية.

---

(١) سورة الأنفال: ٢٠-٢٣.

في ظلال القرآن:

يقول صاحب الظلال: (يعود إليهم ليهتف بهم إلى طاعة الله ورسوله، ويحذرهم التولي عنه، والتشبه بأولئك الذين يسمعون آيات الله تعالى تتلى عليهم فكأنهم لم يسمعوها، أولئك الصم البكم، وإن كانت لهم آذان تسمع الأصوات، وألسنة تنطق بالكلمات، أولئك الذين هم شر الدواب التي تدب على هذه الأرض لأنهم لا يهتدون بما يسمعون ... إن التولي عن الرسول وأوامره ليبدو مستنكراً قبيحاً، لا يقدم عليه إنسان له قلب بتدبر، وعقل يتفكر، ومن هنا يجئ ذكر الدواب في موضعه المناسب ولفظ الدواب يشمل الناس فيما يشمل، فهم يدبون على الأرض.

ولكن استعماله يكثر في الدواب من الأنعام، فيلقى ظله بمجرد إطلاقه، ويخلع على الصم البكم الذين لا يعقلون صورة البهيمة في الحس والخيال، وأنهم لكذلك أنهم لدواب بهذا الظل، بل هم شر الدواب ... لأن العقل قد يدرك، ولكن القلب المطموس لا يستجيب فحتى لو أسمعهم سماع الفهم، لتولوا هم عن الاستجابة، والاستجابة هي السماع الصحيح، وكم من أناس تفهم عقولهم، لكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب) [١].

---

(١) الأستاذ/ سيد قطب. في ظلال القرآن ج٣ ص١٤٩٣، ١٤٩٤.

يركز المؤلف في الفقرة السابقة على خصائص الذاتية الغافلة – البهيمة – عدم الاستجابة – ترك السماع الصحيح – ويقول: (كم من أناس تفهم عقولهم ولكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب)، وهذا الفهم للنص يلقى ظلالاً على كثير من المسلمين المعاصرين وكيف أنهم مع بلوغهم الدرجات العلمية السابقة إلا أنهم لا يشعرون تجاه عقيدتهم وأمتهم بأي شعور ينبئ عن الاستجابة والفاعلية. بل تراهم منصرفين إلى غايات صنعوها في عقولهم، ونسجوها في خيالهم وعاشوها في خيالهم وصدق الحق تعالى: "**أولئك كالأنعام بل هم أضل**" إن جنة كثير من الناس لا توجد إلا في خيالهم وواقعهم من خلال غفلتهم – جهنم وبئس المصير، وقديماً قال المتنبي: وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم[1].

---

(١) ديوان المتنبي.

تفسير الكشاف:

يقول الإمام الزمخشرى: (ولا تقولوا عن رسول الله ﷺ ولا تخالفوه وأنتم تسمعون) تصدقون لأنكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا) أي ادعوا السماع (وهم لا يسمعون) لأنهم ليسوا بمصدقين، فكأنهم غير سامعين، والمعنى: إنكم تصدقون بالقرآن والنبوة. فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور كقسمة الغنائم وغيرها كان تصديقكم كلا تصديق، وأشبه سماعكم سماع من لا يؤمن، ثم (إن شر الدواب) شر من يدب على وجه الأرض، أة إن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه، جعلهم من جنس البهائم ثم جعلها شرها، (ولو علم الله فيهم) في هؤلاء الصم البكم (خيرا) أي انتفاعاً باللطف (لأسمعهم) اللطف بهم حتى يسمعوا سماع المصدقين، ثم قال (ولو أسمعهم لتولوا) عنه: يعني ولو لطف بهم لما نفع فيهم اللطف، ولذلك منعهم ألطافه، أو ولو لطف بهم فصدقوا لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا) [1].

أحسن الإمام الزمخشري حين ربط في النص السابق بين السماع النافع الفاعل وبين التصديق، فيقول: "لأنهم ليسوا بمصدقين،

---

(١) الإمام الزمخشري. تفسير الكشاف ج٢ ص١٥٠، ١٥١.

فكأنهم غير سامعين" فأدخل التصديق هنا كعنصر فعال في نقل السماع الديني إلى حركة موجبة فاعلة في الأداء، وبين أن الغفلة كما تعتمد على الخمول والبلادة فهي أيضاً ترتكز على عدم التصديق.

تفسير الرازي:

يقول صاحب التفسير: "أنه تعالى أمر بطاعة الله وبطاعة رسول الله، ثم قال: (ولا تولوا) لأن التوالى إنما يصبح في حق الرسول ε بأن يعرضوا عنه وعن قبول قوله، وعن معونته في الجهاد، ثم قال مؤكداً لذلك "**ولا تكونوا كالذين قالوا.سمعنا وهم لا يسمعون**" والمعنى أن الإنسان لا يمكن أن يقبل التكليف وأن يلتزمه إلا بعد أن يسمعه، فجعل السماع كناية عن القبول، ومنه قولهم سمع الله لمن حمده والمعنى ولا تكونوا كالذين يقولون بألسنتهم إنا قبلنا تكاليف الله تعالى، ثم إنهم بقلوبهم لا يقبلونها وهي صفة للمنافقين.

ثم قال تعالى "**إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون**" واختلفوا في الدواب فقيل شبههم بالدواب لجهلهم وعدولهم عن الانتفاع بما يقولون ويقال لهم. ولذلك وصفهم بالصم والبكم وبأنهم لا يعقلون، وقيل: بل هم من الدواب لأنه اسم لما دب على

الأرض ولم يذكره في معرض التشبيه، بل وصفهم بصفة تليق بهم على طريقة الذم[١].

في هذا النص إضافة إلى المعاني السابقة، لأنه جعل السماع كناية عن القبول وأظهر علة الرفض عند هؤلاء، وعـــدم الســـماع النافع، بأنها ترجع إلى عدم تكاليف الدين أصلاً، وهذا يلقى ضـــوءاً على قصور الذاتية الغافلة عن الاستجابة وربط ذلك بعدم القبول.

---

(١) تفسير الرازي ج٨ ص١٤٧، ١٤٩.

الفصل الثاني

دراسة الغفلة كمرض عضوي

الغفلة العقلية – التفاعلات البيولوجية:

يذكر القرآن الكريم كثيراً من الحقائق الأساسية عن النفس الإنسانية بكل أقسامها الفاعلة والمنفعلة والغافلة .. إلخ إلا أن كثيراً من مفسري القرآن الكريم ينظرون إلى هذه الحقائق نظرة أدبية فيفسرون الحديث عن النفس السوية بأنه من باب المدح والرضا، وينظرون للحديث عن النفس المريضة على أنه من باب الذم، وهم – رحمهم الله تعالى جميعاً – غير ملومين، لأن القرآن الكريم لا يكشف كل أسراره في زمن واحد، بل يتجدد عطاؤه مع كل زمن جديد، وإن كان يعطي في كل زمن ماض ما فيه الكفاية للهداية.

وفي حديثه عن النفس الغافلة التي لا تستجيب أعطى القرآن الكريم كثيراً من الحقائق العلمية الأساسية التي تجاوزت كل ما وصل إليه علم النفس وهيمنت عليه، وصححت ما وقع فيه من أخطاء.

فعلم النفس يؤكد أن الاستجابة درجة مـــن درجـــات رقـــي الحيوان، فكلما كانت الاستجابة قوية، كان هذا الحيوان المســـتجيب أرقى في نوعه، وكلما كانت الاستجابة ضعيفة أو رديئة كان ذلـــك دلالة على بدائية هذا الحيوان، وبلادة طبعه.

ويأتي القرآن الكريم فيصف الذين لا يستجيبون بأنهم أدنـــى منزلة من الحيوان في الوصف وأضل سبيلاً في الســـعي والـــنهج، وهو بذلك يضن بوصف الحيوانية على الإنسان الذي لا يســـتجيب ويجعلها منزلة لا يرقى إليها، ولا يعتمد، فالغفلة في القرآن الكـــريم ليست وصفاً نفسياً للإنسان في سلوكه ووجدانه، بـــل هـــي تفكـــك عضوي في بنيانه وكيانه: يقول الله تعالى عن الذين لا يســـتجيبون: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (١).

ويقول الله تبارك وتعالى عن الذين عطلوا حواســـهم عـــن الإدراك الصحيح فاستحقوا جهنم ساءت مستقراً ومقامـــاً: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (٢). فهؤلاء لهم عقول وأعين وآذان وهي من الناحية العلمية ليست معطلة عـــن الإدراك،

---

(١) سورة الأنعام: ٣٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٩.

ولكنها تجمدت عند الإدراكات البدائية التي لا تقوم الحيـــاة إلا بهـــا فهم قد عاشوا الحياة لمجرد أنها حياة، أو عاشوا "الحياة بالحياة" ولم ينطلقوا إلى الهدف من الحياة، إلـــى إدراك المجـــردات والغيبـــات ويربطون بين العلاقات وبين الأشياء المشاهدة، والأشياء المستفادة منها.

إنهم عاشوا الوجود كوجود موجود، ولم تتجه عقولهم إلـــى واهب هذا الوجود – الحق سبحانه وتعالى، ومثلهم في ذلك كمثـــل رجل اشترى سيارة وأدخلها إلى مكان معد في بيته، ووضع بداخلها الوقود، ثم حرك مفتاح الإدارة، فتحركت أجهزة هذه السيارة، ولكنه أبداً – لم ينطلق خارجاً لهدف ينشده، وكأنه أدرك أن مهمة السيارة محصورة في عمل أجهزتها فقط، وليست لوصول الإنسان بأهدافه العملية في الحياة، فالإنسان الذي لا يستجيب لربه يعيش حياته مـــن غير هدف، وينصرف عنها من غير أمل ولذلك يقول الله تعالى في هؤلاء: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ [(١)] إنهم يعقلون كثيراً من الأشياء ولكنها ليست الأشياء التي يريدها الله تعـــالى، الأشـــياء التي ترقي الذات، وترقي بها إلى درجات الخلافة الكاملة لله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة الأنفال: ٢٢.

الاستجابة العضوية وأجهزتها في كتب علم النفس:

من الأهمية بمكان الحديث عن الاستجابة وأجهزتها في الجسم الإنساني والعوامل التي تؤثر عليها، قبل الحديث عن الاستجابة من الناحية الروحية لأن الذات الجسدية هي وعاء الذات الروحية، وإذا طرأ على الذات الجسدية ما يمنعها من الوعي والإدراك ارتفع التكليف كما في حالة النوم والجنون وقبل التمييز بالنسبة للأطفال، رغم أن هدف التكاليف الرقي بالروح والحفاظ على الجسد لهذا الغرض أيضاً، وليس لمجرد الحفاظ، من غير نسبته لهدفه.

والحقائق العلمية عن الاستجابة وأجهزتها مثبوتة في كثير من كتب علم النفس، وكتب الأمراض العقلية، إلا أنني سوف أقوم بتلخيصها من عدد قليل من المراجع مع الحذف أو الإضافة إن اقتضى الأمر، وسوف أذكر هذه المراجع في نهاية هذا التلخيص.

سنرى في دراسة الجملة العصبية أن تعقدها يزداد من الحيوانات الدنيا إلى الحيوانات العليا، فتزداد تبعاً لذلك قدرة الإنسان على التفكير، وعلى العمليات النفسية الكبرى، كما سنرى أن الهرمونات التي تفرزها الغدد هي سبب الكثير من الأفاعيل النفسية، ويتقرر في أذهاننا أن الجسد والنفس كل موحد مظهره الشخصية

الفردية .. كما يتقرر في أذهاننا أنه لا مجال لدراسة النفس إلا بالتعرف على الجسد وأخذه بعين الاعتبار. كما نشير إلى أهمية الحواس المختلفة في الأفاعيل النفسية .. وقديماً قيل بحق: إن الحواس هي نوافذ العقل بواسطتها يتكون الإدراك، وعن طريقها يتصل الإنسان بالعالم الخارجي.

المؤثرات والاستجابات:

ليست الأفعال النفسية إلا الاستجابات العضوية للمؤثرات المختلفة ويرمز إلى هذا الوضع بالقوس (م – ع – س) وتعني (م) المؤثر و(ع) العضوية و (س) رد الفعل أو الاستجابة، في إمكاننا ونحن ندرس الأفاعيل النفسية أن نصب انتباهنا على المؤثرات أو الاستجابات لأنها تصدر عن العضوية. لذلك كان من الأهمية بمكان أن ندرس هذه العضوية، لنستطيع أن نتعرف على هذه الاستجابات، وهذه العضوية يجب أن تكون مستعدة، أي مزودة بعدة تمكنها من التقاط المؤثرات، وهذه العدة تسمى الحساسية، وهي تحدث عن طريق وجود حواس مزودة "بالجوابذ" وتسمى هذه الجوابذ بأعضاء الحس أي "الحواس" فهناك جزء من العين خاص، عمله التأثر بالمؤثر الضوئي لجعل عملية الإبصار ممكنة، وكذلك في باقي الحواس، وهذا الأثر ينتهي عند أعضاء تتلقاه وتكون رجعاً

(استجابة) له وهذه الأعضاء تسمى "بالنوابذ" ويصل عادة بين "الجوابذ" أعضاء الحس، وبين (النوابذ) أعضاء الحركة مركز ينقل هذا الأثر ويساعد على إيصاله من أعضاء الحس إلى أعضاء الحركة.

ويتم كل ذلك بفعل ذبذبات، أو اضطرابات (كهروكيميائية) وهي التي تسمى بالمسألة العصبية (التيار العصبي) وتنتقل من خلية إلى أخرى من الحواس إلى أعضاء الحركة، على شكل قفزات، أو انفجارات متتالية، تشبه الشرارات التي تحدث حين تتقابل أسلاك الكهرباء الموجبة، ويلاحظ أن المسألة العصبية حين تعبر أعضاء الحس وتصل إلى أعضاء الحركة تستجيب لها هذه الأعضاء، فتتقلص العضلات وتفرز الغدد ويزداد إفرازها أو يقل. والوظيفة الأساسية للجملة العصبية[١] هي نقل السيالة العصبية من أعضاء الإحساس إلى أعضاء الحركة والواقع أن الجملة العصبية تختلف من حيوان إلى آخر حتى تصل إلى ذروتها في الإنسان، وبصورة خاصة في القشرة الدماغية، التي يتوقف على ردود أفعالها معظم

---

(١) الجملة العصبية هي العلاقة بين الجوابذ والنوابذ، أي ين (الحس والحركة) أو الأدلية التي تنقل الأثر من الحس إلى الحركة. أو من العضل إلى الفهم ثم الحركة وهذه معطلة عند الذاتية الغافلة فهي تفهم لكنها لا تعقل الفهم أي لا يتحول إلى استجابة.

الأفاعيل النفسية الراقية والتفكيرية، منها بصورة خاصـــة، وعــن طريقها يمكن التفكير والتذكر والتخيل.

الجملة العصبية:

الجملة العصبية آلة مختصة بالنقل، فهي تنقل الأثـــر مـــن الجوابذ (أعضاء الحس) إلى النوابذ (أعضاء الحركة) ففي الأميـــة ينقل الجسد (بكامله) هذا الأثر، وفي الحيوانات الأكثر رقياً، توجـــد عضلات تتقلص حين يقع عليها المؤثر، وفي الحيوانات التي تليهـــا في الرقي توجد بعض الألياف العصبية التي تصل بين العضـــلات الواقعة تحت السطح الظاهر، والجوابذ الموجودة في الجلـــد، ففـــي حيوان شقائق نعمان البحر، تكون الجملة العصبية عبارة عن ليـــف عصبي يحمل الأثر من الجوابذ إلى العضلة مباشرة، فإذا ذهبنا إلى حيوان أرقى نجد أن الأثر ينتقل من عضو الحس إلى العضلة عـــن طريق شبكة من الألياف العصبية.

الخلية العصبية:

تتكون الألياف العصبية من الخلايا العصبية التي تســـتطيع كل منها أن تعمل منفردة وتعطي أثراً متميزاً لمؤثر معين يقع على جزء معين من الجسد وهذا ما يحدث في حالة تعرض أصبح لشئ محرق، وسحب اليد نتيجة لذلك، والخلية العصبية عبارة عن جسم

خلية واستطالات من الطرفين. وتجتمع هذه الخلايا فتكون ما يسمى باللیف العصبي، ثم تجتمع الألياف العصبية فتكون ما يسمى بالعصب.

والخلايا العصبية ثلاث أنواع:

١- حسية تنقل الأثر من أعضاء الحواس إلى الحبل الشوكي والدماغ.

٢- وحركية تنقل الأثر من الحبل الشوكي أو الدماغ إلى أعضاء الحركة.

٣- وموصلة أو مركزية موجودة في الدماغ أو الحبل الشوكي وتقوم بالوصول والربط بين أعضاء الحس وأعضاء الحركة.

إن الألياف العصبية في تجمعها وتكوينها للأعصاب تكون مغلقة بمادة شحمية، تفصل بينها ويكون لونها أبيض أو يميل إلى البياض والتيارات المختلفة التي تمر في الليف العصبي لها نفس الشدة مهما اختلفت طبيعة التيار أو شدة المؤثر.

وعندما يستجيب الليف العصبي فإما أن يستجيب استجابة كاملة أو لا يستجيب تماماً ويسمى هذا المبدأ (كل شئ أو لا شئ)

وصدق الحق تعالى: "**لهم قلوب لا يعقلون بهــا ولهــم أعــين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها**" وبعد أن تستجيب الخليــة العصبية للمؤثر يبقى هناك وقت لا يمكن خلاله إثارة الخلية بمؤثر آخر يسمى بوقت التمرد المطلق، وأقل مدة له هي جزء من الثانية.

وحين يثار الليف العصبي فإنه يصبح أشــد قبــولاً للنفــوذ فيسمح للشوارد الإيجابية بالمرور والاتحاد مع الشوارد السلبية فيمر التيار الكهربائي السالب في الليف، وهذا التيار هــو مــا يســمى بالسيالة العصبية أو التيار العصبي وتكون سرعة انتقالــه مختلفــة باختلاف حجم الألياف، وتبلغ هذه السرعة في المتوسط أربعة أميال في الدقيقة الواحدة وبعد مرور التيار في منطقة معينة بمدة قصيرة، تعود حالة الشوارد إلى ما كانت عليه مستعدة لمرور تيار آخر.

الوصلة:

والوصلة هي المنطقة الموجودة بين طرفي خليــة عصــبية وخليــة عصــبية أخــرى، لــذلك فالســيالة العصــبية (التيــار الكهروكيميائي) تتباطأ حين تمر بالوصلة، لأن التيار يجب أن يقفز عبر الوصلة لكي يصل إلى الخلية العصبية الثانية.

وللوصلة وظيفتان هما: التسهيل والمنع، والتسهيل نوعــان تسهيل مكاني: يحدث حين ترد الدفعات العصبية على ليف عصبي

وتكون شدتها غير كافية لعبور الوصلة، وتبقى عاجزة عن العبـــور إلى أن تصل دفعات أقوى وأكثر[١].

ويحدث التسهيل الزماني: حين تكون الدفعـــة بحـــد ذاتهـــا أضعف من أن تستطيع عبور الوصلة، ولكنها بتواليها مرات عديدة تستطيع عبور الوصلة[٢]. ومن فوائد الصلة المنع العصبي، أي من الاستجابة لمؤثر آخر طالما بقى المؤثر الأول، وقد قـــام العلمـــاء بعمل تجارب لذلك على الضفادع فوجدوا أن الضفدع حين تجـــرح رجله يقفز، أما حين يكون مشغولاً بالفعل الجنسي فإنـــه لا يقفـــز، فكأن العمل الجنسي منع الضفدع من الاستجابة[٣].

الأعصاب:

وهي مجموعة من الألياف يشبه كل منها السلك الكهربائي، وما المادة البيضاء الدهنية التي تغطي كثيراً من الألياف في الجملة العصبية إلا عوازل للفصل بين الليف والآخر.

---

(١) يمكن التنظير هنا للذاتية الغافلة: أن استجابتها تظل ضعيفة إلى أن يرد إليهـــا مـــؤثر قوي فيدفعها دفعاً للاستجابة.

(٢) تكرار الموعظة للذاتية الغافلة (فذكر إنما أنت مذكر).

(٣) وكذلك الإنسان لو تخيل العذاب وألقى السمع وهو شهيد رجع إلى غيه أما إذا ســـمع الموعظة وهو غافل القلب مشغول بالدنيا لم يتأثر بها.

والعصب البصري عند الإنسان والذي يحمل الآثار الضوئية من الشبكية إلى الدماغ سلك مؤلف من ٤٠٠ ألف ليف منفصل بعضها عن بعض إلا أنه من أكبر الأعصاب في الإنسان، أما الأعصاب الباقية فهي مكونة من عدد كبير من الألياف، وكلما كان المؤثر شديداً على أداة الحس، استجاب لذلك عدد أكبر من الألياف العصبية.

أقسام الجملة العصبية:

تنقسم الجملة العصبية عند الإنسان إلى قسمين رئيسيين هما الجملة العصبية المركزية، والجملة العصبية المحيطة، وتنقسم المركزية إلى:

١- **الدماغ:** وهو مؤلف من المخ والمخيخ وجزع الدماغ المؤلف بدوره من الدماغ المتوسط والبصلة السيسائية. أو النخاع المستطيل.

٢- **الحبل الشوكي:** أما الجملة العصبية المحيطة فتتألف من الأعصاب المخية الشوكية. ثم الجملة العصبية المستقلة (الودية والباراودية).

توضيح الجملة العصبية

(أ) المخ:

في كثير من الحيوانات التي تنحصر بين الأسماك والطيور يحتل المخ جزءاً صغيراً من الدماغ وتنحصر أهم وظائفه في حاسة الشم. إلا أن الشم وما ينتج عنه من بناء نسيجي يتضاءل كلما تقدمنا في سلم "التطور"[١] الرقي ففي الدماغ البشـري يكـون الفصـان الشميان مطمورين (مندرجين) تحت المخ الذي يفوقهما في الحجـم كثيراً كما أن النسيج الشمي المساعد يكون صغيراً، ومع زيادة حجم المخ تحدث تغيرات كبيرة في سـطحه، فسـطح دمـاغ الفئـران والأرانب مستو ناعم، وفي القطط والكلاب يبدأ التجمد في القشـرة الدماغية **ويمكن القول أنه كلما ازداد رقي الإنسـان ازداد تجمـد قشرة دماغه، وتعتبر القشرة الدماغية هي أهم جزء من أجـزاء المخ.**

(ب) المخيخ:

معظم وظائف المخيخ غير معروفة للعلماء حتى الآن، إلا أنه يرتبط بالمهارات التي تحتاج إلى تناسق عدد كبير من العضلات كالسباحة والمشي والكلام والكتابة.

---

(١) يتأثر كثير من علماء العرب بعلم النفس الغربي ولذلك تظهر فـي كتابـاتهم نظريـة النشوء والارتقاء لداروين. انظر النشوء لداروين ظ دار.

وتبدأ فاعلية المخيخ من دفعات عصبية تأتي عن طريق الجوابذ الحركية والسكونية، ويحافظ المخيخ على توازن الإنسان أثناء السير والنوم[١] على السواء. والمخيخ بيضاوي الشكل وهو أصغر من المخ، وموقعه أسفل الجمجمة، ويتصل بالمخ من أسفل، **وإزالة المخيخ لا تؤثر على الوظائف الأساسية للإنسان ولكن تسبب فقدان التوازن.**

(ج) جزع الدماغ:

يحتوي جزع الدماغ على مراكز عصبية متعددة كثيرة التعقيد، تشبه آليات اللوحة الكهربائية، وتعمل هذه المراكز على التفرق بين الإحساسات الواردة وتوزعها إلى مراكزها المختصة. **والوظيفة الأساسية لجزع الدماغ هي الاهتمام بأنواع السلوك اللاشعوري الروتيني** وهو يتكون من البصيلة السيسائية، والحدبة الحقلية، والدماغ المتوسط والتلاموس، والهيبوتلاموس، والجسم المخطط.

(د) القشرة الدماغية البشرية:

تتصل القشرة الدماغية بجزع الدماغ والحبل الشوكي بواسطة ألياف عصبية حسية وحركية، ومما يجدر ذكره أننا نجد نوعين من النباتات في القشرة الدماغية:

---

(١) يحافظ المخيخ على توازن الإنسان أثناء النوم فلا يسقط من فوق سريره رغم أنه ينقلب كثيراً.

النوع الأول: فراجين نهائية للمحاوير تأتي مـن التلامـوس وغيره من مراكز جزع الدماغ وتنتهي في القشرة الدماغية، وهـي تحمل تيارات عصبية حسية إلى المراكز العصبية الحسية المختصة على القشرة الدماغية.

النوع الثاني: استطالات أو فروع خلايا عصبية صادرة عن المناطق الحركية للقشرة الدماغية، ومنتهية في المراكز الدنيا وفـي النوابذ، وبعض الألياف الهابطة تذهب إلى التلاموس، ومن هنـاك إلى المجسم المخطط والمراكز الأخرى. وهناك ألياف غير الألياف السابقة تسير مباشرة من القشرة الدماغية إلى الحبل الشوكي.

ويمكن تعيين منـاطق حسـية علـى الفصـوص، تتلقـى الإحساسات الواردة من أجزاء الجسد بواسطة الأعصاب الحسـية، والتيارات الواردة إلى هذا الجزء من الجلد تستطيع في الظـروف العادية إعطاءنا الفكرة الأساسية عن الحرارة واللمس مثلاً.

والخلايا الحركية في القشرة الدماغية كبيرة نسبياً، وتوجـد على شكل هرم ولذلك تسمى الخلايا الهرمية. وتخريب هذه الخلايا يؤدي إلى تخريب محاويرها، حتى تصل إلى جزع الدماغ والنخاع الشوكي، والساحة الحركية لنصف الكرة الدماغية تضبط الحركـة في الجهة المقابلة من الجسم والعكس صحيح أيضاً. وليست القشرة

الدماغية مركزاً للحس والحركة فقط ولكنهـــا وبواســطة الخلايـــا العصبية المركزية مركز للربط بين الحس والحركة أيضـــاً. فهـــي تربط بين أنواع الحس وضروب الحركة. ومن هنا يتضـــح مـــدى أهمية القشرة الدماغية البشرية(١).

الغدد الصماء:

الغدد الصماء من المراكز الخطيرة في الجسد الإنساني التي تؤثر على النشاط العقلي وتمنع الاستجابة – في الحالات المرضية – وتؤدي إلى الغفلة المرضية وعدم الاستجابة الشعورية وسوف نلخصها فيما يلي:

(أ) الغدد الإدرينالية:

يوجد منها في الجسم الإنساني غدتان صغيرتان يقـــع كـــل واحدة منهما فوق الكلية والجزء الأوسط من الغدة يقال لـــه اللـــب الإدرينالى، ويفرز الإدرينالين، والنوادرينالين.

---

(١) د. فاخر عاقل. علم النفس من ص٤١: ص٧٧ ط، دار العلـــم للملايـــين ط سادســـة ١٩٧٩، نقل بتلخيص وتصرف وانظر في ذلك أيضاً:

- د. عبد المنعم الحفني موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ط مكتبة مدبولي ١٩٧٥م.
- د. لويس كامل ملكية. علم النفس الإكلينيكي مـــن ص١٦٩ إلـــى ص١٩٦ ط الهيئـــة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م.

والجزء الخارجي من هذه الغدة يقال له القشرة الإدرينالية، أو اللحاء الإدرينالي، ويفرز مادة: السيرويدات، أو شبيهات الكورتيزون، وهذه الإفرازات في الحالات المرضية تعتبر عوامل مساعدة في إحداث المرض العقلي. عندما يسوء أداء القشرة الإدرينالية فيصيبها الانحلال فيصاب الإنسان بمرض أديسون، أو يزيد نشاطها عن الحد اللازم فيصاب بمرض كوشنج، وكلاهما مرضان جسميان ينطويان في العادة على أعراض عقلية.

ويتميز مرض أديسون: بضعف عضلي عام، اضطراب في الهضم تلون الجلد بلون برونزي فريد، ومن أعراضه أيضاً: التبلد، الخشية، الاكتئاب، والهلاوس والهذيان القابلية للتهيج، الهذاءات، عدم الاستقرار، الخلط الذهني، صعوبة التركيز.

ومرض أديسون إذا لم يعالج يؤدي إلى الموت في نهاية المطاف.

وأما مرض كوشنج فمن أعراضه: القابلية للتهيج، قلة الرغبة في التعاون، نوبات البكاء، الهياج.

وفوائد الغدد الإدرينالية مساعدة الإنسان في تحمل الضغوط والمواقف الصعبة. فإذا ما تعرض الإنسان لموقف صعب فإن هذه الغدد – في الحالات السوية – تزيد من إفرازاتها لتساعد الإنسان

على التكيف مع هذا الموقف ... **وعندما يصاب الإنسان بمرض نفسي أو عقلي** فإن استجابة هذه الغدد للمؤثرات الخارجية تقل أو تنعدم تماماً. وبذلك تتحدد العلاقة الوثيقة بين الغدد الإدرينالية والاستجابة للضغوط.

وفشل الغدد الإدرينالية يسبب الأمراض العقلية كما سبق، ولكنه أحياناً يكون نتيجة لها، لأن كثرة الضغوط الناتجة عن الأمراض العصبية والعقلية تجهد الغدد الإدرينالية من كثرة الاستجابة المتكررة.

(ب) الغدة الدرقية:

يترتب على نفس إفراز هذه الغدة نوع من التأخر العقلي يقال له: القصاع، غير أن الزيادة في إفراز هذه الغدة تربط دائماً بمرض "**بازدو**" **ومن أعراض هذا المرض:** تضخم الدرقية، ارتفاع نسبة التمثيل الغذائي وبعض الأعراض العقلية مثل: القلق، تقلبات مزاجية، القابلية للتهيج، القابلية للاستثارة، إلا أن هذا الارتباط بين إفراز الغدة الدرقية وهذه الأعراض لم يثبت يقيناً وإن كان بعض الباحثين يجزم بحدوثه، إلا أن هؤلاء قلة من الباحثين في هذا المجال.

(ج) غدة البنكرياس:

اشتهر الخلل في إفراز غدة البنكرياس بمـــرض الســـكر – الجانب الجسمي منه على الأقل – إلا أنه لوحظ حدوث الاكتئـــاب عند مرضى السكر أحياناً بمقدار يتجاوز الاكتئـــاب النـــاتج عـــن المرض عند بعض الأفراد، ولذلك فبعض الأطباء يســـتخدم مـــادة الأنسولين التي يفرزها البنكرياس لعلاج الحالات فـــي الأمـــراض العقلية، ومن هنا ثبتت العلاقة بين غـــدة البنكريـــاس والأمـــراض العقلية، ولو من بعيد بعض الشئ.

(د) الغدد جارات الدرقية:

ظهر كثير من الحالات التي تتراوح بـــين الخلـــل العقلـــي، والإصابة العضوية في المخ وقد صاحب حـــدوث هـــذه الحـــالات اضطرابات في الغدد جارات الدرقيـــة، إلا أن العلمـــاء يعتبـــرون اضطرابات الغدد جارات الدرقية عوامل مساعدة فـــي الأمـــراض العقلية وليست سبباً مباشراً لها.

يبقى بعد ذلك أن نذكر بعض الحالات التـــي تـــؤدي إلـــى الأمراض العقلية من هذه الحالات:

عامل التسمم: لأن أي مادة سامة تدخل إلـــى دم الإنســـان يكون لها تأثير على قواه العقلية.

عوامل الأمصال: تؤدي زيادة الأمصال في الجسم الإنساني أو الخطأ في إعطائها إلى بعض النتائج الخطيرة على مخ الإنسان ومن ثم قواه العقلية وطريقة استجابته للمؤثرات الخارجية.

عوامل الهرمونات:

إن استعمال الهرمونات من غير نظام دقيق يسبب أيضاً كثيراً من الاضطرابات النفسية والعقلية على السواء[١].

ومن هنا يتضح دور الجانب الجسدي من الإنسان في التأثير على استجابته التي تجعله حياً مستجيباً أو ميتاً غافلاً، فالجهاز العصبي له دور، والغدد لها دور، وبعض الأدوية والمواد السامة

---

(١) ريتشارد "م" سرين، علم الأمراض النفسية والعقلية من ص٢٢٥ إلى ص٢٣٦ ط دار النهضة العربية ١٩٧٩ نقل بتلخيص وتصرف وانظر في ذلك أيضاً:

- الدكتور/ مصطفى فهمي دراسات سيكلوجية التكيف من ص٢٢٩ إلى ص٢٧٤ ط مكتبة الخانجي ١٩٧٦م.
- سعد جلال المرجع في العلم النفس من ص٢٢٩ إلى ص٢٩٣ ط دار الفكر العربي ١٩٨٥م.
- د. محمود السيد أبو النيل، الأمراض السيكوسوماتية من ص٣٤٩ إلى ص٣٧٠ ط مكتبة الخانجي ١٩٨٤م.
- د. عزيز فريد، الأمراض النفسية العصبية من ص١٤ إلى ص٤٣ ط الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٤م.

لها دور، وكل ذلك في النهاية يسبب أو يساعد على الغفلة والبلادة النفسية.

إلا أن بعض أنواع الغفلة الناتجة عن المرض تغفر لصاحبها، وهذا ما دفعني إلى إلقاء الضوء على هذا الجانب من الغفلة في الوحدة الثانية من هذا البحث، لأن البحث يدور هنا حول الذاتية الغافلة بسبب المرض، ويلتمس لها الأعذار ليخرجها من الذاتية الغافلة بسبب ترك مهابة الجبار، والتجافي عن دار للقرار .. وبئس القرار.

الفصل الثالث
الذاتية الغافلة وكينونتها

كينونة الذاتية الغافلة هي: في إيجاز – ماهيتها، فاعليتها، آثارها، ولذلك ستدور هذه الوحدة، من هذا البحث حول هذه الأطروحات الثلاثة، حتى تعم الفائدة من دراسة الذاتية الغافلة.

(أ) ماهية الذاتية الغافلة:

للذاتية الغافلة ماهية تتكون عن طريق الغفلة حتى تصير هوية للغافل وتأتي هذه الماهية نتيجة مباشرة لتراكمية الذنوب، والغفلة عن خطرها، وإذا كنا في حاجة ماسة إلى علم النفس الوضعي للكشف عن ماهية الذاتية الغافلة، فإننا في أمس الحاجة إلى كلمات الله تعالى الفاصلة، فهو خالق النفس وبارئها، وإلى توجيهات سيدنا رسول الله ﷺ، فهو الذي تعلم من ربه كثيراً من أسرار النفس البشرية.

أضف إلى ذلك أنه قد تحققت فيه تجربة النفس الإنسانية الرائدة في الطاعة المشرقة بالإيمان، وهو بهذه الخاصية الذاتية أقدر الناس على فهم أعماق هذه النفس البشرية المحيرة الاستكناء المجمدة الكنه.

يقول الله تعالى: "**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**"[١].

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: (أي ليس الأمر كما زعموا، لا كما قالوا: أن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله تعالى ووحيه وتنزيله على رسول الله ﷺ، إنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين، الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ولذلك قال تعالى: "**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**" والرين يعتري قلوب الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقربين[٢].

ويقول الأستاذ/ سيد قطب في تفسير هذه الآية: (أي غطى على قلوبهم ما كانوا يكسبون من الإثم والمعصية. والقلب الذي تمرد على المعصية ينطمس ويظلم، ويرين عليه غطاء كثيف. يحجب النور عنه. ويحجبه عن النور ويفقده الحساسية شيئاً فشيئاً حتى يتلبد ويموت[٣].

---

(١) سورة المطففين : ١٤.

(٢) الإمام ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج٤ ص٤٨٥، دار الشروق.

(٣) الأستاذ/ سيد قطب في ظلال القرآن ج٦ ص٣٨٥٧، ٣٨٥٨ ط دار الشرق.

وتدور معظم آراء السادة المفسرين حول فحوى هذين الرأيين في تفسير هذه الآية الكريمة، ومجمل هذه الآراء أن الغفلة تتكون في بداياتها الأولية نتيجة تراكمية الذنوت على قلب العبد.

من هنا نصل إلى الخيط الأول الموصل إلى استكناه ماهية الغفلة، فهي ليست سبباً وإنما نتيجة لسبب وعلى هذا فهي ليست فطرية في الإنسان، ولكنها مكتسبة له، وعن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: "إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه: فإن تاب منها ثقل قلبه. وإن زاد زادت"(١).

هذا الحديث الشريف يوضح الطريقة التي تنشأ بها الغفلة عند الذاتية الغافلة، التي تنقلب إلى ذاتية جاهلة، بعد علم أو بعد فطرة بادية، ولكنه ﷺ يربط السبب والنتيجة في الحديث الشريف بآية القرآن في حديث آخر. فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء، فأن هو نزع واستغفر وتاب نقل قلبه، فإن عاد زيد فيها، حتى تعلو قلبه

(١) الإمام الترمذي في سننه واللفظ له، ورواه ابن ماجة في سننه ج٢ ص١٤١٨ كتاب الزهد باب ذكر الذنوب ط دار الفكر تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

فهو القرآن الذي قال الله تعالى: **كلا بل ران على قلوبهم ما كـانوا يكسبون**"[١].

إذن هناك توافق وتضافر بـين القـرآن الكـريم والسـنة الشريفة في شرح ماهية الغفلة وأنها تأتي نتيجة الران المتـراكم على قلب العبـد. ولعل التعبير يكسبون في الآية الكريمة له دلالـة علمية عميقة في شمول الكسب لكل أنواع الذنوب الظاهرة والباطنة على السواء والقلب هو مكان الاستجابة مع العبد فكل ران يؤثر فيه ويؤثر عليه، فمنه يخرج منهاج الفطرة الذي ركزه الله تعالى فـي الإنسان وإليه يتجه خطاب الالتزام، إذا خرج عن منهاج الفطـرة، أي أن توجيه الإنسان الذاتي – الفطري – يأتي من القلب، وتوجيه الإنسان الخارجي يعود إلى القلب، فكان القلب مرآة تشـع النـور وتستقبله في آن واحد، والقلوب تتفاوت في صفاء مرآتهـا، وفـي مقاومتها للأكدار، فهناك الوين للعصاة، ويسـبب الإظـلام التـام، والغيم للأبرار ويسبب ضعفاً جزئياً في الإبصار، وظـلالاً شـفافاً على البصيرة، ويبقى الغين وليس له أثر تدركه الحواس، ولا تأثير عليها، ولكن له وجود تستشعره البصـائر لفـرط شـفافية القلـب

---

(١) الإمام النسائي في سننه واللفظ له ... رواه مسلم في صحيحه ج٤ ص٢٠٧٥ حـديث رقم ٢٧٠٢ ط الحلبي، ورواه أبو داود في سننه ج٢ ص١٧٧ رقم ١٥١٥ نشر محمد على السيد – حمص – سوريا.

وصفائه، وهذا ما يفسر قوله ﷺ: "إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة"[١].

هذا الحديث الشريف لا يثبت استعداد النبي ﷺ لفعل الذنوب كما يوهم النص، ولكنه يثبت حرصه ﷺ على جلاء قلبه الشريف بالاستغفار، وتقوية الاستجابة في كيانه الطاهر بالاستنفار.

ويعلمنا أن هناك مجهوداً متزايداً متطلب من العبد، لكي يحافظ على درجة من اليقظة تجنبه الغفلة، وما ينتج عنها من مخاطر، من بينها عدم التلقي عن الله تعالى، وعن رسول الله ﷺ، والحواس العادية لا تستطيع التلقي عن الله تعالى وهي تعمل مع قلب غافل تراكمت عليه الذنوب فأغلقت منافذ الضوء فيه، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن كيفية وصول رسالة القرآن الكريم إلى القلوب: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ [٢] فهو سبحانه يشترط للاستجابة قلباً طبيعياً لم تعتمه الذنوب يلقة صاحبه السمع ويعيش المعنى بكل كيانه، هذا إذا كانت (أو) بمعنى أما إذا لم تقتض الجمع واقتضت المغايرة، فيكون القلب المشرق للمؤمن، وعلى غير المؤمن أن يعيش معاني القرآن الكريم حتى يهتدي به،

---

(١) صحيح مسلم ج٤ ص٢٠٧٥ حديث رقم ٢٧٠٢ ط الحلبي ١٩٥٥م.

(٢) سورة ق : ٣٧.

ورقة الأفئدة مستجلية للإيمان دائماً، وغلظة القلـوب منافيـة لـه، والران هو الذي يفسر لنا معنى غلظ القلب ورقته، ورسول الله ﷺ يربط بين الإيمان ورقة القلب – أي الصفاء من الكد، والنقاء مـن الران، فيقول: "جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة الإيمان يمان والفقـه يمان، والحكمة يمانية"(١).

وتأتي رقة الأفئدة من ضعف الران، ويضعف الران بسـبب اليقظة وقوة الاستجابة، ويقوى بدونهما.

العلم والاستجابة:

يتكئ كثير من الناس خُداع الران، ويظن أن علمه فـي أي فرع من فروع المعرفة يجعله لا يخضع لقاعدة الران ودورانهـا، والغفلة الناتجة عنها، ولكن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن كثيراً من الناس أضلهم الشيطان رغم علمهم الكثير وتفوقهم في كثيـر مـن المجالات، فيقول الحق تعالى: **(وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)** (٢).

في الآية الكريمة تنبيه على كثرة علم عاد وثمود، وأن هـذا العلم يظهر لكم من مساكنهم وفخامتها، ومع ذلك أغراهم الشـيطان

---

(١) صحيح مسلم ج١ حديث رقم ٥٢.

(٢) سورة العنكبوت: ٣٨.

على علمهم هذا، وانحرف بهم إلى التيه والضلال، فالعلم مع الغفلة لا ينفع بشئ.

التعريف:

جاء هذا التعريف متأخراً بعض الشئ لضرورة تتعلق بجوهر هذا المقال لأن الغفلة تدرس هنا ليس من الناحية اللغوية، إنما تدرس من ناحية التأثير على جوهرية الإيمان في القلب، ولذلك كانت البداية برصد القرآن الكريم للغفلة، ثم دراسة الغفلة كمرض عضوي، ثم يأتي بعد ذلك التعريف اللغوي ليحدد المعاني المتناثرة ويجمعها كغطاء لجوهرية البحث.

والغفلة في أصلها اللغوي. ترك الشئ سهواً وربما كان عمداً(١).

الغفلة: سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ(٢).

وهذان التعريفان يرصدان كثيراً من المعاني الهامة التي أشرت إلى أنها ستكون عطاء للبحث، وتتمة لمعانيه.

---

(١) ابن فارس معجم مقاييس اللغة ج٤ ص٣٨٦.

(٢) الراغب الأصفهاني المفردات ص٣٦٢ ط الحلبي.

ففي التعريف الأول: نرى أن الغفلة ترك الشئ سهواً وربما عن عمد، وهذا التعريف يأتي بفائدة أن الغفلة لا تتعلق بالسهو فقط بالنسبة للمتروك ولكنها تتعلق أيضاً بالمتروك العمد، ومعنى هذا أن النفس تسقط بعض الأشياء سهواً وبعضها عمداً لداع من الـــدواعي التي تترجح لديها.

وفي التعريف الثاني: الغفلة: سهو يعتري الإنسان من قلـــة التحفظ والتيقظ.

هذا التعريف يقع مباشرة على ماهية الذاتية الغافلـــة، لأنهـــا حين تتسربل بالغفلة تفقد خاصيتي التحفظ والتيقظ، والـــتحفظ هـــو الحرص على كل ما ينفع الإنسان، والتيقظ هو الاســـتجابة "ألقـــى السمع وهو شهيد" وحين تفقد الذاتية الغافلة التحفظ تصاب بالعزلـــة الفاصلة، التي تفصل بينهما وبين الواقع المعاشي جسدياً وروحيـــاً واجتماعياً، ويتقوقع الإنسان ويعيش داخل ذاته، وتراه إلى الخـــارج ويسمع منه، ولكنه لا يتأثر بفاعلياته وآلياته.

(ب) فاعلية الغفلة على الذات

توهم لفظة الغفلة لأول وهلة أنها اتجاه سلبي، وسلوك عاجز عن الفعل، وهذا النوع من الغفلة ليس أساساً في هذا البحث، إنما الغفلة التي يتجه إليها البحث، وهي الغفلة، التي فيها يغفل الإنسان بشئ عن شئ آخر، وفاعلية الغفلة تعني السلوك الجديد للذاتية الغافلة، أو السلوك المستبدل ولذلك فهناك مجالات عديدة اجتهد في السير فيها المدعون، وهي ليست وسيلتهم الناجحة، ولا تؤدي إلى هدفهم المنشود.

وحين تبلغ الغفلة بالإنسان مداها، وتجعله ينفصل عن طريقة، ويضل هدفه، "يشعر بحدوث تغيير في ناحية، أو في بضع نواح معينة، من نواحي شخصيته. كما قد يكون شعوراً شاملاً يشعر معه صاحبه بحدوث تغيير شامل، متضمناً لجميع نواحي حياته[(١)].

هذا هو الراقع المستبدل عند الذاتية الغافلة، الشعور الجديد الذي يصرف الإنسان عن هدفه الأسمى.

---

(١) د. عزيز فريد الأمراض النفسية العصبية ص٣٨٥ ط الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٤م.

الأهداف:

قبل الخوض في فاعلية الغفلة على الذاتية الغافلة نحدد الأهداف التي يذهل عنها الإنسان، وذهوله عنها يفقده التوازن في حياته، فهي أهداف مختلفة عما ألفه البشر من أهداف، فالأهداف البشرية حين يترك بعضها الإنسان لا يصاب بشئ كثير من الانعكاس الهدفي والتخلخل الوسيلي.

أما الأهداف التي حددها الله سبحانه وتعالى للإنسان، فلا يستطيع الإنسان أن يعيش إذا تركها، لأنه في الوصول إليها سعادة الإنسان أساساً فهو يحصل على الجائزة مرتين، مرة لأنه سلك الطريق، ومرة لأنه قد وصل إلى نهايته.

الهدف الأول:

الهدف الأول من وجود الإنسان في الأرض هو عبادة الله سبحانه وتعالى بمعنى طاعته، والله تعالى لا يحتاج إلى عبادة أو طاعة الإنسان في شئ، إنما ذلك لمصلحة الإنسان نفسه فكما قلنا من قبل فإن الوسيلة تشرف بشرف الهدف.

قال تعالى: **(وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون)** [١].

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

الهدف الثاني:

وهو ضميم الهدف الأول: إعمار الأرض، وخلافة الله تعالى فيها. أي على الإنسان في هذا الهدف تحقيق مشروع الحق سبحانه وتعالى في الأرض وإثبات استحقاقه للخلافة وليس العكس كما رأى الملائكة في البداية. ومشروع الله تعالى إذا أخـذنا ملامحـه مـن القرآن الكريم فإنه يتكون من إعمار الأرض –نشـر العـدل فـي ربوعها – إتاحة الفرصة الحرة لجميع البشر للدخول في ديـن الله تعالى الذي تقره العقول، وتشتاق إليه الفطر.

وعن الهدف الثاني يقول الله تعالى: **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)**(١).

وقال تعالى: **(هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)** (٢).

هذا الهدف: إعمار الأرض وخلافة الله تعالى فيها يختلـف عن الهدف الأول في أنه يحتاج إلى أمة قوية لها بأس شـديد، لأن إقامة العدل ودحر الظلم ونشر دين الله تعالى وإفساح الطريق لدعوة الإسلام كل ذلك لا يتم بالقيام والصيام والنوايا الطيبـة والـدعوات

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

(٢) سورة هود: ٦١.

الصالحة، وإن كانت الحياة لا تمضي آمنة ومستقيمة بغير هذه الشعائر.

إنما يتم كل ذلك بالبناء والإعمار والإعداد والبحث عن أسباب القوة في جنبات الحياة، فهدف العبادة يتحقق بالعبادة، وهدف الخلافة لا يتحقق إلا بالسيطرة على أسباب القوة ومعرفة أسرار الحياة.

ومن العجيب في هذا الزمن أن الذين كلفهم الله تعالى بالخلافة **(كُنتُمْ خَيْرَ أمَّةٍ أخْرِجَتْ لِلنَّاس)** (١) والإعمار تقاعسوا، في الوقت الذي يحاول فيه أعداء الله تعالى خلافته في أرضه، بالعمل المتواصل واستكناه أسرار الحياة.

الغفلة والعبادة:

تدخل فاعلية الغفلة إلى الهدف الأول من طرق كثيرة، منها صرف الإنسان عن روح العبادة إلى رسمها فروح الصلاة تنهي العبد عن الفحشاء والمنكر، وإقامة ذكر الله تعالى في قلبه، ذكر – وتذكر، وتبعده عن الغفلة – التعلق بشئ آخر – التي تجعله يجود رسم الصلاة، منصرفاً عن روحها، وحينما تعلق المسلمون

---

(١) سورة آل عمران: ١١٠.

برسوم[1] الصلاة دون روحها، ساءت حالهم ولـم يسـتفيدوا مـن فاعلية الصلاة في المجتمع الإسلامي، وهم بذلك لم يخسروا قبـول العبادة فحسب، بل خسروا فائدتها التي من أجلها شرعت وذلك هو الخسران المبين.

فالتاجر يصلي خادماً أركان صلاته ولكنه يغش في سـلعته، والسياسي يصلين بل يبالغ في صلاته، ولكنه يغش في أمته، وهكذا: لأن الغفلة ربطت التاجر والسياسي – على سبيل المثـال فقـط – بالعرض وصرفتهم عن الجوهر، وهذه هي فاعلية الغفلة في الهدف الأول – العبادة.

الغفلة والخلافة:

كما يذهل العبد عن خوف مقام الرب وتوقيره كذلك يـذهل عن دوره في الحياة، وكثرة المسلمين لا تعرف لها دوراً في الحياة، وربما أجاب أحدهم عن هذا الدور بأنه عبادة الله تعالى، وإذا سألته: هل تنفصل العبادة عن الخلافة؟ أجابك بأنه لا يعرف شيئاً عن ذلك، وأنك تنادي من مكان بعيد، فالخلافة هي وعاء العبـادة، وعنـدما

---

(١) لا نغفل حق الرسم في الصلاة – أقوال وأفعال – لأنه إطارها الحـي الـذي تتلبسـه الروح، فلا يمكن لإنسان أن يحصل على روح الصلاة من غير الاحتفـاء بإطارهـا الجميل.

يعمر الإنسان الأرض، وينشر فيها العدل والخير، على وفق شريعة الله سبحانه وتعالى فإنه يكون قد هيأ أرضاً ومناخاً صالحاً لعبادة الله سبحانه.

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى شعيرة الأذان التي ارتضاها للمسلمين هي: الله أكبر، فهو أكبر، بذاته وجبروته وقهره، هذه حقيقة أساسية، وعلى المسلمين جعل هذه الحقيقة الكبرى واقعاً بين الناس، بخشوعهم في العبادة، وسلوكهم في الخلافة، إننا يجب أن نجاهد ونبذل العرق والجهد والدم – عند الحاجة – لتكون – الله أكبر – واقعاً بين الناس، وهذا هو معنى الخلافة. وإذا عدنا إلى الذاتية الغافلة رأينا أن جمهرة المسلمين لا تهتم بهذه المعاني، وليس ذلك كفراً وعناداً، إنما ذلك غفلة، فصلت بين القلب ومنابعه، وبين العقل وواقعه. فالذاتية الغافلة تخلد في العبادة إلى الشفاعة والمغفرة، ولا تفعل شيئاً تستحق به الشفاعة وتنال به المغفرة، وتركن في الخلافة الحياة الحيوانية فقط أي الحياة (البيولوجية) ولا تعرف لنفسها هدفاً ولا رسالة.

إن واجب الخلافة يقتضي أن تكون الأمة الإسلامية هي أرقى الأمم وأعلاها شأناً، لكي تقود الناس على مرضاة رب

العالمين، وعلى كل فرد من هذه الأمة أن يعمل لهذا الهدف العظيم يتصل بواجب الخلافة من قريب أو بعيد.

لقد جاء اليهود إلى فلسطين وهدفهم المغلق إقامة مملكة الرب وإنشاء وطن قومي – غالب – لليهود.

ودارت عجلة الحياة، وعمل الجميع من أجل هذا الهدف الروحي الدنيوي وانتصروا وانتشروا – وهم على باطل – وأصبحوا يهددون أصحاب الحق الأصيل – الوحيد ونحن ننظر إليهم تتخمنا الحسرة، ويغشانا التساؤل: متى جاءوا؟ كيف استطاعوا تحلية ماء البحر وإخراج المياه من جوف الأرض وزرع الصحراء؟ وأي فرق بيننا وبينهم في الخلق والتكوين؟ لا شئ إلا أن لهم هدفاً يسعون إليه ونحن نعيش من غير هدف يوقظنا للحركة من سباتنا العميق، إن الغفلة طغت على أرواحنا فعزلتها عن روحانية العبادة، وطغت على عقولنا فعزلتها عن فاعلية الخلافة، فالذاتية الغافلة ذاتية مغمورة بوهم استحقاق النعيم في الآخرة من غير عمل يجلب هذا النعيم، ومطمورة بوهم التفوق والسيادة من غير كد وجهد وعرق – سيادة العاجزين. ومن الجائز إطلاق لفظ الذاتية الغافلة على أفراد الأمة فرداً فرداً، ومن الجائز أيضاً إطلاقه على

الأمة مجتمعة في آنيتها – قصعة الأكلة – فكل فرد لا يعمل لترقية الأمة، والأفراد مجتمعون لا يعملون لهذا الهدف العظيم.

سيكولوجية الذاتية الغافلة:

الذاتية الفاعلة مدعوة وداعية، والذاتية المنفعلة مدعوة وداعية، ولكن الذاتية الغافلة مدعوة فقط، فهي ذات تحتاج إلى دعوة، إلى إفاقة، فالذاتية الغافلة لم تنته بعد ولكنها لم تبدأ أيضاً، وعلى الدعاة دراسة هذه الذاتية بعناية فائقة، وهمة دافقة، فهي الأرض التي يجب أن نزرع فيها، ليكون لزرعنا ثمار مثمرة، وقوة فاعلة.

والذاتية الغافلة تختلف عن الفاعلة لعدم وجود المحرك الذاتي وتختلف عن المنفعلة لغياب المستقبل الذاتي، الذي يجعلها تنفعل بما يلقى إليها من كتاب الله سبحانه وتعالى ومن سنة رسول الله ﷺ فهي ذات بين بين، وليس معنى ذلك أنها ذات منافقة، فالذات المنافقة اختارت طريقها ولها خاصتها وخواصها، (إنما البين البين هي منطقة الدعوة في الذات الغافلة).

وعلى الدعاة أن يخرجوها من هذه المنطقة إلى المنطقة التي تكون فيها فاعلة منفعلة، بشرط أن يخرجوا قبلها فهل يستطيعون؟

ج- حصاد الغفلة (آثارها)

وحصاد الغفلة يشمل من الناحية العملية الناحيتين – العبادة والخلافة فهو في العبادة يخرجها عن مضمونها ويحولها إلى رسوم هلامية، وفي الخلافة يفسد خططها، ويعكس هدفها، ويجعلها شيئاً أقرب إلى الظن أبعد عن اليقين.

الغفلة والعبادة: إذا أخذنا أركان الإسلام الخمس كمثال لفاعلية الغفلة وإفسادها للعبادة فسوف نكتشف ما يلي:

١- **الشهادة:** من معاني الشهادة العظيمة بشقيها أن الإنسان إذا نطق بالتوحيد في الشهادة الأولى "فإنه لا يقدس الله تعالى فحسب، بل يتفاعل سلوك الإنسان مع معاني التوحيد الكبيرة التي تخلص الإنسان من الخوف من غير الله تعالى، وتدفعه إلى اليقين بتوفيق الله تعالى له في كل عمل يتجه إليه وتخلص الإنسان من الشعور بالأغيار وفاعليتها في الحياة، وتحرر سلوكه من جاذبية السوى، وتجعله ينطلق في الحياة بشعور من سخر له ما في السموات والأرض، ويصبح إنساناً كبيراً يعبد رباً عظيماً لا إله غيره، ولا نصير سواه.

وإذا نطق بالشهادة الثانية فإنه يمتلئ بالمعاني التي تدور حول شخصية خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي جاء بنهاية توجيه

الحق سبحانه وتعالى للإنسان. ويتمثل في مخيلتــه هــذا النمــوذج الإنساني الفذ في طاعة الله سبحانه وتعالى عبادة، وفي بناء الحيــاة وتطويرها خلافة، فتصبح شخصية الرسول ﷺ بارزة فــي نفــس الإنسان، مشرقة في سلوكه، موجهة له في عمله مهيئة له في أمله، نبراسا له في طريقه مثلا أعلى في كيان، قوة في بنيانه، أقرب إليه من بنانه.

هذه بعض المعاني الحية التي تواكب النطق بالشهادتين عند المسلم اليقظ فإذا ما طبقنا عليها قاعدة الغفلة، فإننا نلاحظ أن كثيراً من المسلمين ينطقون بالشهادتين، وكل منهم لا يعي ما يقول، فتجد الرجل إذا أقبل على رجل آخر له سلطان في عمله أو ماله، فإنــه يردد كلمة التوحيد كثيراً ومع ذلك ترتعد فرائسه فهو يقول بلسانه لا إله إلا الله "هذا من الناحية اللفظية النظرية" ولكنه بقلبه يخشى هــذا المخلوق أكثر من خشيته لله سبحانه وتعالى، ونجد إنساناً آخــر لا يعتمد في عمله وسلوكه على الله لكي يريح نفسه مــن ذلــة نفــاق البشر، ولكنه يعتمد على الإنسان، بمعنى أنه يبذل جهــوداً كبيــرة لتحسين علاقته بالناس ولا يبذل مثل هذا الجهد لتوطيد علاقته بالله سبحانه وتعالى، ومع ذلك لا يفتأ يردد كلمة التوحيد لا إلــه إلا الله. لا إله إلا الله.

فإذا ما جئنا للشهادة الثانية: محمد رسول الله – وجدنا أن جمهرة المسلمين يصلون على النبي ﷺ عند سماع اسمه، ويشهدون أنه رسول الله ﷺ ولكن كثيراً منهم لا يزيد على هذا الترديد اللفظي شيئاً ذا بال، من غير تمثل لقدوة، أو انتفاع بأسوة حسنة، إنها لغة الغافلين ويستوي التاجر والزارع وعالم الدين في بعض الأحيان وعند البعض في كل حين. إنها الغفلة التي طمست معالم شخصية النبي ﷺ العظيمة التي لو تمثلناها تمثلاً حقيقياً لظللنا أمة السيادة الرائدة والقيادة النافعة.

ولكن أين نحن الآن من رسول الله ﷺ وصحبه الكرام والأعلام.

٢ – الصلاة:

من معاني الصلاة الفاعلة، فاعلية الضبط السلوكي للمسلمين، فهي تمنع الفحشاء في مجتمع المسلمين، وتجعل حدوثها شيئاً شاذاً نادراً، وهي أيضاً ذكر لله تعالى، بمعنى التذكر لله تعالى بكل ما يحمل هذا الذكر من هيبة ووجل في قلب العبد المؤمن اليقظ، وهي تذيب الفوارق النفسية في المجتمع حين ينتظم المسلمون صفاً واحداً في الصلاة، إلا أن الغفلة تجعل من الصلاة رسوماً مشاكلة وإذكار ذابلة، وفاعلية خامة، بل أصبح من الأمور المتداولة على ألسنة

الناس، أن يتذكر الإنسان المسلم ما كان قد نسيه إذا قام إلى الصلاة، وكأن المسلمين ينشغلون بكل شئ في الصلاة إلا الصلاة نفسها، ومن هنا تفقد الغفلة من الصلاة فاعليتها الدنيوية والأخروية على السواء.

٣- الزكاة:

والزكاة شرعت لمعان كثيرة منها - إعادة توزيع الثروة في المجتمع المسلم - كي لا تكون دولة بين الأغنياء - ويقصد منها التنمية وليس مجرد الصدقة، وهي شعور بالامتنان من المؤدى لله تعالى، وشعور بالرضا من المؤدى إليه، على إخوانه ومجتمعه، وعلى هذا ففاعلية الزكاة تنشيط للمال في المجتمع، لكي يخدم أكبر عدد ممكن من الناس، ثم إقامة نوع من الترابط والتداخل بين قلوب المسلمين فلا حقد ولا حسد بين فقير وغني، إنما الجميع يبتغي فضل الله تعالى في العطاء وفي القبول على السواء، والزكاة على وجهها الصحيح اليقظ لا تترك فقيراً في مجتمع المسلمين، وقد حدث ذلك كثيراً في التاريخ الإسلامي المجيد. إلا أن المسلمين عن طريق الغفلة حولوا الزكاة الغافلة إلى صدقات لا لون لها ولا طعم ولا رائحة، فهي أثواب توزع بغرض المفاخرة، وطعام يؤكل للمتاجرة، وماشية تذبح عند المقابر للمحاجرة، وأحياناً يستدرج بها

بعض المحرومين للمفاخرة، وبهذا ضاعت فاعلية الزكاة في مجتمع أحوج المجتمعات الإنسانية إلى فاعلية هذه الزكاة.

٤- الصوم:

والصوم فيه الكثير من المعاني المعروفة للكافة، نكن من معانيه الفاعلة إعادة صياغة إرادة الفرد المسلم، فالصائم المنفعل بالصوم، لا تسقط إرادته أمام أي قوة في الوجود، إلا قوة صانع الوجود، ولا يتخاذل أمام أي شئ من مغريات وشهوات الحياة، لكن الغفلة جعلت منه شيئاً أقرب إلى تنظيم الغذاء منه إلى تبسيط العزيمة وتفعيل الروح أي جعلها فاعلة منفعلة، فكم من صائم لا يعيش صومه، ولا يوقظ يومه، ولا يقلل نومه، وقد تطوع علماء الدين فشرحوا للناس أن الصوم يجعل الغني يشعر بمعاناة الفقير – وسأل البعض ولم يصوم الفقير؟، وقال علماء الطب أنه يقوي الجسد، ويطهره من الشوائب، ولا يعلم الجميع أن الصوم يصيغ الفرد ويعيد هيكلة الأمة، ودفعها للأمام ولكنها الغفلة.

٥- الحج:

والحج هو السداد في نسيج المسلمين، بمعنى أنه يجدد كل عام الإحساس العام المشترك بين المسلمين وينقل كلمة "أمة واحدة" من محتواها اللفظي إلى جوهرها العلمي، فإذا ما اشتكى مسلم في

أقصى الشرق من العالم، تألم لشكواه مسلموا العالم جميعاً، ولكن الغفلة جعلت من الحج سياحة للبعض ونياحة لآخرين، إنها جموع محتشدة وقلوب شتى، ودعاء ونداء كيف تجتمع أمة على هذا المستوى الجمعي، ثم لا يهابها عدو؟

الغفلة والخلافة:

كما ضيعت الغفلة فاعلية العبادة من المسلمين، ضيعت عليهم أيضاً فاعلية الخلافة، وإذا بقى من العبادة الرسوم عند كثير من المسلمين، فلم يبقى من الخلافة شيئاً ذا بال، بل أصبحت الأمة الإسلامية مستهدفة في دينها وأرضها وعرضها وحاضرها ومستقبلها، وليس هذا شيئاً قدرياً كما يعتقد بعض الغافلين، وبعض الذين يلقون تبعة فشلهم وتكاسلهم على الأقدار، بل هي مهمة تركناها، وأمانة فرطنا فيها، وقمة ضيعناها، واستبدلنا الخلود في النعيم المقيم عند رب العالمين، بالخلود إلى الأرض، واتباع الهوى والسعي خلف الأوهام – خلف كل عدو لئيم، وأمة كهذه يجب ألا تكرم بل يجب أن تحاكم على تفريطها الشائن فيما لديها، خصوصاً الأمة التي قال لها ربها: **(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً)** (١).

والإسلام طلب من أتباعه تجويد علوم الدنيا لأمور ثلاثة:

( ) سورة البقرة: ٢٩.

أولهـــا: أن تعمير الأرض جزء من رسالة الإنســـان علـــى ظهرها، جزء من العبادة التي خلق من أجلها. جزء من الكدح الذي يصون نفسه وأهله وشرفه.

الثاني: أن الله تعالى لم يخلـــق الإنســـان ليشـــقى ويجـــوع ويعرى، بل خلقه مكرماً يحمله ما في البر والبحـــر، وأحـــل لـــه الطيبات، ويسر له الزينة والجمال بما فوقه من نجوم وبما بين يديه من زرع وضرع.

الأمر الثالث: فإن الجهاد المكتوب على المـــؤمنين لحمايـــة الدين، لا يمكن أن يتم ولا أن ينجح بعيـــداً عـــن التفـــوق المـــدني والحضاري.

والأمة الإسلامية كي تكون على مستوى دينها، وكي تـــنجح في المحافظة عليه، وكي تستطيع إفهامه للآخرين، لابد أن تكـــون راسخة القدمين في شئون الحياة كلها، بل يجب أن تكون سابقة في شتى الميادين "مسموعة الكلمة في أفاق العلم – العلم – براً وبحراً وجواً ... ومن حق الأمم الكبرى – وهي أمم تحتقر الأمية العلمية والصناعية – أن تنظر إلى دعاوي المسلمين وأفكـــارهم وقـــيمهم

بريبة أو بسخرية ما دام المسلمون نماذج رديئة للتخلف الإنساني"(١).

ويستمر الشيخ محمد الغزالي بعد أن قدم الأمة الإسلامية للمحاكمة على تفريطها في الخلافة، وقدم حيثيات هذا الحكم، يستمر في عرض أسباب هذا التخلف الحضاري فيقول: (وفي ظني أن لهذه العلة سببين:

أحدهما ثانوي: وهو تغلب طبائع البدو على تعاليم الإسلام. فإن البدو يكرهون الحرف، ويزدرون الصناع، وينظرون إلى الفلاحين نظرة نابية، وكانوا قديماً يشترون السيوف من الهند وما جاورها، ليستعينوا بها على الغزو السطو ولا يكلفون أنفسهم صناعتها، ولا ريب أن لهذه البداوة الغبية أثراً ملحوظاً في دنيا العرب إلى اليوم.

أما السبب المهم في التخلف الحضاري: فهو شيوع التدين المزيف، ووقوع الثقافة الدينية إجمالاً بين طوائف من ذوي المعادن الرخيصة أو العقول المعتلة ويغلب على هؤلاء التأثر بالزهد

---

(١) الشيخ محمد الغزالي – سر تأخر العرب والمسلمين ص١١٣ ط دار الريان للتراث ١٩٧٨.

الهندي، أو النصراني، والرغبة عن الدنيا، وعصيان نداء الفطـرة، والغرام بالمبتدعات، واتهام النزاعات العقلية.[(١)]

هذا الفهم الأصيل لرسالة الإنسان، الذي استعرضنـاه فـي السطور السابقة للشيخ محمد الغزالي وهو ما يحتاج إليـه الفكـر الإسلامي في حالته الراهنة.

لقد ظن الزاهدون أنهم بزهدهم هذا قد ضيعوا الـدنيا علـى أنفسهم وذويهم، إلا أنهم في الحقيقة قد ضيعوها على أمتهم أيضـاً، وإذا كان ترك العمل قديماً مستساغاً، حيث كانت تمطر السماء على الأرض فيخضر العشب فترعى الغنم والقوم يجلسون على ربـوة لقرض الشعر ونظم القوافي، فإنه لا يستساغ الآن في وسـط هـذا الصراع الرهيب بين الأمم، على استشراف المنازل العالية، وإذلال الأمم المتكاسلة الخاملة الغافلة، لقد أصبحت ذاتية المسلمين في غفلة عما يرادها، أو يراد بها.

الحصاد:

ونتيجة لغفلتنا عن دورنا الحضاري، وخلافتنا لله تعالى فـي الأرض، فشلنا في الصراع الحضـاري، وفـي السـيطرة علـى مقدراتنا، وأصبحنا في موقع المشاهد لعدونا وهو يـدير شـئوننا،

---

(١) المصدر السابق ص١١٤.

ويحدد مصيرنا واضعاً له إطار الفناء النهائي، نشاهد كل ذلك ونحن بفعل الغفلة لا نحيا إلا يومنا، ولا نرى إلا تحت أقدامنا.

إن من ينظر إلى خريطة العالم الإسلامي في الوقت الحاضر، يراها تنتقص وتنتقص من كل جانب، ومع ذلك فلكل شعب مسلم هموم تشغله، وهي هموم لا قيمة لها في معظم الأحيان، بل كل فئة من فئات هذا الشعب ما يشغلها، وإذا دلفت إلى داخل بعض الهيئات الدينية ترى الصراع من أجل المنصب أو المال، أما قضايا الأمة الإسلامية فسلام عليها إلى يوم البعث العظيم.

(دخلت القوات البوسنية المسلمة في قتال مستميت ضد القوات الصربية التي تحاصر العاصمة سراييفوا، وسط تحذيرات من احتمال تحول المدينة إلى أكبر مقبرة في التاريخ فقد شنت قوات المشاة الصربية هجوماً واسع النطاق تحت غطاء من القصف المدفعي المكثف، على منطقة جبل إيجمان ليلة أمس الأول لإسقاط أقوى معقل للقوات المسلمة، وبغرب سراييفوا تمهيد الهجوم شامل على المدينة لدخولها في غضون ساعات تنفيذاً للإنذار النهائي الذي وجهه زعيم صرب البوسنة رادوفان كرادبتش لحكومة البوسنة للإذعان لخطة التقسيم، أو إلحاق هزيمة مبكرة، وهي ما يعني تحقيق حلم الصرب بدخول المدينة.

وتعد مشكلة نقص الأسلحة والذخائر في أيدي القوات المسلمة السبب الرئيسي وراء تراجعها أمام القوات المهاجمة، مما يهدد بتحويل سراييفو إلى أكبر مقبرة في التاريخ ... وفي الوقت نفسه أعلنت الأمم المتحدة عن استمرار المليشيات الكرواتية في عمليات التطهير العرقي ضد المسلمين بمدينة "موستار" جنوب غرب البوسنة، ووصفت الأوضاع المستمرة هناك منذ شهرين بأنها أشبه بمذابح يومية للمسلمين على غرار مذابح اليهود في عصر النازي) [1].

هذه دولة إسلامية تباد، فهل يعيش المسلمون في يقظة لما يحدث؟! في نفس الأسبوع الذي نشر فيه هذا التحقيق عن البوسنة والهرسك كان الجمهور في مصر مشغولاً بمشكلة خطيرة ألا وهي تعاقد أحد اللاعبين في أحد الأندية مع ناد آخر، وأصبح هذا الخبر مسيطراً على حياة الناس في أعمالهم وفي وسائل المواصلات، وإذا استعرضنا المشاكل التي تشغل بال باقي الشعوب الإسلامية وجدناها تماثل هذه المشكلة التي شغلت الشعب المصري، وأنسته أرضه وعرضه في البوسنة والهرسك.

(١) جريدة الأهرام العدد ٢٨٩٤٢ بتاريخ ١٩٩٣/٧/٢٠ ص١.

وإذا انتقلنا إلى فلسطين فاليهود يقومون بإبادة شعب، ومحو هويته، ومثل ذلك في الفلبين، وفي الهند، وفي بورما، وغداً في باقي دول البلقان، ولا ننسى ما حدث في الأندلس، وما يحدث الآن بالصومال كل هذا والمظاهرات تقوم في الجزائر ضد الإسلام (لأول مرة في تاريخ الأمة العربية والإسلامية تنظم في الجزائر مسيرات ترفع شعار لا للإسلام ولا للعربية[١].

إن كثرة الهزائم التي يتعرض لها المسلمون الآن والتي سيتعرضون لها في المستقبل القريب تحتاج إلى يقظة. وإلى إيقاظ من هذه الغفلة لأنني أخشى أن نستيقظ يوماً فلا نجد شيئاً نستيقظ من أجله، لقد سقط الاتحاد السوفيتي عدو الغرب التقليدي، ووصفت الاستراتيجيات في الغرب على القضاء على الأمة الإسلامية وهي عدو – إن لم تستيقظ من ثباتها – طبع القياد، شبه منزوع السلاح والعدو يخطط ويتربص، نحن في غفلة أدمناها وتعودناها والحرب القادمة "حرب الحضارات" كما يسميها أكبر أساتذة العلوم السياسية في الولايات المتحدة، ومفهومها هو أن الصراع الأبدي بين البشر هو صراع حضارات[٢].

---

(١) مجلة المختار الإسلامي العدد ١٢٦ يونيو ١٩٩٣ ص٦١.

(٢) مجلة أكتوبر العدد ٨٧٥ بتاريخ ١٩٩٣/٨/١ ص١٨.

ومن هنا يأتي الصراع القادم بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، والمؤلف هو: "صموئيل هنتيجتون".

ليست كل هذه المحن التي تتعرض لها الأمة الإسلامية هي التي تثير الدهشة لأنها أمور متوقعة من العدو الذي يعلم أنه لا بقاء له مع أمة رائدة تحكم شريعة الله تعالى في الحياة، أمة لو يفيق أبناؤها من ثباتهم ويخرجون من كهوفهم لسادوا العالم أجمع في عشرات السنين، إنما الذي يثير الدهشة والحزن معاً، هو أننا كمسلمين نعيش الحياة ببساطة وسلاسة.

وقد تحكمت فينا الذاتية الغافلة حتى أصبحنا لا نسمع وقع أقدام العدو، ولا نرى طلائع قواته القادمة إلينا ... إننا نتاجر ونكسب ونزرع ونحصد، ونقيم الأفراح بالأسابيع والشهور، ومع ذلك فنحن مقبلون بأسرع مما نتصور – إن بقينا على حالنا هذه من الغفلة – على هوة عميقة يليها الفناء.

الباب الرابع

الذاتية المتضخمة

الفصل الأول
مكونات النفس البشرية وعناصرها الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد النبي الهادي الأمين اللهم صلي عليه وعلى آله وأصحابه ومن نهج نهجهم واهتدى بهديهم إلى يوم البعث العظيم.

وبعد ،،،

فإن هذا المقال عن الذاتية المتضخمة يحاول الإجابة على سؤال محدد للغاية وهو: كيف ولماذا تتضخم الذات الإنسانية؟

وللإجابة عن الكيف: نعود إلى مكونات النفس البشرية وعناصرها الأولى ونعرضها كما يلي:

أولاً: في القرآن الكريم

يوضح القرآن الكريم أن الذات الإنسانية ليست وحدة واحدة تقوم على ركيزة واحدة بل وحدة واحدة تقوم على ركائز عديدة منهما:

أ- الروح:

وهي لا ترى ولا تحدد ومع ذلك لا تقوم الحياة بدونها، وهي نموذج للربط الشديد بين عالمي الغيب والشهادة، وقد كلت العقول البشرية وأصابها الإعياء من محاولة استكناه سر الروح في الذات الإنسانية، ولم يسمح للرسل والأنبياء جميعاً بالإطلاع على سرها والوقوف على خبرها، ومع كل ذلك فلا حياة للإنسان ولكل الكائنات الحية بدوها، وإذا كنا لا نستطيع الحديث عن ذاتية الروح فإنه من اليسير تشبيه علاقتها بالجسد بعلاقة الكهرباء بالأجهزة الكهربائية. فالكهرباء تعطي الحياة للجهاز الكهربي وهي قادمة إليه من خارجه، فإذا ما انسحبت منه تحول إلى جثة هامدة وهكذا الإنسان مع روحه قال تعالى: **(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)** (١). فنحن لا نستطيع بعد هذا النص

---

(١) سورة الإسراء آية : ٨٥.

الحديث عن ذاتية الروح وماهية الروح ويبقى المجال متسعاً لهويتها.

ب- النفس:

وهي قوة الاختيار في الإنسان وهي مؤهلة لسلوك كل دروب الحياة وملهمة بذلك. قال تعالى: **(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)**[١] أي ما تتقي وتفجر به وهو الاستعداد (أي الفطرة) لقوله تعالى: **(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)**[٢] وهي تختلف عن الروح، لأن القرآن الكريم والنبي المبين قد بسطا لنا كثيراً من صفات هذه النفس، حتى أصبحت واضحة المعالم ممهدة الصفات.

ج- العقل:

وهو الفهم وهو ميزان كل الأشياء الداخلية والخارجية للإنسان إلا أنه تتنازعه عدة قوى داخل الذات الإنسانية، ويتحدد موقفه ومكانه على هذا الأساس، فإن إنقاذ للشهوات الإنسانية

---

(١) سورة الشمس آية: ٧ ، ٨.

(٢) سورة الروم آية: ٣٠.

وخطط لها كان عقلاً شهوانياً وإن غلبته الروح كان عقلاً روحانياً .. وهكذا.

ثانياً: في علم النفس

وهناك تقسيم آخر عند علماء النفس المحديثين للذاتية والإنسانية، وهذا التقسيم – وإن كان من أبرز التقسيمات – ليس هو التقسيم الوحيد، فهناك تقسيمات عديدة ولكنه أشهرها وأكثرها انتشاراً وهو كما يلي:

يقول فرويد:

إن النفس تنقسم ثلاث طبقات:

١- عندما يولد الطفل قطعة لحم مزودة بأنواع مختلفة من الدوافع الفطرية يطلق عليها ال (هي – هو).

٢- ترى الطفل عندما ينمو ينادى دائماً (أنا) أنا الذي يأكل. أنا الذي يشرب أنا الذي يقضي حاجته. وهكذا يتكون عند الطفل (الأنا) ووظيفته إما تحقيق رغبات ال (هو) أو كبح جماحه إن كان هناك ضرراً على (الأنا) من المجتمع الذي يعيش فيه.

٣- عندما يمتص الطفل من والديه أنواع السلوك المختلفة من أوامر ونواهي تتشكل الطبقة النفسية الثالثة وهي (الأنا الأعلى) وهي السلطة الداخلية التي تحكم وتفند وتنتج عن تعليمات الأبوين وآداب الجماعة والدين.

والشخصية السليمة يقوم (الأنا) فيها بتحقيق التوازن بين (الهو) وبين (الأنا الأعلى) إذ كثيراً ما يحدث صدام بين الرغبتين، فإذا اختل التوازن، ولم يستطع (الأنا) التحكم في هذا التوازن، فإن الشخصية تختل، وقوة (الأنا) ترجع إلى حسن التربية بعد التدليل أو التخويف، وتكون الثقة بالنفس لدى الطفل. وهكذا نرى أن العقد النفسية تنشأ عندما لا يتمكن الفرد من تحقيق جميع رغباته في المجتمع فتضطر (الأنا) إلى كبتها، ومحاولة نسيانها فإذا ما حدث أن تذكرها الفرد يصاب بالاضطراب الداخلي أو الخارجي وهكذا يقع الفرد في صراع نفسي يؤدي إلى ظهور الأمراض النفسية والعقد المختلفة(١).

في الفقرات السابقة قدمنا رؤية علم النفس لمكونات الشخصية الإنسانية ونحن لا نقرها ولا نرفضها؟ وما يهمنا فيها هو

---

(١) مراد بطرس صالح: علم النفس العام ص٤٥، ٤٧٦ ط المكتبة النموذجية ١٩٦٧.

التقسيم: تقسيم النفس أو الذات الإنسانية ومحاولة الوصول لسبر أغوارها واستكناه أسرارها.

الشخصية الإنسانية (الذات من الخارج):

من المسلم به أن حقيقة النفس البشرية والشخصية الإنسانية لا تؤخذ من علم النفس ولا يمكن أن تؤخذ كحقيقة ثابتة إلا من كتاب النفس المفتوح، القرآن الكريم ولكن علم النفس يعالج الجوانب الممكن قياسها من النفس البشرية (إن كثيراً من المعلومات المستفيضة في علم النفس قد جمعت بإتباع ضروب البحث التجريبي، وتبدو هذه الطريقة أنها تقدم أفضل الوسائل لتحقيق اكتشافاتنا، إلا أن الثمن الذي ندفعه هو تحديد تطلعاتنا، فتنكمش إلى جزء من الكائن البشري، ولذلك تعمل على إخماد الاهتمام بالإطار الكلي[١].

ولذلك فعلم النفس لا يقدم لنا إلا القشور عن الشخصية الإنسانية، وهذه النتيجة تصل بالبحث إلى التركيز على المعلومات المتوافرة عن النفس الإنسانية في القرآن الكريم والسنة الشريفة وسيتضح ذلك فيما بعد.

---

(١) د. حلمي المليجي: سيكولوجية الإبداع ص٢٠٥ ط دار المعرفة النموذجية إسكندرية ١٩٨٤ طبعة ثالثة.

بناء الشخصية:

يركز علم النفس في نظرته للشخصية الإنسانية على عاملين هامين:

الأول: مجموعة المواريث التي تنتقل من الآباء عن طريق الجينات الوراثية.

الثاني: مجموعة القيم والتفاعلات المنقولة من البيئة الخارجية إلى الإنسان (ينشأ كل إنسان خلال تفاعل القوى الوراثية والبيئية التي تختلف أهميتها النسبية من شخص لآخر) [١].

الذاتية والخلق:

عند الحديث عن الذاتية والخلق يدور في الذهن سؤال:

هل الأخلاق هي الذاتية؟ أم أنها من أطروحات الذاتية؟

تقع الإجابة على هذا السؤال من واقع المعالجة الموضوعية له، فإذا كان السؤال عن الذاتية الداخلية كانت الإجابة بالنفي الجزئي لأن الأخلاق علامة على الذات وليست جوهر لها، وإذا كان السؤال عن الذاتية من تفاعليتها الاجتماعية ومفاعلاتها

---

(١) د. حلمي المليجي سيكولوجية الإبداع ص٢٠٦ ط دار لمعرفة الجامعية إسكندرية ١٩٨٤ طبعة ثالثة.

الإنسانية، فإن الأخلاق عندئذ تكون مظهراً خارجياً مطابقاً للـذات الاجتماعية. ويحدث الترابط بين الذات والخلق (كثيراً ما يستخدم هذان اللفظان كمرادفين، والواقع أن الخلق اصطلاح تقييمي يشير إلى سمات شخصية معينة، من حيث هي مقبولة أو غير مقبولة اجتماعياً .. أي أن الخلق هو الشخصية مقيمة أخلاقياً أي في ضوء المعايير والقيم الاجتماعية السائدة في المجتمع) [١].

ومن هنا يتضح أن الترابط بين الذاتية والأخلاق ليس ربطاً نهائياً، لأن معايير الأخلاق سواء كانت دينية أو اجتماعية، ليست ثابتة في كل زمان ومكان، فالناس لا يدينون واحد، والعادات الاجتماعية أبعد ما تكون من الوحدة والثبات.

---

(١) المرجع السابق ص٢٠٩.

السمات العامة للذاتية:

نصل في هذه الفقرة إلى محاولة رصد السمات العامة للذاتية وهي تتكون من عناصر عديدة نجملها فيما يلي:

١- المظاهر الموضوعية للسلوك مثل الخصـــائص الجســمية والموضوعية كالطول والوزن واللون.

٢- العوامل الوراثية التي يحصل عليها الشخص من والديه.

٣- **الدين:** الذي يعتنقه الشخص يؤثر إلى حد كبير في ذاتيته إن كان منفعلاً به أو متفاعلاً معه. أما ما عدا ذلك فتأثير الدين على الشخص يكون ثانوياً وشكلياً فقط.

٤- **الثقافة:** ولا نقصد هنا التعليم المنتظم فقط، بـــل مجمـــوع الخبرات الاجتماعية والإنسانية مضافاً إليها هذا النوع مـــن التعليم المنظم.

٥- **النشاط الإنساني:** ذلك العمل الذي يؤديه الإنسان والمركز السلطوي الذي يصل إليه الإنسان عن طريق هذا العمل.

٦- **الهوايات:** وهي مجموع الأنشطة التي يؤديها الإنسان بعيداً عن العمل العادي وقد يكون لهواية من هذه الهوايـــات قـــد تؤثر إلى حد بعيد فى ذاتيته.

هذه بعض العوامل التي تؤثر في ذاتية الإنسان وتبقى عوامل عديدة مثل الحوادث الزمنية، وبعض الظروف الاجتماعية، والاقتصادية والنفسية والصحية التي تؤثر فجأة على سلوك الإنسان وتحوله من شخص إلى شخص آخر، وتضطره إلى الانتقال إلى سمات أخرى للذاتية منها:

أ- **العدوان المباشر:** وهو محاولة الإنسان الاعتداء على مصدر الإحباط كالذي يهم بقتل رئيسه في العمل لسوء معاملته له ودفعه دوماً إلى طريق مسدود.

ب- **التعويض:** التعويض نوعان: تعويض صرف يحاول الشخص فيه التعويض عن شعوره بالنقص بأسلوب شاذ. تعويض عادي: هو الذي يحاول فيه الشخص تعويض أي نقص فيه بطريقة عادية كالذي يشعر أن لديه نقص في تعلم لغة فيحاول أن يتعلمها.

ج- **النقص:** يلجأ إليه من يشعر بنقص معين كالقصر الذي يرافق الطويل دائماً.

د- **التبرير:** يصعب على الشخص أن يعترف بفشله، ولذلك يلجأ إلى تبرير هذا الفشل، وخلق الأعذار لنفسه ولغيره.

هـ- الإسقاط: وهو أن يلجأ الشخص إلى إسقاط ما في نفسه على الآخرين فينسب ما يقع فيه من زلات وأخطاء على الآخرين[١].

في السطور السابقة بعض السمات العامة؟ للذاتية الإنسانية، عندما ينتقل الإنسان من صورة للذاتية الخارجية إلى ذاتية أخرى.

وعندما نتعرض بعد قليل – للذاتية المتضخمة فلا يجب أن تغيب عنا المعلومات السابقة عن النفس الإنسانية. عوامل تأثرها وسمات تفاعلها – كي نصل بيسر إلى إبراز سمات الذاتية المتضخمة.

وسوف نعالج الموضوع معالجة علمية تستوجب أن تكون البداية بدراسة الذاتية المتضخمة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

---

(١) د/ عباس محمود عوض: علم النفس العام ص١٥٣، ١٥٤، ١٥٥ ط دار المعرفة الجامعية إسكندرية ١٩٨٦ طبعة ثالثة (نقل بتصرف).

الفصل الثاني
دراسة الذاتية المتضخمة

أولاً: في ضوء القرآن الكريم:

لعل أول ما يثير حيرة الباحث هو غزارة المادة الخاصة بالذات المتضخمة في القرآن الكريم، وعدم اهتمام علماء المسلمين بدراسة الذات المتضخمة من خلال المادة الغنية في القرآن الكريم، والذات المتضخمة يشار إليها في القرآن الكريم بالكبر ولتكبر والاستكبار وكل مادة كبر (أي زاد حجمه).

وقبل أن نعرض لسلوكيات وأنماط الذات المتضخمة في القرآن الكريم نقول إن النفس البشرية لا تستطيع العيش في الحياة الدنيا إلا من خلال استقامتها مع فطرتها – أي صياغتها – الأولى يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً (النساء: ٢٨).

فالضعف فطرة وحقيقة في الإنسان وقوة الإنسان تكمن في اعتماده واستناده على القوى القاهر سبحانه وتعالى وهذه الفكرة البسيطة هي جوهر قوة الإنسان في الحياة، وإذا استمد الإنسان قوته من خالقه سبحانه وتعالى أصبح أكبر قوة في الكون وسخر الله

تعالى له كل شئ لأنه وهو يمارس قوته في ساحة الحياة يمارسـها وفق إرادة الله سبحانه وتعالى، وهذا (الوفق) يحافظ علـى تـوازن الذات البشرية، ويقاوم تضخمها إلا أن الصـورة المسـجلة عبـر التاريخ لنشاط الإنسان في الأرض تخالف بنسب متفاوتة ومتعاكسة هذا النهج.

ولقد وصل الإنسان من انفلاته من هذه القاعدة إلى حد دعوة الناس لعبادته هو وسوف نعرض الآن للذاتية المتضخمة في القرآن الكريم لنقف على صراع النفس من ذاتيتها الفطرية وهـي تتسـلخ منها صاعدة إلى مجد موهوم نازلة إلى سحيق محتوم.

١- أنماط التضخم الذاتي (دراسة أفقية)

١- التضخم الحاقد:

تدافع الذات المتضخمة عن فاعليتها بـالتحقير مـن شـأن غيرها، فوجود إبليس وآدم في مكان واحد كـان وجـوداً مقبـولاً طبيعياً ولكن ذات إبليس تضخمت وأصبح وجود آدم معه يمثل لـه مشكلة فحاول أن يقتلعه من مكانه ولجأ في ذلك إلى طريقين:

الأول: التحقير من شأنه فرفض السجود له بحجة أنه – أي آدم – من طين.

الثاني: محاولة إخراجه من الجنة بالإغواء لأنـــه أدرك أن قوة آدم ستكمن في اعتماده على الحق سبحانه وتعـــالى فـــأراد أن يبعده عن هذه القوة.

قال تعـــالى: (**قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ...**" (سورة الأعراف: ١٣).

أمره بالخروج من الجنة لأن ذاته تضخمت وفسدت، وبينت الآية أن الذات المتكبرة لا يقف تضخمها عند حد معين وذلك فـــي قوله "**تتكبر**" لأن في هذه اللفظة تفاعل للتكبر أي تناسى له.

ولذلك فالنتيجة التي سنخرج بها الآن من هـــذه الآيـــة: أن الذاتية المتضخمة ذاتية متفاعلة تفاعلاً متنامياً. ولكنه تفاعل سلبي لا يزيد الحياة إلا تعقيداً وتعتيماً.

٢- التضخم في الذات والكفر:

قال تعالى: (**إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** (سورة البقرة: ٣٤).

وفي هذه الآية نمط آخر للذاتية المتضخمة إنها ذاتية عرفت معرفة جيدة، وعرفت أنه سبحانه وتعالى واهب الوجود لكل شـــئ، ومع ذلك أبت أن تنفذ أمره واستكبرت وتعالت، هذه ذاتية إبلـــيس

والبحث في قصة إبليس يكشف لنا أن الذاتية المتضـخمة تعشـق التكبر بل تتلاشى فيه. فإبليس عندما طرده الحق تعالى من لجنـة وأعاده، هذا الطرد إلى حقيقة نفسه الضعيفة لـم يشـأ أن يتـوب ويحظى برضا الله تعالى وجنته، بل فضل علـى ذلـك أن يعـيش متكبراً متعال.

قوله تعالى: **(قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ . قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ . قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)** (الأعراف ١٣: ١٦).

في هذه الآيات بدت ملامح الذاتيـة المتضـخمة واضـحة فإبليس يرضى بالطرد من رحمة الله تعالى في مقابـل أن يتمتـع بتكبره.

نتيجة

هذه القاعدة السابقة في ذاتية المتكبر تساعد على فهم ودراسة أصحاب هذا السلوك، ومن ناحية أخرى تكشف لنا عن القسوة والمعاناة التي يلقاها كل من يتعامل مع أصحاب هذه الذات المتضخمة إلا أن هذه المعلومات تساعدنا على حد كبير في علاج هذه الذاتية المتضخمة، وإن كانت نسبة النجاح في علاج هذه الحالات ضئيلة جداً وغير مضمونة في كثير من الأحيان.

٣- الذاتية المتضخمة والصراع:

يلازم الصراع الذاتية المتضخمة أنى وجدت حتى كأنه مظهراً أساسياً لها لأن الذاتية المتضخمة لا تكتفي بالتعالي والتعاظم المتنامي داخلها، ولكنها تصنع لهذا التعالي وذلك التعاظم مجالاً خارجاً عن الذات مطروحاً في ذوات الآخرين. وكل صراع سواء كان عاماً أو خاصاً، فإن للذات المتضخمة وجود فيه، إن لم تكن عينه، أو هي هو.

وفي صراع الحق مع الباطل في الحياة، أخذت الذات المتضخمة جانب الباطل دائماً، لأن الحق لا يناسب طموحاتها ولا يوافق نزعاتها ونزواتها بينما لا تجد في الباطل قيوداً ولا حدوداً وهذا ما يفسر شغف بعض الناس بالباطل وتنسكهم له. والقرآن

الكريم يرصد صراع الحق مع الباطل وفي جوهره تكمن الذات المتضخمة المستكبرة أو يكمن فيها ويخرج منها.

أ- قال تعالى: (**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ** ..." (البقرة : ٨٧) في هذه الآية وصف دقيق لصراع النفوس المستكبرة مع النبوة، عبر عنه الحق تعالى أحسن تعبير حين قال: عن علة الاستكبار إن الرسول جاء "**بما لا تهوى أنفسكم**" لأن النفس المستكبرة كما ذكرنا أنفاً لا تجد لها مكاناً في ظلال الحق ولا يجتمع شملها إلا في رحاب الباطل.

وعن تفسير هذه الآية يقول الإمام ابن كثير:

ينعت الحق تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء وأنهم إنما يتبعون أهواءهم.

وهذه الآية تكشف عن نوع من أنواع تضخم الذات، لأن الذات المتضخمة يمكن أن تكون ذات فرد، أو أسرة كاملة أو قوم من الأقوام، وتضخم الذات عند اليهود تضخم قومي عام، فقد تجد عند بعض الأفراد منهم بعض التواضع إلا أنك لا تحد ذلك في سلوكهم في مواجهة غيرهم من الأقوام[1].

( ) الإمام ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج١ ص١٢١ ط مكتبة الصحابة بطنطا.

ب- قوله تعالى: **(أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ)** (الجاثية : ٣١) هذه الآية توضح لنا أن التضخم في الذات يؤدي إلى الإجرام والصراع ويبعد بالإنسان عن حقيقتـــه الأولـــى وفطرته النقية.

ج- قوله تعالى: **(وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ)** (الأحقاف: ١٠) لا خلاف بين القرآن الكـــريم والكتـــب السابقة التي أنزها الله سبحانه وتعالى، فإذا آمـــن نفـــر مـــن بنـــي إسرائيل بالتوراة مثلاً فلماذا يأتي نفر منهم بعـــد ذلـــك ويكفـــرون بالقرآن.

الخلاصة: أنها الذاتية المتضخمة التي قبلت شيئاً في وقت ما ورفضته في وقت آخر. وكان ذلك سبباً كافياً لنشوء الصراع بـــين المسلمين واليهود بعد ذلك.

د- قوله تعالى: **(وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً)** (النساء: ١٧٣) **"يستنكف"** : يتكبر ويأنف. [1].

جاءت الآية السابقة في معرض التمييز بين الذين وقفوا على حقيقة ذواتهم وعلموا ضعفها، فاستمدوا لها القوة مـــن الله تعـــالى، وبين الذين تضخمت ذواتهم حتى وجدوا في عبـــادة الله تعـــالى ذلاً

( ) تفسير الجلالين ص٩٠ ط دار التراث. القاهرة.

وهواناً فاستنكفوا ذلك وأنفوا منه، ونشأ الصراع بينهم وبين الـذين ساروا في طريق الهداية والرشاد.

هـ- قوله تعالى: **(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ...**" (الأعراف: ٣٦) كيف استكبروا عنها؟

القريب للذهن استكبروا عليها وعنها؟ ابن كثير: اسـتكبروا عن العمل بها[١]. الجلالين: عنها. فلم يؤمنوا بها[٢].

ما سبق من تفسير لا يوفي الآية حقها وتميل الـنفس علـى ضوء هذه الدراسة إلى أن "**استكبروا عنهـا**" أي تجاوزوهـا، لأن الآيات ترسم حدوداً للبشر من أجل خيرهم في الدنيا والآخـرة، إلا أن الذوات المتضخمة تجد في هذه الآيات عثرات أمام انطلاقاتهـا المخبولة إلى اللامحدود.

وفي هذه الأيام تشاع أقوال في المجتمع الإسلامي تنقل عن البعض ممن يدعون العلم من المسلمين المستغربين يقولـون أننـا يجب أن نؤمن بالأديان كتراث روحي، ولا نقف عندها إذا أردنـا الحركة والعمل في الحياة، هـؤلاء هـم الـذين اسـتكبروا - أي تجاوزوها - ونظروا إليها على أنها نظم سـاذجة لا تـنهض بهـا

---

(١) ابن كثير ج٢ ص٢١١.

(٢) الجلالين ص١٢٧.

حضارة وهم في الحقيقة برؤيتهم هذه يدمرون الحضارة ويزرعون الصراع.

و- قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ...**" (الأعراف: ٤٠).

كيف تفتح لهم أبواب السماء؟ لا تفتح لهم أنهم تجاوزوا كل نظام ضبطه الله سبحانه وتعالى، وشتان بين من لا يطبق شرع الله تعالى كسلاً وخبلاً وبين من لا يطبقها لأنها لا تصلح في نظره.

فالأول له رجال والثاني له نكال ووبال.

ز- قوله تعالى: **(قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ** (الأعراف: ٧٥: ٧٦).

بمجرد أن أعلن الذين استضعفوا إيمانهم برسالة نبي الله تعالى صالح عليه السلام، أعلن الذين استكبروا كفرهم بهذا النبي، وهذا مظهر خطير من تفاعلات النفس البشرية المتضخمة، فمن يقف على سبب كفر هؤلاء، سوف يتعجب كثيراً ويتحير أكثر لأنه يرى أن هؤلاء أضاعوا دنياهم وأخراهم بسبب تكبرهم أن يؤمنوا

بنبي آمن به الضعفاء من الناس إنهم لم يرفضوا جوهر الرسـالة، ولا نقضوا شرعها إنما تحدد موقفهم على ضوء إيمان الضعفاء.

ومن الممكن أن ننتفع بهذه المزايا النفسية التي يرصدها لنـا القرآن الكريم في مجال الدعوة الإسلامية الحديثة للموازنـة بـين استعداد الأفراد لقبول هذه الدعوة أو رفضها، قبل أن نخوض فـي موضوع الدعوة ونقدم للناس جوهرها. أي يجب علينا أن نـدرس البيئة المستقبلية للدعوة والمتقبلة لها، قبل أن نلقي بالبذور في هـذه الأرض الجديدة.

ح- قوله تعالى: **(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ)** (الأعراف: ٨٨) هذا النوع من الاستكبار يفرض الصراع فرضاً ولا يترك مجالاً للسلام لأنه يطلب من النبي والمؤمنين معه أن يتركوا ديارهم وأموالهم أو يعودوا إلى الكفر بعد الإيمان، لقـد كبرت ذوات هؤلاء حتى ظنوا أنهم بكبريائهم ملكوا الأرض ومـن عليها (من قريتنا) والمهم هنا هو عدم القدرة على التعـايش مـن جانب الذوات المتضخمة مع الغير في مكان واحد، إلا إذا كان هذا الغير نمطاً متكرراً، وعند ذلك يدمره ويدمر نفسه أي أن المتكبـر يتمنى أن تحاكيه في كل شئ فإذا ما أتقنت ذلك انقلب عليك مـرة

أخرى فهو لا يرى إلا نفسه في الوجود. لأن ذاته تتضخم حتى تلتهم، وهذا من واقع خياله المريض.

ط- قوله تعالى: "**فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ قالوا لو هدانا الله لهديناكم**" (إبراهيم : ٢١) تختلف لغة الذات المتضخمة عن غيرها من الذوات، فعندما يتجه الضعفاء باللوم على الذين استكبروا .. يقولون لهم "**لو هدانا الله لهدينكم**" أي أنهم يعتبرون أن طريق الإيمان يجب أن يمر من خلالهم هم - أي من خلال ذواتهم ٠ فهم يجعلون من أنفسهم مصدراً للهداية ومهبطاً للوحي والتلقي وكل ذات متضخمة دأبها هذا النمط من السلوك وبعض الناس يتصورون أن الإيمان لا يأتي للناس إلا من خلال مكاشفتهم والهاماتهم وظنونهم مع أن سلوكهم لا يتسق كثيراً مع ما يرضي الله تعالى ورسوله ﷺ - وبعض الناس يكتشفون في نهاية الطريق أنهم آمنوا بذواتهم كثيراً وآمنوا بربهم قليلاً، وأحلوا قومهم دار البوار.

تنوع الصراع

ويستمر الصراع في الأرض بسبب تضخم الذات البشرية، وفي حلقة من حلقات هذا الصراع يقف المشركون أمام رسول الله ﷺ ويعلنون موقفهم من دعوته والذي ينم عن ذواتهم

المتضخمة المتعالية فيقول الله تعالى: **(وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا المَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُواً كَبِيرا (الفرقان: ٢١).**

تصور هذه الآية جانباً من جوانب تضخم الذات البشرية وما ينتج عن هذا التضخم، فبالنسبة للتضخم "**استكبروا في أنفسهم**" أي أن الاستكبار حدث في داخل الذات، أي تضخمت ذواتهم من الداخل لأن التضخم لا يظهر على الذات من الخارج إلا في صورة أعراض شكلية تتقلب إلى أعراض لازمة مع الوقت وبالنسبة لما ينتج عن التضخم تقول الآية الكريمة "**وعتوا عتواً كبيراً**" فقد وصف الفعل "**عتو**" بالكمية فجعلها "**عتواً كبيراً**"[(١)].

ولعل الأستاذ سيد قطب من بين المفسرين الذين فطنوا لموضوع تضخم الذات. **فعن هذه الآية يقول: (**لقد عظم شأنهم في نظر أنفسهم فاستكبروا وطغوا طغياناً كبيراً، لقد تضخم شعورهم بأنفسهم حتى شغلهم عن تقدير القيم الحقيقية ووزنها وزناً صحيحاً، لقد عادوا ما يحسون إلا أنفسهم وقد كبرت في أعينهم وتضخمت وعظمت حتى ليحسبونهم شيئاً عظيماً في هذا الكون يستحق أن يظهر لهم الله جل جلاله، ليؤمنوا ويصدقوا) [(٢)].

---

(١) العتو: هو الاستكبار ومجاوزة الحد (المعجم الوجيز ص٤٠٦).

(٢) الأستاذ/ سيد قطب: في ظلال القرآن ج٥ ص٢٥٥٨ ط دار الشروق ١٩٨٢م.

ولقد وضع الأستاذ سيد قطب يده على نقطة الضعف في الذات البشرية حين تتضخم .. وتنطلق خارج حدودها الطبيعية وتتجاوز الرسول ﷺ وتطلب رؤية الله تعالى من غير واسطة. وبرغم اختفاء الكثير من ألوان الشرك، إلا أن رؤية الله تعالى بطريق المكشافة ما زالت تمثل أملاً بالنسبة لكثير من الناس لقد طلبها المشركون عن كفر، وهؤلاء يرجونها عن حب، ولكن تضخم الذات هو القاسم المشترك عند الجميع. فلا يطلب رؤية الله تعالى في الدنيا من يستحضر عظمته تعالى في قلبه ولكن يطلبها من يستحضر عظمة نفسه ولا شئ غيرها.

لا إله إلا الله:

قال تعالى: (**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ. وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ**) (الصافات: ٣٥، ٣٦).

إن لا إله إلا الله تصيب أصحاب الذوات المتضخمة بنوع من رد الفعل المعاكس لأن الكون كله يتلاشى في لا إله إلا الله، وهم يرفضون هذا التلاشي القهري، فالذات المتضخمة لا ترى شيئاً يحدها، ناهيك عن شئ تتلاشى فيه، ولذلك ينقلبون – في مواجهة هذا الموقف – بالسب والعنت لرسول الله ﷺ ويقولون كيف نترك

آلهتنا (لشاعر مجنون) فهذا موقف أخر من مواقف الصراع التضخمي في القرآن الكريم.

تعدد التضخم:

قال تعالى: (**الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّار**) (غافر ٣٥). هذا لون من التضخمية يقترن بالمجادلة في آيات الله تعالى بغير دليل يستحق أصحابه بسببه مقت الله تعالى، ومقت الذين آمنوا، ولكن الله تعالى يخبرنا بطبيعة هؤلاء بأنهم مطبوعون على هذا التكبر المقيت.

قال تعالى: (**فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**) (النحل: ٢٩).

فهؤلاء المتكبرين لهم مكان البئيس الحقير المستقذر، جزاء تكبرهم في الحياة الدنيا.

ويقول: (**أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ**) (الزمر: ٦٠).

ويقول: (**قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**) (الزمر: ٧٢).

ويقول: " ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (غافر: ٧٦).

ويقول تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً. اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ..." (فاطر: ٤٢، ٤٣).

فالبداية كانوا ينتظرون النذير ويباهون بهذا الانتظار أنهم الصفوة التي تتطلع إلى الفجر الجديد، فلما جاء الضياء كانوا أول من حاول إطفاءه، وإخفاءه فالذات المتضخمة تستكبر حتى على أملها، وتستعلى على هدفها.

قال تعالى: (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً(نوح: ٧).

في الآية السابقة صفة لازمة للذات المتضخمة وهي (مقاومة الحقيقة) فنبي الله تعالى نوح عليه السلام يدعوا قومه إلى معرفة الله تعالى، ومع أن ذلك يحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة إلا أنهم يهربون منها – من الحقيقة – ولكنهم لا يتركون للحقيقة لحظة واحدة يتفحصوها ولكنهم يضمون ثيابهم على أعينهم ويجعلون أصابعهم في آذانهم قبل أن يولوا مدبرين (فإن لم يستطيعوا الفرار)، لأن الداعية واجههم مواجهة، وتحين الفرصة ليصل إلى أسماعهم

بدعوته، كرهوا أن يصل صوته إلى أسماعهم وكرهوا أن تقع عليه أنظارهم وأصروا على الضلال واستكبروا عن الاستجابة لصوت الحق والهدى وإصرارهم على الضلال، تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة. تبرز في وضع الأصابع في الآذان وستر الرءوس والوجوه بالثياب والتعبير يرسم بكلماته صورة العناد الطفولي الكامل .. فآذانهم لا تسع أصابعهم كاملة، إنما هم يسدوها بأطراف الأصابع ولكنهم يسدونها بعنف بالغ كأنما يحاولون أن يجعلون أصابعهم كلها في آذانهم ضماناً لعدم تسرب الصوت إليها بتاتاً، وهي صورة غليظة للإصرار والعناد، كما أنها صورة بدائية أطفال البشرية الكبار) [١].

يرسم المؤلف صورة صادقة للنفس المتكبرة المتضخمة إلا أن الجديد الذي أضافه هو وصف الذات المتضخمة بأنها تعاني من طفولة بدائية وهو بذلك يضع يده على جانب من جوانب الذاتية المتضخمة.

قال تعالى: **(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)**

(لقمان: ٦ : ٧).

---

(١) المرجع السابق ج٦ ص٣٧١٢.

في هذه الآية صورة من تفاعل الذاتية المتضخمة، فهي هنا لا تهرب من الحقيقة كما في الآية السابقة، ولكنها تقاومها، لأنها تستجلب كل الثقافات والأفكار، وتطرحها بديلاً عن شرع الله سبحانه وتعالى، ثم تعقب ذلك بالسخرية من شريعة الله سبحانه وتعالى، ولكنها تعاني من الضيق والغظ حين تضطر إلى سماع آيات الله تعالى سماعاً مباشراً.

قال تعالى: (**يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**) (الجاثية: ٨).

وهذه حالة أخرى من حالات الذاتية المتضخمة .. فصاحب هذه الذاتية يجلس لسماع البراهين الربانية ويدور بداخله صراع عنيف بين الإذعان للحقائق والإمعان في الضلال، ولأن الحقائق لا تناسب ذات المتكبر، فإنه يصر على البقاء على حاله وكأنه لم يسمع شيئاً يتلى عليه. "**يسمع آيات الله تتلى عليه**" أي تقرأ عليه "**ثم يصر**" أي على كفره وجحوده استكبار وعناداً "**كأن لم يسمعها**" أي كأنه ما سمعها "**فبشره بعذاب أليم**"

مقاومة الحقيقة:

قال تعالى: (**إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ**) (النحل: ٢٢).

وقال تعالى: **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ)** (المنافقون: ٥).

وقال تعالى: **(قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ. مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ)** (المؤمنون: ٦٦: ٦٧).

الآيات السابقة توضح الكيفية التي تتم بها مقاومة الذاتية المتضخمة للحقائق أنها محاولة مصرة بل مسرفة في الإصرار لرفض الحقيقة رفضاً تاماً.

(إننا حين نعرف الحقيقة مسبقاً ولا نكون مستعدين للاعتراف بها، إنما نعاني مرضاً في الروح، وتشاؤماً عميقاً يهدد كامل المجتمع) [١].

فهذا الموقف الذي تتخذه الذات المتضخمة من الحقيقة ليس موقفاً عنادياً كما يبدو من أول وهلة، إنه موقف يعبر عن مرض في الروح، وتضخم في الذات.

ويصف الله سبحانه وتعالى هذا المرض بقوله: **(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)** (غافر: ٥٦).

فهذه الآية الكريمة تجسم هذا المرض من خلال الصورة التي ترسمها الكلمات وتظللها المعاني.

---

(١) جون لويس: الإنسان ذلك الكائن الفريد ص٢٥ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ترجمة / صالح جواد الكاظم.

فائدة

والفائدة التي سنخرج بها من تحليل الذات المتضخمة هي أنها ذات مريضة تجب معالجتها، أو محاصرتها إن لم يجد العلاج.

ويصف كثير من علماء النفس هذه الذات بإنها ذات هستيرية (تتميز بعدم النضج والتمركز حول الذات في هذه الحديث والمظهر ..) (١).

إنها ذات تدور حول نفسها وتفقد شيئاً فشيئاً اتصالها بالواقع، بل تتعاكس معه في كثير من الأحيان، إنها تستشعر أن العالم خلق خصيصاً من أجل أن توجد فيه هي، فهي أكبر من الزمان والمكان والواقع والخيال. أنها هي ولا شئ غير ذلك. أنه حلم هستيري يقاوم الواقع، وينهار أمامه عند نهاية الطريق.

ب- درجات التضخم الذاتي (دراسة رأسية)

في الصفحات السابقة قدمنا صورة أفقية للذات المتضخمة من خلال عرض القرآن الكريم لها. وعلى الصفحات التالية نقدم دراسة رأسية لهذه الذات، وتفرض علينا واقعية البحث الرأسي أن تختار شخصية واحدة تضخمت ذاتها ونتابع تضخم هذه الذات،

---

(١) د/ عبد المنعم الحفني: موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ج٢ ص٣٧٣ ط: مكتبة مدبولي ١٩٧٨م.

وأعراض هذا التضخم من خلال عـرض القـرآن الكـريم لهـذه الشخصية.

ومن المؤكد أن شخصية فرعـون هـي الشخصـية التـي تضخمت ذاتها ووصلت إلى النهاية في هذا المجال، حتى أعلن على الناس "**أنا ربكم الأعلى**" ولذلك فدراسة هذه الشخصية تفيد الباحثين في ميدان النفس البشرية فائدة جمة، لأنها صورة صادقة معبرة عن واقعها وعن مرضها على السواء.

وسوف نحدد ملامح هذه الصورة من خلال عـدة مواقـف قرآنية متتابعة.

الموقف الأول: البداية الفاعلة للتضخم:

لم يقدم القرآن الكريم صورة مفصلة عن حياة فرعـون .. طفولته وشبابه .. وكهولته .. لعل مرجع ذلك إلى أن هذا الجـزء من حياة فرعون غير فاعل في سياق القصة، وغير باعـث علـى تكوين العبرة، أو أن فرعون في فترة شـبابه وقبـل أن ينصـب فرعونا لم تكن ذاته تضخمت بعد، أو أن القـرآن الكـريم أراد أن ينقل لنا صورة عن فرعون واحد يتشابه مع عشـرات الفـراعين ولذلك سنبدأ بالعرض الأول لصورة فرعون في القرآن الكريم.

البداية الفاعلة:

قال تعـالى: **(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)** (القصص: ٤).

هذه بداية قوية لقصة فرعون المتعالي، وهي بداية تشـتمل على الأسس التي تكونت منها شخصية فرعون "**إن فرعون علا في الأرض**" أي تكبر وتجبر وطغى "**وجعل أهلها شيعاً**" أي أصنافاً قـد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولتـه "**يستضـعف طائفـة منهم**" يعني بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، هذا وقد سلط عليهم ذلك الملك الجبار العنيد يستعملهم فـي أخـس الأعمال، ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحي نساءهم إهانة لهم واحتقاراً) (١).

كل ما حدثتنا عنه هذه الآية الكريمة من أفعال تعتبر عرضاً لمرض فرعون بالتضخمية والحقيقة أن تضخم الذات ليس مرضـاً نفسياً في بدايته – لأنه موجود عند كثير من الناس ولكن بنسبة غير مرضية – إلا أنه يتحول مع الوقت إلى مرض عضال لا علاج له إلا بالقضاء على صاحبه، ففي بداية الأمر تفقد الذات المتضـخمة

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص٣٧٩ ط مكتبة الصحابة – طنطا.

شيئاً فشيئاً القدرة على معايشة الواقع، ثم بعد ذلك تتمركــز حــول ذاتها، وتصاب بهوس العظمة (وهوس العظمة: هو تعظيم الــذات وتضخيمها بشكل مرضي يؤدي إلى إصابة الفرد بأوهام العظمــة. بسبب تلف القدرة على اختيار الواقع .. ومن ثم تتضخم ذاته بشكل مبالغ فيه وتستحيل هي إلى كل عالمه) [١].

هذه السطور تساعدنا على فهم شخصية فرعون في المرحلة التي سبقت غرض الموقف الأول من القصة في القــرآن الكــريم ولكن يجب لفت النظر إلى براعة القرآن الكريم في العرض. فبرغم جمال اللفظ ودقة المعنى إلا أن البعد العلمي في غاية الوضوح، لأن تضخم الذات دائماً وفي كل زمان يكون على حساب ذوات أخــرى مستضعفة.

ولذلك فالقرآن الكريم يقول: "إن فرعون علا فــي الأرض" هذا هو الخبر الأول، والخبر التالي له مباشرة هو "**وجعــل أهلهــا شيعاً**" فهناك تلازم يشبه تلازم المقدمة والنتيجة.

ويمكن استنباط خاصية أخرى للــذات المتضــخمة. وهــي خاصية اختزال كل الذوات المجاورة في ذات المتضخم. بمعنى أن الرجل حين يكون متسلطاً متضخم الذات في بيته فهــذا التضــخم

( ) موسوعة علم النفس ص٤٤٥.

يخصم من كل ذات في الأسرة فلو افترضنا أن كل فرد في الأسرة له مساحة تضخمية قدرها عشرة أمتار فإن الأسرة التـــي عــددها خمسة أفراد يكون حجم تضخمها العام خمسين متراً فإذا تضـــخمت ذات من هذه الأسرة وسيطرت وأخذت هذه المساحة (خمسين متراً) فإن نسبة التضخم لكل أفراد الأسرة تصـــبح صـــفراً، لأن الـــذات السوية ذات متعاونة متفاعلة مع الآخرين بينما الـــذات المتضـــخمة تضر الآخرين وتعقد حياتهم (إن الشخص السوي هو الذي يعمـــل للآخرين ويوجههم ويسعى لخيرهم وهو الشخص الذي يمكنـــه أن يهتم بمساعدة الآخرين، وأن يكون معهم علاقات شخصية وعاطفية وثيقة وعلاقات مبنية على الاهتمام والرعاية، وليس علـــى مجـــرد الرغبة في التعالي أو ممارسة السلطة) [1].

ومن هنا تأتي خطورة الذات المتضـــخمة لأن ضـــررها لا يتعلق بصاحبها فقط بل هو في الأساس ينصب على الآخرين.

الموقف الثاني: التدرج في التضخم:

من المؤكد تاريخياً أن المصري القديم من الفراعين كان يبدأ حياته عادياً ثم ينصب في وقت ما ملكـــاً وإلهـــاً وحاكمـــاً علـــى

---

(١) د/ فرج عبد القادر طه. سيكولوجية الشخصية المعرفـــة للإنتـــاج ص٢٧ ط مكتبـــة الخانجي – القاهرة ١٩٨٠م.

المصريين، ولذلك فتضخم الذات تضخماً متدرجاً فهو في بداية الأمر يقبل المناقشة والبحث في الكون عن إله غيره، ولكنه في النهاية يصل إلى درجة الجزم بأنه هو الإله الأعلى.

فعن المرحلة الثانية (محاولة البحث) يقول الحق سبحانه وتعالى: **(قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى. قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى. قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى. قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى)** (طه: ٤٩- ٥٢).

وقال تعالى: **(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ)** (الشعراء: ٢٣ : ٢٨).

بعد هذه المناقشة اهتزت ثقة فرعون في نفسه وأدرك أنه ليس بإله لأن سيدنا موسى عرض عليه وعلى قومه صفاته الإلهية من خلال تفاعل القدرة الإلهية في الكون – السموات والأرض، المشرق والمغرب – وفرعون ذرة من ذرات هذا الكون، ولكن موسى عليه السلام بهذه الحجة القوية كاد أن يحاصر هذه الذات المتضخمة بعد أن حوصرت من الداخل. وفي محاولة للدفاع عن هذه الذات المتضخمة لجأ فرعون إلى طريقين: الطريق الأول

تسخير سلطته واستعمال قوته لإنهاء هذا الموقف "**لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين**" (طه: ٢٩).

وعلى مر العصور وكر الدهور ما زال صاحب الذات المتضخمة ينهي مناقشته بهذا الأسلوب إذا استشعر أن الخصم يلجئه للحق.

الطريق الثاني: محاولة البحث في الطبيعة. قلا تعالى: "**وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلى أبلغ الأسباب. أسبب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب**" (غافر: ٣٦، ٣٧).

إن التضخمية عند فرعون هيأت له صورة الإله مثل صورته هو أو أكبر، أو مثلها ولكن في مكان بعيد، ومن هنا بدأ يتخذ أسباباً مادية لمشاهدة الإله الذي حدثه عنه موسى عليه السلام، ومن الممكن أن يكون فرعون مدركاً تماماً أنه لن يستطيع رؤية الإله، ولكنه لجأ إلى هذه الحيلة الخبيثة ليخبر الناس بعد أن ينزل من فوق هذا الصرح، أنه لم ير إلهاً قط، وأن موسى عليه السلام كاذب فيما ادعاه: "يا هامان ابن لي بناء عالياً لعلى أبلغ به أسباب السموات لأنظر وأبحث عن إله موسى "**وإني لأظنه كاذباً**" هكذا

يموه فرعون الطاغية ويحاور ويداور كي لا يواجه الحق جهـــرة، ولا يعترف بدعوة الوحدانية التي تهز عرشه، وتهدد الأساطير التي قام عليها ملكه، وبعيد عن الاحتمال أن يكون هـــذا فهـــم فرعـــون وإدراكه وبعيد أن يكون جاداً في البحث عن إله موسى على هـــذا النحو المادي الساذج.

وقد بلغ فراعنة مصر من الثقافة حداً يبعد معه هذا القصور، إنما هو الاستهتار والسخرية من جهة، والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة أخرى، وربما كانت هذه خطة للتراجـــع أمـــام مطـــارق المنطق المؤمن، في حديث الرجل المؤمن، وكل هذه الفروض تدل على إصراره على ضلاله، وتبجحه في جحـــود، "**وكـــذلك زيـــن لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل**" وهو مستحق لأن يصد عن السبيل، بهذا المراء الذي يميل عن الاستقامة، وينحرف عن السبيل، ويعقب السياق على هذا المكر والكيد بأنه صائر إلى الخيبة والدمار "**وما كيد فرعون إلا في تباب**" إذن ليس هناك موقف واضح مـــن داخلية فرعون. هل كان يدعي الإلوهية عن اعتقاد، أم أنـــه كـــان يخادع كعادة المتضخمين دائماً في كل زمان ومكان؟

الموقف الثالث: الإدعاء المتضخم:

قال تعالى: "**اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى. فـأراه الآيـة الكبـرى. فكـذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنـا ربكـم الأعلـى**" (النازعات : ١٧: ٢٤).

هذه الآيات تصور الإرتباك الذى وقع فيه فرعون، عنـدما واجهه موسى بهذه الحجة القوية "**الآية الكبرى**" وبرغم هذا القـدر الضخم من التلطف في الدعوة "**هل لك إلى أن تزكى**" هل ترغـب في التطهر الجسدي والروحي والأخلاقي وفي كـل شـئ، إلا أن الحجج المتخفية تحت هذه الكلمات اللطيفة أربكت فرعون، وبـذلك قام بثورة سريعة قوية لمواجهة هذه الحقيقة وربما ينبئ هذا الإيقاع السريع في رد الفعل إلى أن فرعون لم يكن يعتقد أنه إلـه حقيقـي ولكنه كان يعتقد أن لعظمة ميراث لأسرته مدى الحياة، ورمز هذه الحقيقة عند الناس، هو الألوهية المدعاة.

الموقف الرابع: الغرق في التضخم:

قال تعالى: "**وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعـون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الله الذي أمنت به بنوا إسرائيل وأنا مـن المسـلمين. الآن وقـد عصيت قبل وكنت من المفسدين**" (يونس ٩٠، ٩١).

الحديث عن خطورة الذات المتضخمة على الناس حديث معاد، ولكن هذه الآية الكريمة تصور خطورة الذات المتضخمة على صاحبها فها هي تضخمت حتى ضاق عنها الكون في داخل صاحبها وأدعى بها الألوهية وهي نفسها التي أردته غريقاً وهو يعدو خلف مخلوق مثله.

ولكن المهم لنا في هذا البحث أن هذه الآية تؤكد أن فرعون كان يعرف الحقيقة ويعرف أنه ليس بإله ولكنه خادع للنهاية ولذلك يقول الحق تعالى "**آلآن**" ؟ هذا الاستفهام يؤكد أن فرعون كان يعرف الإله الأعلى قبل الغرق ولكنه غرق في التضخم حتى غرق في البحر.

ثانياً: في ضوء السنة النبوية الشريفة

تواكب السنة النبوية الشريفة في بلورتها للذات المتضخمة القرآن الكريم وتوضح ماهية الذات على نفس النسق القرآني، ويصل النبي ﷺ إلى عمق أسرار الذات المتضخمة، ويوضح للناس سماتها العامة.

ويخبر ﷺ عن علاقة هذه الذات بالحق سبحانه وتعالى فيقول: "ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على

الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر"[١]. رواه البخارى فى هذا الحديث إشارتان على سبيل الإجمال.

الإشارة الأولى:

تتجه إلى صفات النفس السوية وهي النفس التي تشعر بالضعف مهما قوى مكانها وعظمت مكانتها في الحياة لأن الضعف في الحديث ليس هو الفقر كما يتبادر إلى الذهن، وإلا لأصبحت الجنة حكراً على الفقراء، ومنهم من ضيع نفسه وأمته، وهو يبحث عن غير سبيل الرشاد فالضعف في الحديث الشريف شعور يعبر عن حالة لا حالة تعبر عن شعور.

إنه العودة إلى الفطرة التي تستشعر جلال الله تعالى، وعظم خلقه وتبصر مكان الإنسان ومكانته في كون الله تعالى العظيم، ومن هنا تصل إلى أحكام صائبة على أمور صحيحة. وهناك ينتفي الغرور وتختفي الشرور وتشرق النفس بنور ربها، ثم تستمر النفس في هذا الطريق طريق الضعف وكأنها تؤدي تمريناً دائماً على هذه الحالة عن طريق الخشوع القلبي فيتحول العبد من ضعيف إلى متضاعف ويستحق بذلك الجنة لأنه عاش عبداً ولقى ربه كذالك.

---

(١) فتح الباري ج١٠ ص٥٠٤ دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ.

الإشارة الثانية:

وهي تتعلق بصفة أهل النار وهي: أن يكون الإنسان عتلاً وجواظاً ومستكبراً لأنه إذا كان الشعور بالضعف يصحح خطوات العبد بين أفنان المعاصي والشهوات، فإن الاستكبار يظلم فطرة العبد، ويذهل ببصيرة النفس ويسد على العبد كل طريق إلى الرشد، وكل سبيل إلى الخير، لأن الاستكبار يجعل العبد يقوم بدور غير الدور الذي خلق له، وينزع عنه ثوب العبودية ولا يمنحه ثوباً آخر يرتديه، بل يتركه يبحث عن أردية لا حصر لها، ويظل عارياً عن حقيقته ومفهوم ذاته، ولذلك، فقد اعتبر تضخم الذات مرضاً عصى العلاج بعيداً من الشفاء وتصبح – أي حركة للذات المتضخمة طريقاً إلى مقت الله سبحانه وتعالى .. ولذلك يقول النبي ﷺ "لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء"[١]. رواه مسلم.

يرصد هذا الحديث حركة جر الثوب خيلاء كدليل على تضخم الذات مع أن ارتداء الثوب الجميل الحسن من غير خيلاء لا يضر كما سنرى في الحديث التالي:

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٤ ص٦٠ ط مكتبة الغوالي دمشق. بدون.

قال رسول الله ﷺ: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" فقال رجل: [١] إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؟ قال: "إن الله جميل يحب الجمال – الكبر: بطر الحق وغمط الناس"[٢].

في هذا الحديث يوصد رسول الله ﷺ أبواب الجنة في وجه من كان في قلبه ذرة من كبر، ولذلك كانت دهشة الصحابة عظيمة حتى استفسر أحدهم عن هذا الكبر الذي يحرم العبد من الجنة، أهو شعور الإنسان بالسعادة والغبطة حين يلبس الثوب الحسن، وهو شعور فطري طبيعي أنه ليس كذلك مع ما يدخل النفس من شعور بالعزة والامتياز عند ارتداء الملابس الجميلة الغالية. وقد يصاحب ذلك شعور بالتكبر عند بعض أصحاب النفوس المضطربة ولكنه شعور غير أصيل لا يلبث أن يزول وتعود النفس إلى صفوها، وتستلهم رشدها غير بعيد، أما الكبر الذي يحرم صاحبه من الجنة فهو بطر الحق بمعنى طمسه وقطعه ونكرانه، وغمط الناس، أي عدم إعطائهم حقهم بتقدير جهدهم أو احترام مكانتهم، وهذان عرضان من أعراض التضخمية في الذات، لأن الذات المتضخمة

---

(١) هو: مالك بن مرارة الزهاوي. دليل الفالحين ج٣ ص٦٧ ط دار الفكر. بدون.

(٢) رياض الصالحين ص٢٧٦ ط الحلبي.بدون.

ترى في الحق عدواً لها، لأنها ركبت طريق المخالفة، وسارت عليه، وبنت مجدها الوهمي على جنباته، فكيف لها تبصر طريق الحق أو تذعن لفروضه، وهي ذات تغمط الناس جميعاً لأنها تريد أن توسع لنفسها مكاناً يستغرق الكون كله لا يجاورها في هذا المكان أحد، فهي وحدها معبودة "**ما علمت لكم من إله غيري**"(١) أو عابدة فهي تستحق المكاشفة والإلهام والتوفيق والمعرفة وغيرها من البشر في عداد الحيوانات الدارسة.

تلك هي بعض صفات الذاتية المتضخمة في بعض أحاديث الصادق الأمين المصطفى ﷺ.

---

(١) سورة القصص: ٣٨.

الفصل الثالث
تضخم الذات عند الغزالي

للإمام أبي حامد الغزالي بحث قيم في تضخم الذات الإنسانية من خلال الكبر والعجب ضمنه كتابه إحياء علوم الدين[١]، ويعتبر هذا البحث من المباحث العلمية التي سبقت في فهم وتشخيص فعاليات الذات المتضخمة وإذا استثنينا بعض الأدلة الضعيفة في هذا البحث فإنه لا غنى عنه بعد ذلك لمن أراد أن يتحدث عن الذاتية المتضخمة.

يقول الإمام الغزالي:

(الكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتان بغيضان).

---

(١) وبرغم جودة هذا المبحث حول تضخم الذات إلا أننا يجب أن ننبه إلى عدم التسليم بكل ما جاء في الأحياء للأسباب الآتية:

أ- أنه من الكتب التي تلح في الدعوة إلى الزهد في المال والعمل وهما من أهم مقومات الحياة الناجحة للأمة.

ب- أن كثيراً من مرويات الإحياء تدور بين الضعف والوضع مما يزيد من صعوبة الاستنتاج العلمي الصحيح.

ج- إن هذا الكتاب وإن عالج بعض أمراض الأمة في فترة من تاريخها إلا أنه لا يناسب الأمراض الآنية.

وقد ذم الله تعالى الكبر من كتابة، وذم كل جبار متكبر، فقال تعالى: "**سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في ارض بغير الحق ..**" (الأعراف: ١٤٦).

وقال عز وجل: "**كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار**". (غافر: ٣٥).

وقال تعالى: "**واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ..**" (إبراهيم: ١٥).

وقال تعالى: "**إنه لا يحب المستكبرين**" (النحل: ٢٣).

وقال تعالى: "**لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً**" (الفرقان: ١٣).

وبعد ذكر هذه الأدلة وغيرها من الحديث الشريف والآثار نأتي بقول النعمان بن بشير (إن للشيطان مصالى وفخوخاً وإن من مصالة الشيطان وفخوخه: البطر بأنعام الله تعالى، والفخر بإعطاء الله تعالى، والكبر على عباد الله تعالى واتباع الهوى في غير ذات الله تعالى) [١].

---

(١) اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ج١٠ ص٢٢٨ ص٢٤٤٣ ط دار الكتب العلمية ببيروت. لبنان ١٩٨٩.

قدم الإمام الغزالي في هذا الجزء من البحث موقف الذاتيـــة المتضخمة من العقيدة ووضع يده على تشخيص – سلوك المتكبـــر والمعجب، وذلك في قوله "**والمتكبر والمعجب سقيمان مريضـــان**" وهو ما نهدف إليه في البحث من اعتبار تضخم الذات مرضاً، يجب دراسته وفهمه ومحاولة علاجه على هذا الأساس وليست المســألة موقوفة على ضعف وقوة الإيمان فحسب، بل مستخلصة من عوامل عديدة ومؤثرات كثيرة.

محاصرة الذات:

يحاول الإمام الغزالي محاصرة الذات المتكبرة والإلمام بهـــا من خلال نقله لأقوال العلماء وهو ينتقي هذه الأقوال بحيث يجعلها تجمع بين التنوع والشمول فيقول (وقال أبو ســليمان: لا يتواضـــع العبد حتى يعرف نفسه، وقال أبو يزيد: ما دام العبد يظن أن فـــي الخلق من هو أشر منه فهو متكبر فقيل له: فمتى يكون متواضـــعاً؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً – وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته لنفس، وقال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعى عند نفسي ما قدروا عليه.

وقال عروة بن الورد: التواضع أحد مصائد الشرف، وكـــل نعمة محمود عليها صاحبها إلا التواضع.

وقال يحيي بن خالد البرمكي: الشريف إذا تنسك تواضع والسفيه إذا تنسك تعاظم.

وقال يحيي بن معاذ: التكبر على ذي التكبر عليك بماله تواضع.

ويقال التواضع في الخلق كلهم حسن، وفي الأغنياء أحسن، والتكبر في الخلق كلهم قبيح، وفي الفقراء أقبح.

ويقال: لا عز إلا لمن تذلل لله عز وجل. ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه لله عز وجل.

وقال أبو على الجوزانى: النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد، فمن أراد الله تعالى هلاكه، منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله تعالى به خيراً، لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع من نصر الله تعالى، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عزَّ وجلَّ.

وعن الجنيد أنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه: التواضع عند أهل التوحيد تكبر ولعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه ثم

يضعها، الموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئاً حتى يضعها أو يرفعها.

وعن عمرو بن شبية قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلاً راكباً بغله وبين يديه غلمان وإذا هم يعنفون الناس قال ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر فإذا أنا برجل حاف حاسر، طويل الشعر قال: فجعلت أنظر إليه وأتأمله فقال لي: مالك تنظر إليّ؟ فقلت له: شبهتك برجل رأيته بمكة وصفت له الصفة، فقال له: أنا ذلك الرجل، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: إني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس، فوضعني الله حيث يترفع الناس.

وتفاخرت قريش يوماً عند سلمان الفارسي ﷺ فقال: (لكنني خلقت من نطفة قذرة، ثم أعود جيفة منتنة، ثم آتى الميزان. فإن ثقل فأنا كريم، وإن خف فأنا لئيم) (١).

هذه الأقوال التي نقلها الإمام الغزالي ألقت الضوء على كثير من جوانب الذاتية المتضخمة، وكانت أحياناً تصف العلاج – ولذلك طالت هذه الفقرة بعض الشئ – ومن هنا تتضح صورة الذاتية المتضخمة عند الإمام الغزالي، وهو يحق من القلائل الذين تنبهوا إلى اعتلال النفس البشرية بأمراض تخرجها عن طبيعتها، وتباعد بينها وبين فطرتها.

---

(١) المصدر السابق ص٢٦٥-٢٧٠.

حقيقة الذاتية المتضخمة عند الغزالي:

يقول: (أعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن هو خلق في النفس والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح، واسم الكبر بالخلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق، وخلق الكبر موجب للأعمال، ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر، وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر، فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فإن الكبر يستدعى متكبراً عليه ومتكبراً به، وبه ينفصل الكبر عن العجب- لأن العجب لا يستدعى غير المعجب، بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده، تصور أن يكون معجباً ولا يتصور أن يكون متكبراً، إلا أن يكون متكبراً، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبراً، فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه، ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر، ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره. فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر، لا أن هذه الرؤية تنفي الكبر، بل هذه

الرؤية وهذه العقيدة تنفع فيه، فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك. فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر، فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين – وهو الاستعظام – كبر وانتفخ وتعزز. فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات، وتسمى أيضاً عزة وتعظيماً ... ثم هذه العزة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبراً، فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره، حقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده، وترفع عن مجالسته ومؤاكلته، ورأى أن حقه أن يقوم ماثلاً بين يديه إن اشتد كبره، فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلاً للقيام بين يديه، ولا بخدمة عتبته، فإن كان دون ذلك فيأنف من مساواته وتقدم عليه في مضايق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه، وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وإن وعظ استنكف من القبول وإن وعظ عنف في النصح، وإن رد عليه شيئاً من قوله غضب، وإن علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم، وينظر إلى العامة وكأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً.

فهذا هو الكبر وآفته عظيمة هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلاً عن عوام الخلق وكيف لا تعظم آفته وقد قال رسول الله ﷺ: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" وإنما صار حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها لأن من فيه كبر لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شئ من العز ولا يقدر على التواضع وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد، وفيه العز ولا يقدر أن يدوم على الصدق، وفيه العز، ولا يقدر على ترك الغضب، وفيه العز ولا يقدر على كظيم الغيظ، وفيه العز، ولا ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز ولا معنى للتطويل: فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ به عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه.

أقسام المتكبر عليه:

الأول: التكبر على الله تعالى:

وذلك هو أفحش أنواع الكبر ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمرود، فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء ومثل فرعون وغيره.

الثاني: التكبر على الرسل:

ويأتي من تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه، وتارة يمتنع من المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل.

الثالث: التكبر على العباد:

وذلك بأن يستعظم نفسه ويحتقر غيره فتأبى نفسه عن الانقياد لهم، وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزد ربهم ويستصغرهم ويأنف من مساواتهم وهذا القسم وإن كان دون الأول والثاني فهو عظيم من وجهين:

أ- أن الكبر والعزة والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر.

ب- أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره وأن المتكبر إذا سمع الحق من غيره استنكف عن قبوله وتشمر لجحده(١).

أسباب التكبر:

يرى الإمام الغزالي أن أسباب التكبر تنحصر فيما يلي:

أسباب دينية: وهي العلم والعمل.

أسباب دنيوية: وهي النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار.

---

(١) المصدر السابق ص٢٧٠: ٢٨٣ نقل بتصرف وإضافة.

العلم:

وعن العلم يقول: وما أسرع الكبر إلى العلماء، فـلا يلبـث العالم أن يتعزز بعزة العلم ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم نظرة إلى البهـائم .. ويرجع ذلك إلى سببين:

الأول: أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً وليس علماً حقيقياً، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به الإنسان وربه ونفسه، وخطر أمره في لقاء الله تعالى .. وهذا يورث الخشية والتواضع.

فأما ما ورا ذلك من علوم كالطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرح المجادلات، فإذا تجرد الإنسـان لها حتى امتلأ منها امتلأ بها كبراً ونفاقاً وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً.

الثاني: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخيلة، ردئ النفس، سيء الأخلاق فإذا خاض في العلم .. صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً، فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره .. كالغيـث يتنزل من السماء حلواً صافياً، فتشربه الأشجار بعروقهـا فتحولـه على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة، فكذلك العلـم يحفظه الرجال فيتحول على قدر هممهم وأهوائهم فيزيـد المتكبـر

كبراً والمتواضع تواضعاً فما أعز على بسيط الأرض عالماً يستحق أن يقال له عالم ولا يحركه عز العلم وخيلاؤه، فإن وجد ذلك فهـو صديق زمانه. وهيهات: فأني يسمح آخر الزمان بمثلهم وكما يغرى العلم تغرى العبادة أيضاً وتظهر على سلوك العابد أعراض منهـا: الترفع في المجالس، التقدم على الأقران، إظهار الإنكار على مـن يقصر في حقه يصعر خده للناس، يعبس وجهه، ويقطب جبينـه – كأنه متنزه عن الناس أو غضبان علـيهم. ولا يعلـم المسـكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعـبس، ولا في الخد حتى يصعر، ولا في الرقبة حتى تطأطأ، ولا فـي الـذيل حتى يضم. إنما الورع في القلوب. كما قال رسول الله ﷺ "التقوى ها هنا"[١] وأشار إلى الصدر.

الأسباب الدنيوية:

التكبر بالحسب والنسب:

فالذي به نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً .. وذلك عرق دفين في النفس لا ينفـك عنه نسيب ، وإن كان صالحاً وعاقلاً، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(يظهر منه) عند اعتدال الأحوال، فإن غلبه غضب أطفأ نور بصيرته وظهر منه ذلك.

التفاخر بالجمال:

وذلك أكثر ما يجرى بين النساء، ويدعو ذلك إلى التنقص والغيبة وذكر عيوب الناس.

الكبر بالمال:

وذلك يجرى بين الملوك في خزائنهم والتجار في بضائعهم وبين الدهاقين في أراضيهم وبين المتجملين في لبسهم، وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغني الفقير.

الكبر بالقوة وشدة البطش:

ويكون التكبر على أهل الضعف.

التكبر بالأجماع والأنصار:

ويجرى ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين.

وبالجملة فكل ما هو نعمة ويعتبر كمالاً .. أمكن أن يتكبر به.

وبعد حديث الإمام الغزالي عن أسباب التكبر (أي تضخم الذات الإنسانية) يعود فيحدثنا عن أسباب التكبر الداخلية فيقول:

أعلم أن الكبر خلق باطني، وأما ما يظهر من الخلق والأفعال فهو ثمرة ونتيجة وينبغي أن تسمى تكبراً ويبقى اسم الكبر للمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس، ورؤية قدرها فوق قدر الغير، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالمتكبر، وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة: سبب في المتكبر وهو: العجب – وسبب في المتكبر عليه وهو: الحقد والحسد. وسبب يتعلق بغيرهما وهو: الرياء[1].

ويعقب الإمام الغزالي على هذا الفصل الجيد عن الذاتية المتضخمة بفصل آخر عن الغرور إلا أنه يشتمل على عناصر التكبر ولذلك اكتفينا بما سبق إلا أننا ننصح بمراجعة هذين الفصلين لمن أراد أن يعد دراسة أخرى فى هذا المجال.

---

(١) المرجع السابق ص١٩٦١ وما بعدها. نقل بتصرف.

الخاتمة

بعد أن استعرضنا ما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة عن الذاتية المتضخمة والمرور على رأي الإمام الغزالي فى تضخم الذات ظهرت عدة نتائج من خلال البحث. تتلخص فيما يلي:

١- أن تضخم الذات من الأمراض النفسية التي يصعب علاجها لأن هذا التضخم يتفاعل مع وجود الإنسان نفسه فى الحياة ورغبته الجامحة في الخلود.

٢- أن تضخم الذات من الأمور التي تضر بعقيدة الإنسان وبتوجهاته في الحياة وتخلط عليه الأمور، وتوقظ في نفسه الغرور، وتجعله عنصر مزدوج التفاعل، فصاحب الذات المتضخمة إيجابي في تكثيف الأحداث في الدائرة التي يعيش فيها، سلبي في خلافته في الأرض وفي عطائه للحياة.

٣- أن تضخم الذات من الأمور التي لا تكتشف مبكراً لأنها تتفاعل داخل الشخص المصاب بهذا المرض، في منطقة اللاشعور، وتكثف الكبت والحزن والحرمان، والفشل وتمزجها وتفجرها أفعالاً إيجابية عكسية لهذا الشعور المكثف في اللاشعور، وهذا المرض النفسي يشبه إلى حد

كبير مرض السرطان العضوي فهو يتكون في داخل الجسم من تفاعل المواد السامة والضارة ولا يعلن عن نفسه إلا عندما يستحيل العلاج، وهكذا تتكون وتتبلور الذاتية المتضخمة في منطقة مظلمة في اللاشعور ثم تخرج مرة واحدة سلوكاً عملياً يرتكز على قناعة نفسية ومزاج غريب.

٤- أن صاحب الذات المتضخمة لا يمنطق حياته، ولكنه يستنطقها لصالحه وينطقها بما يريد، وكما تتنوع صور العمى في العيون، يصاب صاحب الذات المتضخمة بأنواع من العمى العقلي والفكري وكل عمى يمنع العقل من أداء وظائفه الحيوية والفكرية.

٥- تتركز صعوبة علاج مريض الذاتية المتضخمة في عدم استجابته لحالة الاستبصار التي تعتبر الأساس الأول في علاج الأمراض النفسية بصفة عامة علاجاً نهائياً وناجحاً. وعلى سبيل المثال:فالذي تتضخم ذاته من مرتكز العلم - أي يدعي أنه عالم، في حالة علاجه يتحتم على المعالج النفسي الوصول إلى أن يبصر ذاته ويعلم أن علمه بجانب علوم الآخرين لا يساوي شيئاً، وبجانب العلم الحقيقي للأشياء لا يعد علماً، وعندما يصل إلى هذه الحالة مع

المعالج يبدأ من أول طريق العلاج، ولكن هيهات هيهات أن يعترف صاحب الذاتية المتضخمة بأنه يجهـل شـيئاً فـي الحياة، ويستحيل هذا الاعتراف، ويستحيل معه العلاج، لأن اعتراف صاحب الذات المتضخمة بأي نوع من الضـعف ينسف ذاته ويدمرها ولا يعالجها لأنها قامت أساسـاً علـى الخيال، وعندما تحاول فصلها عن هلاميتها تميتهـا لأنهـا مثل النبات الذي يفصل من جذوره وتبعـد عنـه أسـباب الحياة، ومع هذا يبقى الأمل في أن يقوم المعالج الخبير في فصل الذات عن جذورها على فترات طويلة، ويقطع جذراً أو يستبدله بجذر آخر، حتى يصل في النهاية إلـى وضـع جذور تعويضية تمد الذات بمقومات الحياة النفسية الطبيعية الصحيحة. إلا أن هذا الإحلال للمقومات النفسية في داخل الذات المتضخمة ليس سهلاً، بل تتضاءل أمامه كل أنـواع استبدال الأجهزة العضوية التي تشكل مجموع أجهزة الجسد الإنسـاني، فمشـكلة العـلاج تكمـن فـي الاستبصـار، والاستبصار يعاكس الذاتية المتضخمة في أسـاس بنيانهـا النفسي وسر وجودها في الحياة.

٦- وعند الإمام الغزالي تعود أسباب تضخم الذات إلى كثـــرة المال، وقوة الجسد، والتفوق في العلوم المختلفة، ولعل هذه الأسباب كانت مناسبة لتضخم الذات في زمانه إلا أن تفاعل الأحداث وتراكمها وسرعة حدوثها في الحياة، وبعد الناس من حيلة الدعة والسكينة، والانتقال من الحياة الشعرية التي يمزج فيها الإنسان بين خيال وخيال، إلى الحياة الواقعيـــة، التي فيها الإنسان بين واقع معـــاش، وواقـــع لا يســـتطيع تفسيره.

كل هذا أدى إلى استحداث أسباب كثيرة لتضخم الذات:

١- **التعويض:** فالإنسان الذي يعيش ظروفاً قاسية في طفولتـــه ولا يجد سبيلاً لفهم ما يحدث له يشعر بـــالقهر والدونيـــة ويترسب هذا الشعور في اللاشعور ويكمن فتـــرة طويلـــة حتى يكبر هذا الإنسان ويتبوأ مركزاً في الحياة ويمنحه هذا المركز فرصة للسيطرة على الآخرين. هنا فقـــط تتحـــرك نيران الماضي الكامنة في اللاشعور وتضطرم وتتصـــاعد أفعالاً وسلوكيات يصعب تفسيرها أو فهمها إذا ما عرضناه على منهاج السواء النفسي للإنسان.

٢- وتتعقد ظروف الحياة ويكثر عدد اليتامى الذين توفى عنهم آباؤهم بسبب الحروب والأحداث، أو بطريقة طبيعية، ولكن المجتمع لم يعد لديه الوقت والرغبة فى تعويض هؤلاء بالحب والحنان بسبب ضعف الإيمان من جهة، وتزاحم الأحداث من جهة أخرى، هؤلاء اليتامى الذين حرموا من الحنان فى طفولتهم سيصبح بعضهم في المستقبل مصدراً للذاتية المتضخمة، ويكون منهم العالم المتكبر، والحاكم المتجبر، والداعية الذي يدعو لنفسه وهو يظن أنه يدعو إلى دين الله سبحانه وتعالى. والمزارع الذى ينشغل بذاته عن زراعته وقضية وطنه الكبرى وكذا الصانع الذي تشغله ذاته عن أهداف أمته العظمى. **والفرق بين الذاتية المتضخمة والذاتية السوية**، أن الأولى تتلاشى الأمة بأهدافها في داخلها، والثانية تذوب في أمتها وفى أهدافها. فالإنسان الطبيعي يعمل لخير أمته من غير أن يضع ذاته عنواناً لهذا الخير، والإنسان المريض صاحب الذاتية المتضخمة، يتخيل أن الأمة ما خلقت إلا لخدمته هو وأن يكون سيداً مطاعاً عليهما.

٣- وتتضخم أيضاً ذات بعض المصابين بالعاهات وليس ذلك – كما يتبادر إلى الذهن – بسبب العاهة ولكنه بسبب تجاهل المجتمع لآمال وأحلام صاحب العاهة، ولذلك عندما يجد صاحب العاهة فرصة لإثبات يثبتها متضخمة من البداية.

٤- ويدخل الفقر الذي يعانيه الإنسان في طفولته وكذا الحرمان كسبب من أسباب تضخم الذات عند بعض الناس حين تتغير ظروفهم المادية ويصبحون من الأغنياء وأقول عند بعض الناس، لأن أصحاب النفوس السوية حين يفتح الله تعالى لهم أبواب المال يتجهون إلى حمد الله تعالى على عطائه، بالقول والعمل فيحمدون الله تعالى ذكراً، ويخرجون حق الفقراء من أموالهم شكراً وهؤلاء يتلاشى شعورهم الكامن بالدونية لأنهم بحمد الله تعالى وضعوا أساساً لبنيان ذواتهم على مرتكز الفطرة وفي ضوء الشريعة التي تحدد أهداف الإنسان في الحياة، وتبشرة بسعادته في الآخرة.

٥- ويأتي اتضاع الأسرة ودنو مستواها عاملاً من عوامل تضخم الذات عند بعض الأفراد حين يكبرون ويصبح لهم المال والجاه في الحياة.

الذاتية المتضخمة والدعوة:

تفيد دراسة الذاتية المتضخمة ميدان الدعوة الإسلامية فـــي كثير من الأمور منها ما يلي:

١- فهم النصوص النفسية فهماً عميقـــاً يشـــارك فـــي عـــلاج الأمراض الاجتماعية والنفسية وهي في مرحلة التكوين قبل أن تصبح مراضاً.

ويتحتم على الدعاة الوقوف طويلاً أمام اهتمام القرآن الكريم بالمستضعفين من بني الإنسان فبالنسبة لليتيم يقول الله تعالى: "**فأما اليتيم فلا تقهر**" (سورة الضحى: ٩).

فاليتيم يحتاج إلى طعام وشراب وكساء، لكن الله تعالى هنـــا يأمرنا برعاية الجانب النفسي عند اليتيم فيأمرنا ألا نكون سبباً فـــي قهره، وليس هذا تصدقاً من الناس على اليتيم، بـــل هـــو حمايـــة لمستقبلهم ومستقبل أبنائهم حين يشتد عود اليتيم وتقـــوى ســـاعداه ويستطيع أن ينكل بالمجتمع الذي لم يرحم طفولته ونفسيته.

ويجعل القرآن الكريم (دع اليتيم) سبباً من أسباب التكـــذيب بالدين فيقول الله تعالى: "**أرأيت الذي يكذب بالدين. فذلك الذي يدع اليتيم**" (سورة الماعون: ١، ٢) في هذه الآية التكذيب بالدين لا يأتي بسبب حرمان اليتيم من المال كما في ســـورة النســـاء "**إن الـــذين**

يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً" (سورة النساء: ١٠). فآية النساء تهتم بالمال، وآية الماعون تهتم بالجانب النفسي لأن القرآن الكريم يعالج مشكلات الإنسان بصورة شاملة.

وبالنسبة لأصحاب العاهات:

يرفع القرآن الكريم عنهم، فيقول الله تعالى "**ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ...**" (سورة النور: ٦١). لأن حرج أصحاب العاهات يسبب لهم آلاماً نفسية خطيرة تؤثر على مستقبلهم النفسي.

وهكذا اهتمت الدعوة الإسلامية منذ البداية بهذه الجوانب التي أهملناها الآن بسبب الخلافات المذهبية والعنتريات الفردية التي تشبه إلى حد بعيد تضخم الذات وفهم النصوص الدينية بهذه الطريقة يبرز إنسانية الإسلام، وشموله للحياة.

٢- الاهتمام بالأبحاث النفسية في الدراسات لأن النفس البشرية وهدايتها هما أمل الداعية وهدفه ومجال عمله.

٣- اهتمام الدعاة بالمؤسسات الاجتماعية التي تخفف من آلام الناس مثل الجمعيات الخيرية الدينية والتي تقوم على الشعور الديني والإنساني، وهذا يجعل الداعية ينتقل من

الدعوة النظرية إلى الدعوة العملية المفيدة التي تخفف آلام الناس وتمسح عنهم الحزن وتضئ حياتهم، وهذه هي دعوة رسول الله ﷺ إمام الدعاة، وسيد الهداة.

إن الدعوة اللفظية التي تعتمد على الأحاديث الموضوعة والقصص الخرافية أماتت في أمتنا العزيمة وجلبت لها الهزيمة، وأقامت ساتراً من الضباب بين الأمة ومستقبلها الكبير ......

أ.د/ محمد أبوزيد الفقى

الفهرس

* * *

تم بحمد الله

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٣/١٥/٩٦/٧
الترقيم الدولى
977-335-132-7